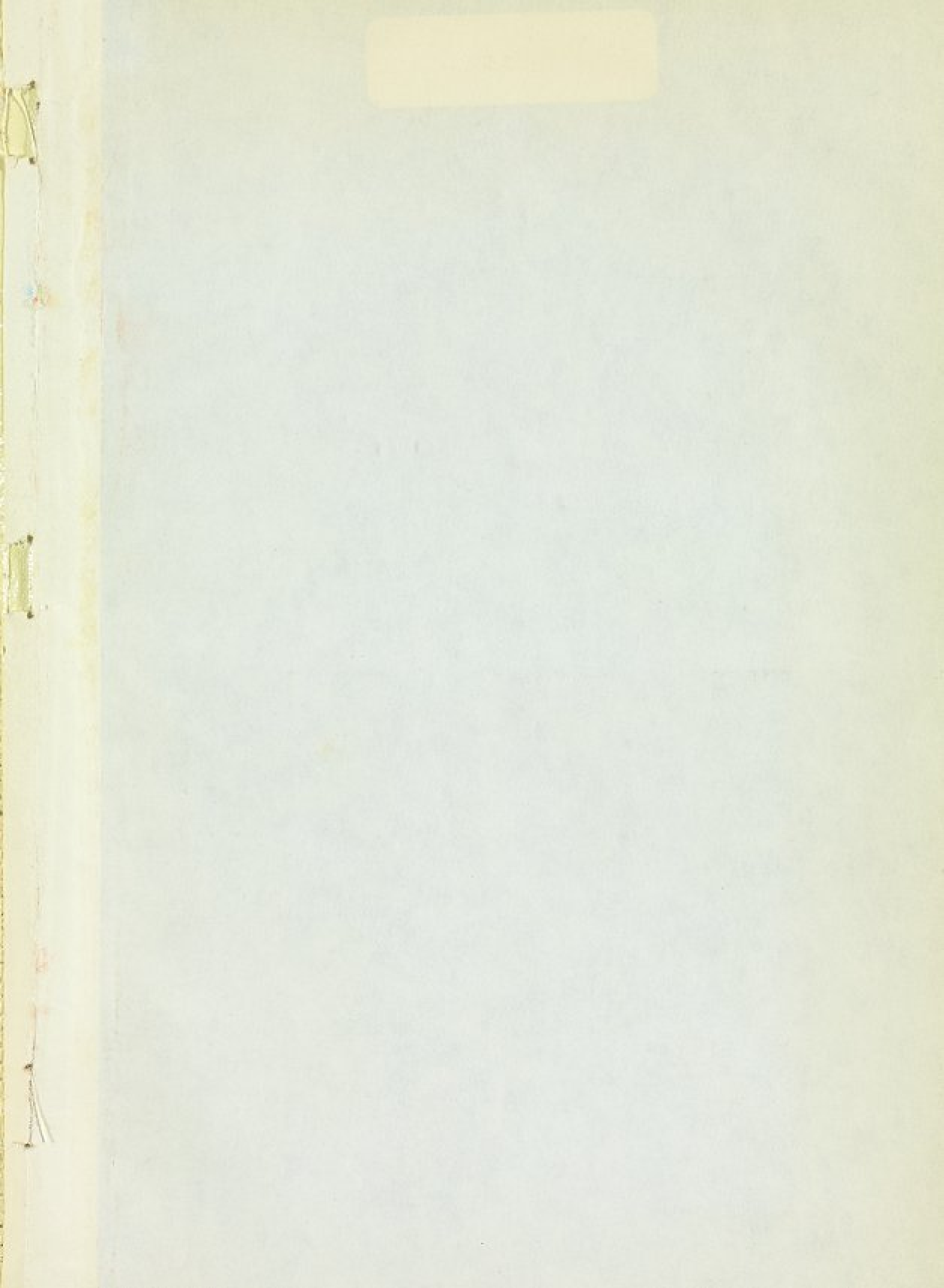


DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE





فارس زرزور

معارك الحرية في سورية

قصة الكفاح الشعبي من اجل جلاء القوات الاجنبية ...
الكتاب الفائز بجائزة قائد الجيش العربي السوري للبحوث العسكرية والقومية لعام ١٩٦٢ .

ممتاز

دار الشرق



فارس زرزور

مَعارك الحرّية في سوريّة

قصّة الكفاح الشعبي من أجل جلاء القوّات الأجنبيّة

الكتاب الفائز بجائزة قائد الجيش العربي السوري للبحوث العسكريّة والقوميّة لعام ١٩٦٢

دار الشرق للنشر والتوزيع
دمشق

السيد فارس زرزور

استناداً الى قرار اللجنة المحكمة في المسابقة التي أجرتها ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي لاختيار أفضل كتاب يحكي قصة كفاح شعبنا من أجل الجلاء

يسر قيادة الجيش العربي السوري ان تبلغكم نبأ فوزكم بالجائزة الثانية ، وان تهنئكم على جهدكم القومي الادبي الذي اضفتم به الى مكتبتنا العربية سفراً تاريخياً حديثاً يضم حقائق بطولات شعبنا في ثوراته المظفرة لنيل حريته واستقلاله .

فلكم شكرنا وتقديرنا

والسلام عليكم

[illegible]

صورة الشهادة الممنوحة الى المؤلف من قيادة الجيش العربي السوري

الغلاف بريشة ممتاز البحرة

الطبعة الاولى ١٩٦٢

مقدمة

كانت معارك الكفاح التي خاضها شعبنا العربي في سورية طوال ربع قرن ضد الاستعمار جزءاً من حركات الكفاح الذي خاضته الشعوب للتحرر من النير الاستعماري حين ظن الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الاولى انه قد انتهى من اعادة تقسيم العالم لحسابه • واذا بالشعوب تتمرد وتثور وتبدأ في دك الصرح الاستعماري المتشامخ •

وكان لشعبنا العربي الأبي في سورية شرف حمل راية الكفاح المقدسة من جديد في ثورات عنيفة كانت مع بقية الحركات الثورية في البلدان العربية الاخرى اللبنات الاولى التي بني عليها استقلال سورية والبلاد العربية والتي فتحت الطريق لوضع شعار الجلاء موضع التنفيذ بعد ان كان مجرد أمنية •

فنحن ندين اذن في تحرير سورية والعالم العربي لتلك الحركات الثورية في الماضي والتي لا نزال نستمد منها العون للمستقبل •

ولما كانت هذه الثورات سلاحا يمكننا اشهاره في وجه المستعمرين ومعينا لا ينضب من الطاقة الثورية فهل قمنا بدراسة هذه الثورات دراسة علمية نقدية كافية بل هل قمنا على الأقل بتاريخها ؟ اننا لسوء الحظ لم نفعل ذلك حتى الان بل نحن نجهل التفاصيل الدقيقة عنها ، ونحن لم نعط كل قوس باريها حقا وصدقا ، ولم نقم بتقويمها وبتحديد مكانها في تاريخ ثورات التحرر العالمية •

نعم لقد كانت ثورات تحرر وطني ، ولكن هذا القول لا يغني عن الدراسة العلمية النقدية التقويمية ، وخاصة بالنسبة لشعب يريد ان يرسم خط سير واضح ، وبالتالي يريد ان يتجنب الاخطاء ويحدد نقاط

الارتكاز لحركته الوطنية في المستقبل • فما قيمة التاريخ الماضي اذا لم يرسم نهجا قويما للمستقبل ؟ اننا نعتقد بأن كتابة تاريخنا فيها وجوه نقص كثيرة تعكس آثارها على تاريخ مستقبل أمتنا العربية • ولقد حان الوقت لان تصبح دراسة ثورات كفاحنا دراسة بعيدة عن كيل المديح والتمجيد الاعمى للاشخاص ، وربط مقدرات الأمة بالأفراد ، والنظرةالجامدة للاحداث ، ولأن نعطيها قيمتها في ظروفها التاريخية المعينة وكشكل من أشكال الصراع •

لقد كانت هذه الثورات تتضمن عناصر ايجابية وأخرى سلبيـــة ، وان المهمة الملقاة على عاتقنا هي تمييز الايجابية عن السلبية ودراستها على ضوء ظروفها التاريخية التي حدثت فيها لترتفع الى مستوى الدراســة العلمية الجدية •

ومن المناسب أن نشير الى التقصير الكبير من هذه الناحية • فـان مؤرخينا لم يكتبوا حتى الآن بشكل واضح لماذا أخفق بعض هذه الثورات في حينها وما هي نقاط ضعفهـا وما هي أخطاؤها وما هي عيوبها الولادية وتناقضاتها الداخلية التي أوقفت نموهـا عند حدود معينة عجزت عن تجاوزهـا ، وما هي الصلـــة بين قيادتهـــا وبين جمـــاهيرها • ولن نتمكن من تحقيق هذا بدون الدراسة النقدية المبنية على الوثائق •

واذا انتقلنا الى مجال آخر هو مدى وعي الناس لهذه الاحداث الثورية لرأينا أن شعبنا ولا سيما الجيل الناشيء لا يعرف الا القليل عن هـذه الثورات عن دورها وأهميتها ، وهذا القليل مستقى من الكتب المدرسيـة القليلة النجع • فحتى تعيش قصة كفاحنا في كل صدر وتكون محرك كل فكر وعاطفة ، يجب أن يعرفها الناس أولا ، واننا لنتساءل اين هي الاساطير الشعبية عنها ، أين هي المرويات والأغاني الفولكلورية ، أين هي اللوحات الفنية التي تحيي ذكراها ، أين هي الانصاب التذكارية لذكرى أبطالهـا وشهدائها ؟ لو كانت في كل صدر وفي كل قلب لانعكس هذا في مئات الاناشيد والتماثيل والصور (غير التجريدية !) والمسرحيات والاساطير والافلام • ثم من نعرف من أبطالها وما هي معلوماتنا عنهم وما هي بطولات آلاف الناس البسطاء المنسيين الذين كافحوا وماتوا ، في سبيل حياة الوطن وكرامته لا لشيء آخر ، أو عادوا الى مزاولة أعمالهم وحرفهم ، دون أن

تصلنا حتى أسماؤهم ، والذين ما تألقت بعض الاسماء في مقامات الزعامة الا من انعكاس وهج نضالهم ! ما هي مآثرهم ، ما هي اللمحات العبقرية والانسانية في هذه المآثر ؟ دلونا كم من الناس يستطيع الاجابة ؟

ان بعضنا يقدر هذه الثورات بدافع وطني بحت ولكنه لا يملك الأدلة والوثائق ولا الاسماء والاحداث • والبعض الآخر يتجاهل هذه الثورات ويقلب شفته لدى سماعه باسمها مكتفيا بالقول اننا نلنا استقلالنا منة من الاستعمار أو بفضل عبقرية دبلوماسية لسياسي معين •••

الخلاصة أن علينا أن ندرس تاريخ هذا الكفاح الوطني دراسة جديدة ، أن نجمع وثائقه ومروياته ، ثم نقف موقف الناقد لا موقف العابد المجد • فبالدراسة وحدها وبالنقد العلمي وحده نحول دون أن يكون هذا التاريخ أسطورة فارغة لا تقنع أجيالنا القادمة وتحول دون تكريس الفردية والعشائرية والعصبية القبلية التي تنشأ حين نجعل من تاريخ الآحداث مجرد مديح لهذا الزعيم أو ذاك البطل ، فتضيع الحقيقة التاريخية ويزداد تشويش الجيل الجديد باعطائه صورة مضطربة أو ناقصة عن أهم فترات تاريخنا ، ومن ثم يحال بينه وبين الفهم الصحيح للتاريخ •

وبعد فان الجيل القديم سيجد لدى قراءة هذا التاريخ فائدة كبرى حين يعيد من نفسه تقييم الاحداث التي عاصرها على ضوء التطورات التي حدثت فيما بعد • أما الجيل الجديد الذي لم يطلع على تاريخ كفاح آبائه لانه لم يعش تلك الأيام ولم يكن قريبا منها ولانها لم تبحث بما فيه الكفاية لتغدو حية في النفوس، فيدرك أهمية الانطلاقة التحررية التي قام بها أسلافه ، فانه مدعو على أساس هذا التاريخ الى أن يتبصر طريقه حين يربطه بتاريخ البلدان العربية الاخرى والعالم ، والى التزود خير زاد للمرحلة المقبلة في مسيرة أمته •

ان تشجيع هذه الدراسات من قبل المسؤولين في مختلف الدوائر ذات العلاقة بادرة ايجابية تستحق التنويه وتدل على حس سليم للاحداث ، ووعي قومي مشرف • ومن هنا نتبين أهمية هذه الجوائز التي خصصتها قيادة الجيش العربي السوري للبحوث القومية والعسكرية ، والتي فاز بالجائزة الثانية منها كتاب الاستاذ المؤلف • وان سعادتنا لكبيرة بأن تكون فاتحة أعمال دار الشرق للنشر والتوزيع اصدار هذا الكتاب الذي

يلقي فيه المؤلف بعض الضوء على حقيقة شعبنا الكبيرة . كما يسعدنا ان ندعو كتابنا ومؤرخينا الى أن يلقوا الاضواء الكشافة على جوانب هذه الحقيقة كلها .

واذا كان لنا أن ننبه القارىء الى احدى النواحي الهامة في هذا الكتاب ، فهو الى الطريقة التي اتبعها المؤلف والتي جمعت بين الحقيقة التاريخية المستقاة من المصادر ، وبين الاسلوب الروائي المشرق والحماسي . وهذا الاسلوب هوفي اعتقادناخير اسلوب يجعلموضوع هذه الثورات التحررية قريبا الى قلوب وعقول جماهير شعبنا العربي ، يعيشها كل يوم ، ولا سيما اننا نعاني نقصا في الادب الشعبي والمسرح والغناء الذي تدور مواضيعه حول هذه الثورات . وقد يقول قائل : ولكن التاريخ ليس رواية ، انه علم . حقا انه علم ، ولكن ما أحسن أن يروى هذا العلم باسلوب روائي يبعثه حيا .

ان اسلوب هذا الكتاب الذي يهتم بمخاطبة العقل والعاطفة هو الاسلوب الصحيح الذي يشارك به أبناء الامة العربية في فهم تاريخ أمتهم ، تاريخ كفاحهم ، وفي فهم مكتسباتهم التي صنعوها بأيديهم ، وصنعها الوف الشهداء الذين لا نعرف أين ولدوا ولا أين ثووا .

فاذا فهم أبناء جيلنا هذا التاريخ جيدا وانطبع في عقولهم وقلوبهم ، فهموا دورهم في بناء وطنهم بالامس ودورهم في حفظ استقلاله ومتابعة بنائه في الغد .

تموز ١٩٦٢

دار الشرق

الفصل الأول

١ ـ سورية العربية في خريطة الاستعمار

« يجب أن نعلم ويعلم كل الناس أن سورية ولبنان قطران متممان لفرنسا • وانه اذا لم نكن بعد قد نظمنا الشؤون المالية على ما يجب أن ننظمها ، فما ذلك الا لأنه تعوزنا المواد الاولية لصناعة المنسوجات • وسيأتي اليوم الذي لا تكتفي فيه تلك الصناعة بالصوف والحرير اللذين نجدهما في سورية ، عندها علينا أن نهيء أراضي يصح أن نسميها أراضي قطن فرنسا لتصبح ثروتنا وثروة اللبنانيين والسوريين مشتركة ، ويصبح الانتداب المعزز بالقوة المسلحة معززا بقوة أعظم هو المصالح المشتركة » •

مسيو ده جوفنيل ١٩٢٠
المفوض السامي الفرنسي في سورية ولبنان

هذه هي سورية في خريطة الاستعمار • ان كلمة المسيو ده جوفنيل في غنى عن كل شرح • ان قصة المصالح المشتركة بين القوي والضعيف ، بين الذئب والحمل ، هي ما أبرزه الممثل العالمي تشارلي تشابلن في أحد أفلامه الصامتة •• الرجل العملاق الضخم والرجل الهزيل يذهبان الى آلاسكا لاستخراج الذهب • وهناك يستبد الاول بالثاني ويخضعه

لشيئته ويستحوذ على كل أتعابه . وتهطل الثلوج فيحاصران وتنفذ مؤونتهما . ومن تأثير الجوع الشديد ولما لم يجد الرجل الضخم شيئا يسكت به معدته الكبيرة ، راح يتخيل زميله الهزيل دجاجة .. ثم أخذ يطارده ليذبحه ويأكله ..

ولم يكن اختيار سورية ـ منذ الحروب الصليبية حتى الآن ـ مسرحا للنشاط الاستعماري المحموم ، مصادفة أو خطة مرتجلة ليس لها مبرر ذو اعتبار . ان اختيار سورية لذلك النشاط . هو كونها ـ على مساحتها المحدودة وقلة سكانها ـ . ذات أهمية تاريخية وجغرافية وحضارية لا يتمتع بها الكثير من بلدان الارض .

ومن الطبيعي أن الشره الاستعماري ، لا يرفع أنظاره عن أي بقعة من بقاع العالم . ولكن سورية بالذات ، كانت وستظل مطمح أنظاره الى النهاية . ويكفي الانسان أن يلقي نظرة الى صحيفة أجنبية ، أو أن يدير عقرب المذياع ، ليجد أن اسم هذه الدولة الصغيرة سورية ، يشغل أخبار الصفحات الاولى والانباء الرئيسية في كل الصحف والاذاعات . واذا أراد المرء أن يفتش عن السبب الحقيقي لكل هذه الاهمية ، فانه يحتاج الى تحليل طويل عميق ، ترجع جذوره الى عهود تاريخية بعيدة . غير انه من الممكن ، اذا أراد الايجاز ، أن يعرف الاسباب من **الاعتبارات التالية :**

أ ـ فكرة القومية العربية :

قال السير ماكماهون نائب ملك انكلترا في مصر في معرض حديثه مع توماس لورنس ، عندما عين مستشارا للامير فيصل بن الحسين :

« لقد تأكد لنا من أن فكرة ما أخذت تتغلغل بين العرب في جميع الاقطار التي يسكنونها .. وعرفنا بأن سورية ـ أو دمشق على الاصح ـ أضحت البؤرة الاساسية لتلك الفكرة .. » .

ففكرة القومية العربية فكرة مرعبة بالنسبة للاستعمار ، وهي تعني في حال نجاحها ، ونقلها من عالم الافكار والاماني ، الى عالم الواقع ، خلق دولة كبيرة واحدة سوف تلعب دورا رئيسيا في القضاء على الاستعمار نفسه ، واحباط خططه ومشاريعه في كل البلاد العربية . وسورية هي الدولة التي كانت وما زالت صاحبة المبادرة في الدعوة والمناداة بهذه الفكرة (فكرة القومية العربية) . وكانت الاولى والبادئة في تطبيقها عمليا . ولهذا كانت نقطة الاشعاع بالنسبة لشقيقاتها في هذا المضمار .

وكان من الطبيعي أن الضربة التي توجه الى سورية ، تهدف أول ما تهدف ، الى القضاء على تلك الفكرة ليس في القطر السوري وحده ، وانما في كل قطر امتدت اليه أو آمن بهذه الفكرة . لانه بدأ يشعر وينادي بالوحدة العربية الكبرى وتماسكها كشعب واحد في وجه كل مستعمر .

ب ـ الموقع الجغرافي والاستراتيجي :

قال جان فلوريه :

« ان انتدابنا لسورية وحده ، لا يفيدنا لا من الوجهة الاقتصادية ولا من الوجهة السياسية . فكل شيء أو لا شيء .. فأما أن نجلو عن الشرق ، ونقطع بصورة نهائية ، تاريخنا في الشرق الذي يرجع الى أكثر من عشرة قرون (يقصد الحروب الصليبية) ... ولكن يجب أن نعلم اننا اذا فقدنا سورية ، نفقد بالتالي سمعتنا ونفوذنا في افريقيا الشمالية . » (١)

فموقع سورية الجغرافي الهام ، يشكل جسرا استراتيجيا يصل افريقيا بآسيا . وهي بوضعها هذا ، تؤلف صلة الوصل بين كثير من البلاد . فهي تتصل مباشرة بفلسطين . ومنذ أواسط القرن التاسع عشر وفلسطين هي المائدة التي يحلم بها الاستعمار والصهيونية . كما انها

---

(١) راجع عبد الرحمن الكيالي ، المراحل ج ١ ص ١٣

تتصل مباشرة بالاردن والعراق ولبنان وتركيا ، هذه البلدان التي اقتسمها الاستعمار قبل ان تطلق رصاصة « سيرايفو » مؤذنة ببداية الحرب العالمية الاولى • كما ان سورية تفصل في الوقت نفسه ، بين الاردن والعراق من جهة ، وبين لبنان والبحر من جهة ثانية • كما تفصل تركيا عن فلسطين ، التي أصبحت فيما بعد « اسرائيل » التي تحالفت مع تركيا • ومن هنا ، فان مخططات الاستعمار والصهيونية كانت ترمي من زمن بعيد الى امتلاك سوريا ، لتمسك برأس الجسر ، ولتغلق كل ثغرة ـ وسورية هي الثغرة الكبرى ـ في طريق كل مشروع استعماري ••

ج ـ العامل الاقتصادي والتجاري :

ان مسيو فلوريه يقول في مجال شرحه الآنف الذكر :

« لقد ربحت تجارتنا في سوريا في عام واحد ١٣٨ مليونا • ان فرنسا الموجودة في سورية ، قد أصبحت بين جميع دول العالم الاولى في الوارد والثانية في الصادر • ولكننا اذا تركنا الشرق ، فقدنا هذه المكانة • لان البضاعة تسير مع صاحبها • ونحن الى جانب ذلك كله ، اذا تركنا سورية نكون قد نفضنا يدنا من هذا الطريق المستقيم المتجه رأسا الى الشرق الاقصى ، وهو ممر طرابلس ـ حمص ، الذي يتحسن بسرعة يوما بعد يوم • وهذا الطريق يميل الى الاقلال من شأن قناة السويس ، التي تركها منذ خمسين سنة ، بصورة لا تتفق والشرف ، مواطنو فردناند دوليسبس •• (١)

ان هذا التقرير البسيط ولكن الهام ، يدل دلالة واضحة ، على ما تتمتع به سورية من ميزات اقتصادية وتجارية • لقد استطاع الفرنسيون أن يجنوا من وراء ما سلبوه من الدخان السوري فقط وفي سنة واحدة ١٠٨ مليونا من الفرنكات • كما استطاعوا ان يمونوا جميع حوانيت الدخان

---

(١) المرجع السابق ص ١٣

في فرنسا والمستعمرات من هذه اللفائف التي كانوا يسمونها (باللفائف الشرقية) التي يبيعونها بأغلى الاثمان . وغير الدخان ، كانت جميع المحصولات الزراعية والمنتوجات الصناعية ، تعبأ بالصناديق وتمر ضمن سورية كما تمر البضاعة الترانزيت في المرافىء ولكن دون ان يتقاضى السوريون عليها رسوما .. تمر الى فرنسا . وبالاجمال ، كانت سورية كمزرعة للشركات الفرنسية وابناؤها يعملون فقط بما يكفل لهم سد الاود .. والارباح الفاحشة لهذه الشركات .

د ـ العامل الثقافي والحضاري :

ان العامل الثقافي والحضاري في بلد ما ، يعتبر من أهم العوامل التي تدفع الاستعمار لان يبذر فيه بذوره ، سواء بواسطة الارساليات الدينية أو الجمعيات العلمية والثقافية .. أو بالوسائط الاخرى الدعائية كالكتب والمجلات والصحف والاذاعات .. ولا ينسى المستعمرون ـ وخاصة فرنسا ـ كيف أن بني أمية ، غزوا اسبانيا سنة ٧١١ م . واخترقوا غابات الغال واحتلوا مدينة تولوز الفرنسية سنة ٧١٩ م ولم يتوقفوا الا في بواتييه عام ٧٣٢ م . وفي الوقت نفسه وصلت جيوش عربية اخرى الى اماكن متفرقة من العالم بحيث اصبحت الامبراطورية العربية اكبر من امبراطورية الاسكندر ، بل أوسع من مملكة الرومان . فامتدت تخومها من شواطىء الاطلسي الى أواسط آسيا .

وقد عاشت الحضارة والثقافة العربية بشيوع الاسلام منطلقة من دمشق . وانتهج الخلفاء الامويون بعد الفتح ، سياسة التعريب التي سبقهم اليها المقدونيون قبل ألف سنة على غير طائل . ولم يحدث الفتح العربي أي انقطاع في مجالات العلم والثقافة والمعرفة . فقد نقلت المخطوطات اليونانية والفارسية وغيرها الى السريانية والعربية في مدارس دمشق وانطاكية ورأس العين وكلها مدن سورية ..

وتعتبر مملكة تدمر أثرا بارزا من آثار الحضارة السورية العربية وكانت مملكة شرقية مستقلة حكمها أمراء عرب حتى أواسط القرن الثالث • ان بعض رجالات الغرب الذين دفعهم الى الاستشراق حب المعرفة دون سواه من الدوافع يضعون ايديهم على ضمائرهم عندما يتحدثون عن الشرق وعن حضارته • وفي هذا المجال يقول العلامة المستشرق لويس ماسينيون :

« ان من حق العرب علينا ان نرفع الصوت عاليا ، لنطلب اليهم ان يقاوموا الدعايات المبتذلة التي تقترح عليهم ان يتناسوا امجادهم ، ويتنازلوا عن شرفهم وتقاليدهم ، ليستسلموا الى القوى الاستعمارية ورؤوس الاموال المصرفية • فليصمد العرب ، لان العالم بأمس الحاجة اليهم• وليحترموا عربيتهم ، هذه الآلة اللغوية الصافية ، التي تصلح لنقل اكتشافات الفكر في كل الاقطار والامصار ، وليحافظوا على أصالتها فلا تنقلب مسخا مقلدا للغات الآرية • » (١)

هذا في حين ينسجم بعض الكتاب الفرنسيين مع مطامع حكوماتهم الاستعمارية ، فيفكرون بالامر على نحو معاكس • ومما قاله احد كتابهم :

« ليس من شك في ان توحيد الحضارة يعتبر من اخلب الظواهر التي نستطيع أن نأمل بتحقيقها • فبين الحضارة الآسيوية بنوع خاص والحضارة الاوربية او الغربية لم يكن احد يستطيع ان يتوقع تداخلا أو تهادنا أو تحالفا •• فالعقول البصيرة في الغرب ، كانت تعلم بأن حضارات آسيا ليست خليقة بأن يستهان بها • فسوريا وشمال افريقيا تملك حضارات تستحق الاعتبار • ومن اجل هذا يجب ان نعمل جهدنا لنجعلها تمتزج معنا •• » •

ومما قاله كاتب فرنسي آخر في هذا المجال :

---

(١) ماكس فانتاجو : المعجزة العربية

« •• وكما يحدث في بعض اطوار التاريخ ، ان تعلن بقوة مجموعة من البشرية في تكون أمة ، كذلك ننادي نحن الكتاب والشعراء الفرنسيين برغبتنا في خلق أدب غني •• من أجل هذا ينعقد عزمنا على الرجوع الى تقاليد البحر الابيض المتوسط والمطالبة بتلك الحضارة الجليلة الغنية التي نستطيع معرفتها وفهمها دون سوانا • » •

٢ ـ تاريخ الاطماع

« سنكون الورثة الشرعيين للدولة العثمانية في الاراضي السورية ٠٠ » ٠

آريستيد بريان ١٩١٢ » (١)

ان تاريخ اطماع فرنسا في سورية تاريخ طويل ، ترجع منابعه الاصلية الى الحروب الصليبية ٠ فقد اعتاد الفرنسيون ، على ان ينظروا الى الحروب المذكورة كأثر من آثار أسلافهم « العظام » وان يعتبروا الامارات اللاتينية التي قامت على بعض الاراضي السورية خلال تلك الحروب ، جزءاً من تاريخهم « المجيد » ٠ ولذلك كان يتولد في نفوسهم ـ على مر الايام ـ نزوع شديد الى اتمام تلك الحملات ، أو بدئها من جديد ، لاعادة تلك الامارات التي سقطت في أيدي العرب كما سقط الطفل الضائع بين أحضان أمه ٠

ان أمل الفرنسيين هذا ، جعلهم ما يفتأون يتحينون الفرص ويختلقون الاسباب ليعيدوا الكرة من جديد ٠ من أجل هذا ، أو نتيجة لذلك ، نصبوا أنفسهم حماة للمسيحية في الشرق ، ليتخذوا من هذه الحماية ، وسيلة لوضع يدهم على بلاد الشام في يوم من الايام ٠ وهذه السياسة ، كانت تحمل الفرنسيين على الاكثار من الارساليات ، لتأسيس المعاهد والمدارس المتنوعة في مختلف أنحاء الشرق الادنى ، والشرق العربي على وجه عام ٠

---

(١) ساطع الحصري : يوم ميسلون ص ١٥

وقد استمرت فرنسا على اتباع هذه الطريقة وباهتمام كبير . حتى بعد أن قررت فصل الدين عن الدولة ، وضيقت الخناق على رجال الدين ، وصادرت أملاكهم وحظرت عليهم الاشتغال بالتعليم أو الخوض في السياسة داخل فرنسا . وبهذه السياسة كانت الدولة تتبع اسلوبا ذا وجهين :

أ ـ مكافحة الاكليروس داخل البلاد

ب ـ حمايتهم في خارجها .

وذلك خدمة لاغراضها الاستعمارية . وعملا بالمبدأ القائل « ان معاداة رجال الدين ليست من المواد التجارية التي يجوز تصديرها الى الخارج ».

ومن الغريب ، ان هذه السياسة الاستعمارية اضافت الى ذلك العامل القديم عاملا جديدا ، نتج عن مغامراتها في سواحل البحر الابيض المتوسط في شمال افريقيا عام ١٨٣٠ . وكان العامل الجديد يساند العامل الاول في النتيجة ويخالفه في الاساس . فقد اخذت فرنسا منذ ذلك التاريخ ، تبسط نفوذها على بلاد اسلامية واسعة الارجاء . وتمكنت من فرض سلطانها على الجزائر وتونس والمغرب الاقصى . واصبحت تعتبر نفسها من جراء ذلك ، صاحبة « امبراطورية اسلامية » على سواحل افريقيا الشمالية . ثم راحت تمد أنظارها الى سورية بهذه الصفة الجديدة ، بغية توسيع هذه « الامبراطورية الاسلامية » وتدعيم نفوذها عليها عن طريق السيطرة على أهم المراكز الاسلامية القائمة في سورية .

كانت فرنسا تتظاهر بأنها تسعى لبسط نفوذها على سورية ، مدفوعة بما تقتضيه سياستها المسيحية من جهة ، وسياستها الاسلامية من جهة أخرى .. غير ان الحقيقة انها كانت من أكثر الدول الاستعمارية طموحا الى امتلاك سورية ، وأشدها اهتماما بها على الاطلاق ، فلم تكن تأبه ابدا لهذه المسائل « الميتافيزيكية » . كان همها الاوحد ، هو تأمين مستعمرات

غنية بمواردها الاقتصادية ، وهامة بموقعها الاستراتيجي تؤهلها لان تكون أعظم مستعمرات في التاريخ ..

ومنذ عام ١٩١٢ أخذت فرنسا تعتبر نفسها « الوارثة الشرعية » للدولة العثمانية في الاراضي السورية ، كما جاء على لسان آريستيد بريان أحد أبطال معاهدة « سايكس بيكو » من الطرف الفرنسي . وفي الوقت نفسه كان بوانكاريه رئيس الوزارة ووزير الخارجية الفرنسية في ذلك الحين ، يصرح في خطاب القاه في الجمعية الوطنية الفرنسية :

« .. ونحن مصممون على الدفاع عن حقوقنا ومصالحنا في سورية دون لين أو هوادة . واننا عازمون على ادامة تقاليد فرنسا العظيمة في الشرق . ونحن مصممون بوجه خاص على كل ما ينبغي لصيانة هذا الشيء المقدس الذي لا يلمس باليد ، ولكنه يكمن بالروح الا وهو « كرامتنا الوطنية » » .

وفي مجلس الشيوخ كان بوانكاريه اكثر وضوحا عندما قال :

« .. ان المسألة الشرقية التي ارتسمت امام الانظار ـ منذ اجيال ـ كلغز عويص لا يمكن حله ، والتي دخلت ـ على الرغم من جهودنا ـ في طور جديد ، هذه المسألة ستحل الآن في اتجاه اكثر تطابقا مع المشاريع والآراء الفرنسية . ولست بحاجة الى القول ، بان لنا مصالح تقليدية في سورية ولبنان بوجه خاص ، واننا متفقون على حمل الجميع على احترام هذه المصالح .. »(١)

أما كليمانصو فقد تخلى عن اي مواربة ونبذ الطرق الدبلوماسية عندما قال :

« .. ان الامة الفرنسية لا يرضيها ابدا ان لايكون في سورية اثر يدل على وجود فرنسا فيها . فاذا لم تمثل

---

(١) يوم ميسلون ص ٣٢

فرنسا في سورية ، بعلمها وعساكرها ، فان الامة تعتبر ذلك عارا وذلا ، يشبه فرار الجندي من ساحة القتال • » (١)

غير ان المسؤولين الفرنسيين كانوا يعلمون بأن اطماعهم في سوريا لابد ان تصطدم بعقبات ، أولاها التنافس الاستعماري الدولي • وقد قدروا خطورة هذه العقبة حق قدرها • فراحوا يبذلون الجهود والتضحيات للتغلب عليها • وهكذا لم تستطع فرنسا ان تقدم على ضربة ميسلون الا بعد ان توفقت في تذليل الصعوبات الناتجة عن التنافس الاستعماري بينها وبين حليفاتها وفي مقدمتها انكلترا ، التي كانت تقف بالمرصاد وتطالب بحصة الاسد •

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠١

٣ ـ مساومات الورثة غير الشرعيين

« يتوهم البعض وجود اختلاف بيننا وبين انكلترا بشأن اقتسام العالم العربي ٠٠ والواقع ان هذه الاوهام لم يعد لها الآن ما يبررها ٠ فقد استطعنا الاتفاق على كل شيء بجو يسوده الحب والتفاهم ٠ ان الحكومة البريطانية صرحت لنا بكل صدق ووداد ، بانها لا تنوي القيام بأي عمل في البقاع التي اصبحت تخصنا ٠٠ ونحن بدورنا اعطيناها عهدا بان نقف مكتوفي الايدي ازاء أي اجراء تتخذه في « حصتها » ٠ ونحن من جهتنا مصممون كل التصميم على ان نحافظ في آسيا على (تمامية الدولة العثمانية) ٠ ولكننا لن نتخلى عن أية عاطفة من العواطف التي نكسبها ٠ ولن نترك منفعة من منافعنا ، أو مصلحة من مصالحنا معرضة لأي خطر من الاخطار » ٠

بوانكاريه ١٩١٢ (١)

كانت قضايا البلاد العربية قد اعتبرت ـ بين الدول الاوربية ـ طوال القرن الماضي ، وخلال العقدين الاولين من القرن الحاضر ، فرعا من فروع ما اسموه بـ « المسألة الشرقية » التي كانت في حقيقة الامر تعني اقتسام اراضي الدولة العثمانية ٠ وكانت هذه الدولة قد دخلت منذ القرن الثامن عشر ـ ولا سيما في اواسط القرن التالي ـ في دور التفكك والهزال ٠ ولم

(١) يوم ميسلون ص ٣٣

تنهض بعد ذلك الا بفضل تنازع الدول الاوربية على اقتسام اقطارها المختلفة .
وهذا التنازع كان شديدا ومعقدا . فقد كانت معظم اقطار الدولة العثمانية
مطمح انظار دول الاستعمار كلها في وقت واحد . كانت كل دولة من الدول
الاستعمارية تطمح .... بالسيطرة على بعض الاقطار . وتسعى الى تقوية نفوذها
فيها ، استعدادا لاستكمال الوسائل اللازمة لامتلاكها . كما انها كانت تنزع من
جهة اخرى ، الى الحيلولة دون توسع نفوذ منافسيها ـ ليس في الاماكن
والاقطار التي تطمح فيها فحسب ـ بل في سائر الاماكن والاقطار الاخرى .
لانها كانت ترجح ـ مبدئيا ـ بقاء تلك الاماكن والاقطار تحت ادارة الدولة
العثمانية الضعيفة ، على انتقالها الى ايدي دولة اوربية قوية اخرى . بل
ـ والاغرب من ذلك ـ كانت هذه الدول تخشى اشد الخشية ، ان يتحرر
قطر عربي ، ويستقل نهائيا ، او يضم اليه قطرا او اقطارا اخرى . لانه في
هذه الحالة ، كان يتعين على تلك الدولة ان تعود فتستولي على « حصتها »
بالحديد والنار ...

وكانت النتيجة الطبيعية التي تؤدي اليها هذه المنافسات الدولية المليئة
بالتناقض الاستعماري ، هو الوقوف موقف المتربص المتحفز ، الاعين تراقب
بعضها دون ان تغفل الفريسة ، وابقاء كل شيء على حاله حتى يحين
الأوان . ومن الطبيعي ان أي محاولة للتحرر تبدر عن قطر من الاقطار
المحتلة ، كانت ستقمع من الجانب الاوربي قبل ان يعلم بها الجانب الحاكم
وهي الدولة العثمانية ..

ان تعبير « كل شيء على حاله » هذا ، كان في بادىء الامر لسان حال
السياسة الاستعمارية ، التي اضطر الجميع الى مراعاتها تحت قسر
الظروف ، بلا مناقشة او مفاوضة او معاهدة . لكن هذا التعبير اصبح بعد
حرب القرم دستورا للسياسة الاستعمارية التي اتفقت عليها جميع الدول
العظمى بصراحة ، وبموجب معاهدة رسمية ، سميت بـ « معاهدة باريس »
« ١٨٥٦ » .

ومن نافلة القول الاشارة الى ان الدول المذكورة لم تتفق على هـذه السياسة ، حفظا منها على كيان الدولة العثمانية ، بل تحاشيا من اصطدام بعضها ببعض ، اصطداما قد يعود عليهـا جميعا باضرار لا يمكن معرفـة مداها . وهكذا كانت سياسة « ابقاء كل شيء على حاله » انتظارا لسنوح الفرص الملائمة لتحقيق مطامحها العدوانية دون مجازفة وبأسهل طريق . وقد يتم كـل شيء عـلى ان تمثل دور المـلاك المنقذ ، وذلك عـن طريق المفاوضات والمساومات ..

ولهذا السبب بدأت الدول الاستعمارية ـ بعد معاهدة باريس ـ تسلك طريق المساومات على اساس « هذا لي وذاك لك » او ما أسموه بعد ذلك بـ « التعويضات المتقابلة » . وقد اتسمت تلك المساومات بالكثير من التنافس والتناحر ، وكانت البـلاد العربية هي « الارث غـير الشرعي » موضـوع التنافس بين حكومتي فرنسا وانكلترا صاحبتي المشروع .

بدأت المفاوضات بين فرنسا وانكلترا منذ اواسط سنة ١٩١٥ . وانتهت هذه المفاوضات بمعاهدتين سريتين ، عقدت الاولى في آذار ١٩١٦ . والثانية كانت متممة للاولى في ايار ١٩١٦ . وكانت كل الدلائل تشير الى ان هذه المفاوضات قد جرت في جو يسوده القلق والريبة والارتجال . ولم توقع الا بعد مشاق كثيرة وتضحيات من كل جانب ليس من حسابها الخاص ، بل من حساب الشعوب العربية صاحبة الارث الحقيقية ..

وكان الحلفاء ، في بداية الحرب العالمية الاولى ، قد وضعوا لانفسهم سلسلة طويلة من المشاريع والخطط ، حسبوا فيها لكل احتمال حسابه . وقرروا ما يجب عليهم ان يفعلوه لتنظيم التعاون فيما بينهم عند تحقيق كل احتمال من هذه الاحتمالات . وكان من جملة المشاريع المذكورة ، مشروع انزال قوى عسكرية في ميناء الاسكندرونة ، والتغلغل في سورية ابتداء من الميناء المذكور ، وقد اتفقوا عندئذ على ان يعهدوا بقيـادة تلك القوات الى

اميرال فرنسي ، غير انهم لم يفكروا في تنفيذ هذا المشروع الا بعد انقضاء السنة الثانية من الحرب • وذلك لان بعض العوامل السياسيةوالحربية كانت تجري على غير ما يشتهون • وهناك عامل آخر ، جعلهم يتوقفون عن تنفيذ مشروعهم فورا ، وهو التنافس •

كان الفرنسيون عاجزين عن تخصيص جيوش كبيرة لهذه المهمة ، بسبب الاوضاع العسكرية والعمليات الحربية القائمة في الجبهة الغربية ، فكان من الطبيعي ـ والحالة هذه ـ ان تقوم حملة الاسكندرون على عاتق الجيش والاسطول البريطانيين • واعتقد الفرنسيون أن ذلك يعرض مصالح فرنسا في سورية الى خطر عظيم • وعللوا القضية ، بان احتلال سورية من قبل البريطانيين ، يقلل من نفوذهم ويحبط مشاريعهم في تلك البلاد • ومن اجل هذا اضطرت الدولتان الاستعماريتان ، الى العودة من جديد الى مائدة المفاوضات لتذليل الصعاب التي اقاموها بانفسهم • وفي **٢٦ ايار ١٩١٦** خرجوا باتفاقيتهم الشهيرة المعروفة باتفاقية « سايكس ـ بيكو » المنسوبة الى اسم المفاوض الانكليزي مارك سايكس والمفاوض الفرنسي جورج بيكو •

شملت احكام اتفاقيـة « سايكس ـ بيكو » : كيليكيا(١) وسـورية وفلسطين والعراق • وقسمت هذه البلاد الى خمس مناطق : ثلاث منهـا ساحليـة ، واثنتان داخليتان • وقد لونت المناطق الساحليـة على الخرائط الملحقة بالاتفاقية باللون الاحمر والازرق والرمادي • ولذلك عرفت باسم :

---

(١) كيليكيا : من أثمن أجزاء الاراضي السورية • تقع على سفوح جبال طوروس الجنوبية • اغتصبها الفرنسيون عند هزيمة الاتراك • ثم عادوا وسلموها اليهم سنة ١٩٢١ • وتتألف أراضيها من سهول طمييـه خصبة ، لا يصيبها الجفاف ابدا • ويجري في القسم الغربي منهـا نهران كبيران هما سيحان وجيحان • واشهر مدنه اضنة ومرسين وطرسوس • يشكل العرب ٨٠٪ مـن سكانها • ولهم نفس التقاليـد والعادات والدين واللغة التي لسكان سورية الشمالية •

« المناطق الحمراء والزرقاء والرمادية » . واما المنطقتان الداخليتان ، فقد تركتا بلا لون ، وعرفتا فقط باسم « منطقة أ » و « منطقة ب » .

كانت المنطقة الزرقاء تضم : البلاد الساحلية التي تمتد من الناقورة جنوبا الى الاسكندرونة شمالا ، وتركت لفرنسا . والمنطقة الحمراء تضم : بغداد والبصرة وتركت لانكلترا . واما المنطقة الرمادية . فقد انحصرت في فلسطين ، وجعلت منطقة دولية حيادية ، ريثما تسلم للصهيونيين .

وكانت الاتفاقية تبيح للدولتين الفرنسية والانكليزية ، ان تنشئا في المناطق التي تحتلانها نظام الحكم الذي تريانه مناسبا . سواء بالاحتلال المباشر او بالواسطة . وقد دخلت الاسكندرونة في منطقة فرنسا ، على ان يكون ميناؤها حرا في وجه التجارة الانكليزية ، وحيفا في منطقة انكلترا على ان يكون ميناؤها حرا في وجه التجارة الفرنسية . ويتعهد كل من الطرفين المتعاقدين ، على ان لا يتنازل عما له من حقوق في المنطقة المخصصة له ، وان لا يعطي او يبيع تلك الحقوق لدولة اخرى دون أخذ موافقة الطرف الآخر . كما يتعهد كل من الطرفين المتعاقدين ، ان لا يمتلك — ولا يسمح لدولة ثالثة بأن تمتلك — اقطارا في شبه الجزيرة العربية .

وهكذا ، فقد كانت اتفاقية سايكس — بيكو تعطي لفرنسا حقوقا كثيرة ، وتضمن لها امتيازات كبيرة . ولكن البلاد العربية — التي تقع تحت سلطتها المباشرة ، او تدخل ضمن نفوذها الخاص بموجب الاتفاقية — هذه البلاد ، لم تفتح خلال الحرب ضد العثمانيين من قبل الجيوش الفرنسية ، بل فتحت من قبل الجيوش الانكليزية والعربية . وعند انتهاء الحرب ، تمسكت فرنسة بنصوص الاتفاقية واخذت تطالب الانكليز بوجوب تنفيذ احكامها . وهنا وقعت مشكلة جديدة .

كانت اتفاقية سايكس — بيكو قد وضعت « على المائدة الخضراء » دون

ملاحظة الامكانيات الحقيقية بشكل متعمد • فهي تقضي بتقسيم البلاد العربية تقسيما كيفيا وخياليا ، لا يتفق مع النزعات القومية ، او الاحوال الجغرافية والاقتصادية ، من اجل هذا كان تنفيذ الاتفاقية امرا عسيرا • كما ان ادامة الاوضاع التي تنجم عن تنفيذها كان من رابع المستحيلات • زد على ذلك ، ان تطورات دولية هامة ، حدثت بين عقد الاتفاقية وانتهاء الحرب • من اجل هذا بدأ الخلاف يذر قرنه بين الحليفتين ، خاصة وان فلسطين قد اصبحت بحكم المنتهية ، بناء على « وعد بلفور » وزير الخارجية البريطانية •

ولم يكن صعبا على فرنسا ان تعدل عن فكرة جعل فلسطين منطقة دولية ، فتوافق على اعطائها لليهود ، ولكنه كان يصعب عليها ان تتنازل عن شبر من الاراضي السورية التي يحتلها الانكليز وكان من الطبيعي ان تبدأ المساومات والاتفاقيات من جديد • وراحت فرنسا تطالب بتنفيذ الاتفاقية بحذافيرها بينما تشترط انكلترا لقاء التخلي عن المنطقة (آ) التي تحتلها مع فيصل تنازل فرنسة عن منطقة الموصل والحولة والاعتراف بانتداب انكلترا على فلسطين لتحقيق وعد بلفور •

ومما لا يحتاج الى برهان ان افلات المنطقة الداخلية من السيطرة الفرنسية التامة ، يحدث بطبيعته تأثيرا عميقا في المنطقة الساحلية ، ويثير مشاكل كبيرة في ادارة تلك المنطقة • وكان من الطبيعي ان يطالب الشعب العربي في سورية بساحله ، كما ان أهالي الساحل سيندفعون الى احضان وطنهم الام ، خاصة وان عرض المنطقة الساحلية كان لا يتجاوز الخمسين كيلوا مترا • نكان من مصلحة فرنسا الاستعمارية ، ان تطالب ببسط سيطرتها على سورية كلها كما كان قد تقرر في اتفاقية سايكس ـ بيكو • وكان من الطبيعي ان تسعى الى تطبيق الاتفاقية • ولكن انكلترا لم توافق

على التنازل عن مكتسباتها الجديدة • فبدأ الخلاف واستؤنفت المساومات والمعاهدات •

وفي النهاية اصبحت حصة فرنسا من الاراضي العربية واسعة جدا ، وعندما طالبت بحصتها من الارباح ، وهي هذه المناطق الشاسعة ، التي تشمل : سورية مع كيليكيا وشمال العراق ممتدا حتى الحدود الايرانية وديار بكر ، لم تكن لتحسب حسابا لمقاومة الشعب العربي في هذه المناطق • وظنت ان الاتراك سيلقون السلاح حتى ضمن بلادهم نفسها • كانت تعتقد ان الشعب العربي لن يستطيع ان يجتمع ، وان يشكل قوة مهما كان شأنها • ولم يخطر لها ابدا انها ستواجه الثورة تلو الثورة ، والانتفاضة تلو الانتفاضة ، في سبيل الحرية والكرامة الوطنية والاستقلال التام • ولكن قبل ان يمضي على انتهاء الحرب سنة واحدة ، اخذت تدرك شيئا فشيئا استحالة السيطرة على كل تلك الغنائم ، مع محاربة الاتراك وقمع الثورات العربية في سورية في آن واحد • من اجل هذا رأت نفسها مضطرة الى شطر البلاد السورية الى شطرين سورية وكيليكيا ، كما يفعل الوحش بفريسته الكبيرة ، ثم الاستغناء عن احد هذين الشطرين ، بتسليمه الى احد الاطراف التي يهمها أمره •

ويبدو أن كيليكيا ، كانت تستهوي نفوس بعض المستعمرين الفرنسيين ، وخاصة رجال الاقتصاد منهم ، لان الجبال والانهار فيها ، كانت تعد بمستقبل اقتصادي باهر • غير ان ساسة فرنسا ـ عندما وجدوا انفسهم في موقف يحتم عليهم الاختيار بين احد القسمين ـ لم يترددوا في ترجيح سورية على كيليكيا • وقد صرح روبير دوكي الذي كان يعتبر من أهم الادمغة المسيرة للسياسة الفرنسية :

« اذا كان يتحتم على فرنسا ان تتخذ قرارها ، مستندة الى المنافع والحسابات وحدها ، لوجب عليها

ان ترجح كيليكيا على سورية • ولكن بما ان لفرنسا تقاليد وروابط معنوية كثيرة ، تربطها بسورية منذ قرون عديدة ، فعليها ان تتمسك بتلك الروابط والتقاليد ، وان تتنازل عن كيليكيا في سبيل الاحتفاظ بسورية اذا اقتضى الحال » •(١)

وقد عملت فرنسا بهذا الرأي • فقد تخلت عن كيليكيا وسلمتها الى الاتراك • ولم تكتف بهذا فقط ، بل انها سلمتها معها جميع العتاد والاسلحة التي كانت في جيوش كيليكيا • مما جعل الاتراك منذ ذلك الوقت ، يفكرون بالاستيلاء على قسم آخر من الاراضي السورية ، ولعله لواء الاسكندرون • اما الفرنسيون ، فقد اعتبروا امر السيطرة على ما تبقى من سورية ، بمنزلة اتمام مهمة تاريخية ـ صيانة الشرف والكرامة •• الخ ـ كما كان قد صرح بذلك بوانكاريه عقب الازمة البلقانية •

هذا ، وهنالك عامل آخر ، حمل الفرنسيين على اتباع هذه السياسة الغاشمة ، ومصافاة الاتراك على حساب السوريين العرب ، وهو عودة التنافس الفرنسي الانكليزي الى الظهور بكل قوة ، في جميع انحاء الشرق الادني •• ومحاولة كسب الاتراك الذين بدءوا يستندون الى معاونة جارتهم الشمالية • ولكن امر تنفيذ اتفاقية سايكس ـ بيكو كان يصطدم بعقبة مهمة اخرى : وهي وعود الحلفاء المتكررة للعرب ، و « مبادىء ويلسون » الشهيرة التي تمسكت بها مختلف شعوب العالم المطالبة بحريتها • فقد كان الحلفاء ، كلما تقدمت بهم الحرب واشتد عليهم الضيق ، يشعرون بضرورة استمالة الرأي العام العالمي الى جانبهم • ويصرحون تصريحات تظهرهم بمظهر العادلين • البعيدين عن اغراض التوسع والاستعمار • وكانوا يأملون من وراء هذه التصريحات ، ايجاد انصار وأصدقاء من ناحية ، واضعاف الروح المعنوية

---

(١) يوم ميسلون ص ٦٧ •

عند الاعداء من ناحية ثانية • وهناك غاية ثالثة ، لا تقل أهمية عن سابقتيها ، وهي اضعاف حدة المعارضة التي كانت تلقاها الحكومة الفرنسية داخل الجمعية الوطنية الفرنسية(١) •

لقد اعلنت فرنسا وانكلترا مرارا وتكرارا ، بانهما لاتبغيان التوسع ، ولا تهدفان الى الحاق ارض من الاراضي او بلد من البلدان الحاقا سافرا او مقنعا بممتلكاتهما • وازدادت امثال هذه التصريحات ، عند انضمام الولايات المتحدة الى الحلفاء ، لان الرئيس ولسون كان يصرح بان امريكا لم تخض غمار الحرب الا (خدمة للانسانية) •• هذا ، ولم يكتف ويلسون بذلك كله ، بل اعلن المبادىء التي يجب ان تسير عليها الدول بعد انتهاء الحرب • ولخصها في اربع عشر مادة ، أهمها : حرية الشعوب وحق تقرير مصيرها بنفسها ، ولا شك ان ويلسون كان يصرح بدوره بامثال هذه التصريحات وذلك لكسب عاطفة الشعوب واجتذابها لنصرة الحلفاء اثناء الحرب • وكرر ساسة فرنسا وانكلترا ايضا امثال هذه التصريحات ، علنا وفي مناسبات مختلفة • وكانت بياناتهم موجهة للعرب خاصة ، تعدهم بالحرية والاستقلال وحق تقرير المصير • وقد كانت احكام اتفاقية سايكس ـ بيكو مخالفة لهذه الوعود والبيانات العلنية مخالفة صريحة • علاوة على مخالفتها للوعود المقطوعة الى الشريف حسين بن علي قائد الثورة العربية •

واذا كان من السهل على الحلفاء ان يخالفوا العهود المقطوعة للشريف ـ بسبب سرية المخابرات الجارية في هذا الشأن ـ فانه لم يكن من السهل عليهم ان يخالفوا تصريحاتهم العلنية ولا سيما مبادىء ويلسون الشهيرة •• ومع هذا ، فان « الثعلبية السياسية » والطمع الاستعماري ، لم يتأخرا عن ايجاد حيلة تضمن حل هذه المشكلة ، وتذليل العقبات القائمة دون تنفيذ

---

(١) كانت القضية السورية موضوع مناقشات

ومشادات عنيفة في قلب الجمعية الوطنية الفرنسية • وقبل معركة ميسلون بشهر واحد • عرض وزير الدفاع الفرنسي مشروع الاعتمادات الجديدة التي خصصها لتلك المعركة ، فلقيت معارضة شديدة من الجانب المعارض •

جلسة ٢٥ حزيران ١٩٢٠

« بريان • نوبلومير • لوناي » الجانب الحكومي
« دالاديه • ليون بلوم » من جانب المعارضة

دالاديه ــ لقد طلبت الحكومة ــ من اجل ما اسمته بالقضية الاسلامية ــ رصد اعتمادات خاصة تبلغ نحو / ٥٢٥ / مليونا في ميزانية وزار الدفاع • و / ١٨٧ / في ميزانية وزارة الخارجية • هذا مع العلم بان هذه المبالغ قد ترتفع الى الضعف • فهل يسوغ لنا ــ في الوقت الذي ما تزال بلادنا تحمل في جنباتها آثار الجراح البليغة ــ ان نتورط في سياسة بسط النفوذ ، والابهات الفارغة ، التي قد تؤدي ببلادنا الى الهلاك •؟ يقال لنا فيما يتعلق بكيليكيا ، ان الحكومة عازمة على اخلائها ، وانها عدلت عن سياسة المغامرة والحرب • مع ان المعارك ما تزال مستمرة ، واننا نتكبد في سورية وكيليكيا خسائر فادحة تزداد يوما بعد يوم ، حتى اننا نجهل عدد موتانا بالضبط •• وقد قيل لنا انهم بلغوا / ٦٠٠ / رجل خلال شهر واحد • ويقال لنا ايضا ، باننا لا نريد ان نبسط حمايتنا

على سورية واننا لا نرغب في تأسيس ادارة على غرار الادارة في مراكش • ولكن جميع الدلائل تشير الى عكس هذه المزاعم • فاذا كانت حجج الحكومة التي تسردها تبرر عملا سلميا ، تقوم به هناك ، فما هي الحاجة الى تجهيز الحملات العسكرية •• ؟

بريان — انهم هم الذين يناشدوننا المعونة ••

دالاديه — ان هؤلاء الذين يناشدونكم لا يمثلون الشعب السوري كله ، انما هم اقلية ضئيلة ، تريد حماية نفسها والمحافظة على مصالحها المرتبطة بمصالحهم ومع ذلك فليس ثمة حاجة الى الحروب واسالة الدماء ••

بريان — نحن لا نرغب في الحرب ، ونخوضها لانها وسيلة من وسائل السلم ••

دالاديه — ان هذا تعليل مضحك •• لماذا لا نحصل في سورية على مركز ادبي ومادي بالجهود السلميةوحدها دون حرب ••؟

بريان — ان الجهود السلمية اصبحت مستحيلة ••

دالاديه — انني أتساءل ، لماذا يبدو لكم الآن ان الجهود السلمية اصبحت مستحيلة ••؟

بريان — لأن القتال واقع فعلا وفي عدة مناطق •• وحركات العصيان لا تسمح لنا بالتفاهم ••

دالاديه — ولكن لم هذا القتال ••؟ ولم حركة العصيان •؟ اليس نتيجة اخطائكم •؟ انني ممن يرون ان الحرب في سورية ، هي نتيجة اخطاء لا ريب فيها • واعتقد باننا لم نأخذ بعين الاعتبار ، حقيقة الهياج العميق الذي يسود لعالم الاسلامي باجمعه •• يجب ان لا ننسى ، بان في سورية ثلاثة ملايين

مسلم ، وثلاثمائة الف من المسيحيين • واننا هنك امــام شعب لا يشبه القبائل بأي وجه من الوجوه • فهو شعب عامل ، ويتحلى بحضارة قديمة جدا • وقد اثبت ـ من قبل الحرب وبتطوره المستمر ـ بانه يرغب في بلوغ الحريــة والاستقلال ، وتأسيس دولة حقيقية • فكيف تنسى تلك الحركات القومية العظيمة ، التي ساهم بها جميع السكان ، من مسلمين ومسيحيين ، بصورة لم يعهد لها مثيل في الشرق كله • تلك الحركات التي اتفق فيهـا الشعب الســوري بمجموعه ضد الاتراك ، لتأسيس دولة قائمة على الســلام والنظام •؟ حتى ان الاتراك انفسهم تهيبوا هذه البادرة ، وقد بلغ بهم تهيبهم ، الى التفكير بايجاد اتحاد « تركي ـ عربي » على غرار الاتحاد « النمسوي ـ المجري » • فكيف ، وقد استنجدتم بالعرب خلال خمس سنوات لمحاربة الاتراك ، وناديتم مع حلفائكم خــلال هذه المدة من على المنصـات الامريكية والانكليزية والايطالية والفرنسية وفي كل مكان وزمان بألا غاية لكم الا الذود عن حرية الشعوب ـ فكيف تتجرأون الآن ـ واسمحوا لي ان اقول ـ باية وقاحــة تحاولون اليوم ان تتملكوا بلادا ليست لكم •• بلادا آن لها ، ولها كل الحق في ان تنعم بالحرية والاستقلال ••

نوبلومير ـ ان الانتداب يا سيد دالاديه ليس احتــلالا •• بل هو على العكس تماما ••

دالاديه ـ وهذا تعليل مضحك جـديد •• الامر اذن ليس احتــلالا واستيلاء •• ما هو اذن •؟ علك تريد ان تقول انه ممارسة الانتداب •• ان هذه التعابير لا تخفي الحقيقة •• وقد قرأت

تقريرك الذي تقول فيه « انك ضد الفتوحات وضد المغامرات ولكنك تريد الاعتماد على اساليب اكثر ليونة . »

نوبلومير ـ انني اعتمد قبل كل شيء على قرار سان ريمو . فقد كان حقنا في سورية متنازعا عليه حتى صدور ذلك القـرار . فاصبحنا منذ صدوره نملك حقا دوليا متينا . وقد حصلنا على موافقـة انكلترا وايطاليـا والميكادو . وانا لا اطلب مبلغ الخمسمائة مليون فرنك لتجهيز حملة عسكرية ، بل للقيام بمباحثـات ومفاوضات ، امـا الجنود فسيكونون للـزينة فقط .. وهذا المال الذي سنصرفه ، سيكون لحل المسألة السورية فقط ..

دالاديه ـ انا اعتقد من جهتي ، انه من الخطأ البين ، ان تقولوا لهذه الشعوب ـ المتحمسة والمصممة على التحرر والانعتاق ـ ان تقولوا لها ، انا نحاول الاستيلاء على بـلادك ، ونسعى الى الانتداب عليها ..

نوبلومير ـ هذا غير صحيح ..

دالاديه ـ انكم تفرضون الانتداب عليها .. ان الكلمات لا تبدل حقيقة الامر . كنتم تتكلمون في الماضي عن تغلغل سلمي ، وها انتم الآن تتكلمون عن الانتداب. وفي الحقيقة انكم تتقدمون الى احتلال سورية برؤوس الحراب ..

نوبلومير ـ ان القضية فقط تقتصر على تأمين النظام الفرنسي في بـــلاد تسودها فوضى هائلة ، وذلك لان النظام الوطني ، عاجز عن فرض نفسه بنفسه . واذا كنا نرغب في فرض نظامنا انما

نفعل ذلك ، لنجني ثمرات جهودنا واتعابنا في اقرب وقت ممكن • ولنرى الموارد المحلية تفي بحاجات الناس ، وتسمح للأهلين بان يعيشوا احرارا مستقلين ••

ليون بلوم ــ وما هي الوسيلة لذلك ••؟

نوبلومير ــ الوسيلة هي فرض النظام الذي يعجزون عن فرضه بدوننا ••

بلوم ــ وكيف ستؤسسون انتم هذا النظام ••؟

نوبلومير ــ طبعا بمعونة الدرك •• هذا امر بديهي •• فكيف تريدوننا ان نؤمن نظاما بدون الدرك •؟ فهذه الطريقة هي اساس كل حياة اجتماعية ، او قريبة من الاجتماعية ••

لوناي ــ وسيكون الامر كذلك حتى في عصبة الامم ••

دالاديه ــ انني لاآسف على اشتراكي في هذه المناقشة ، حتى ولو لم اكن قد توصلت الى أي نتيجة ، سوى حمل نوبلومير على الافصاح عن فكرته افصاحا تاما • فالامر اذن ، هو ارسال درك وتغلغل سلمي • ولكن سينتهي بحملة عسكرية ومعارك دامية •• انكم اذا واصلتم هذه السياسة الحمقاء ، ستعرضون البلاد الى خطر قد ينتهي بكارثة حقيقية بايفادكم مائة الف جندي ليموتوا في سورية •

نوبلومير ــ ان الغاية تبرر الواسطة ••

دالاديه ــ انا لن اصوت على رصد هذا الاعتماد • في الوقت الذي رزىء فيه شعبنا بمليون ونصف من ابنائه • وفي الوقت الذي يترتب علينا فيه ان نركز قوانا لتعمير نواحينا المخربة • انني أعارض هذا المشروع ، وارجو ان تعذروني اذ أنسحب من هذه الجلسة ••

الاتفاقية • فقد اخترعوا شيئا اسمه (الانتداب والوصاية) هذا الشيء الذي يكفل ستر وجه الاستعمار الكريه بقناع خداع • والواقع ان هذا النظام الجديد المبتدع كان يستند ـ ببريق وهاج ولكن خلب ـ على مساعدة الشعوب في تقرير مصيرها • وكان يستوجب استفتاء هذه الشعوب ومراعاة مصالحها ••

ولم تعجز السياسة الاستعمارية الماكرة عن التغلب على هذه المشكلة الجديدة • بطرق شتى ومتنوعة • فعندما اراد ويلسون استفتاء الشعب السوري في تقرير مصيره وافقه ممثلو فرنسا وانكلترا في مؤتمر الصلح ثم عارضوه بشدة وجنون حين خشوا من النتيجة ، مدعين بان الاحوال في سورية ، بمناسبة الثورات القائمة ـ او ما اسموه بالفتن واعمال العصابات ـ لا تساعد على اجراء هذا الاستفتاء • ولكن الثورات السورية التي كانت مشتعلة في ذلك الحين (تموز ١٩١٩) جعلت ويلسون يصر على رأيه ، ويوفد الى سورية لجنة الاستفتاء ، الشهيرة باسم « لجنة كينغ ـ كراين » • وكانت مهمة هذه اللجنة استفتاء الشعب السوري ، واستقصاء نزعاته ، والتعبير عن شكل الحكم الذي يرتضيه لنفسه • وقد جاءت نتيجة هذا الاستفتاء والاستقصاء ـ كما كان متوقعا ـ مخالفة صريحة لمطامع الدولتين •

وهذه كلمة القاها بريان جديرة بالتسجيل :

ايها السادة ، متى سيقرر الفرنسيون عدم النظر الى شؤون فرنسا الخارجية من خلال الاعتبارات العاطفية وحدها ؟• علينا ان نتساءل عما يفعله فلاحونا الطيبون عندما يذهبون الى السوق ، لعقد صفقات البيع والشراء • انهم حريصون دائما على عدم الاعطاء قبل الاخذ •• يجب علينا اذن ان نفعل مثلهم •

(يوم ميسلون ص ٣٢٨) •

لأنها اظهرت رغبة الشعب السوري الصادقة ، في حرية واستقلال بلاده التام ، بحدودها الطبيعية • وبرهنت على ان الشعب السوري قاطبة دون استثناء ، يرفض تدخل اي دولة اجنبية في شؤونه الداخلية ، ولو عن طريق الارشاد أو أزجاء النصائح •• الخ •

وقد استطاعت الفئة الاستعمارية الحاكمة في امريكا في ذلك الحين ، ان تؤثر على مجرى الامور في الولايات المتحدة نفسها التي ايدت بلا قيد ولا شرط السياسة الاستعمارية الفرنسية الانكليزية في الشرق ، مما سهل على فرنسا وانكلترا كتمان نتائج الاستفتاء ، واهمال تقرير اللجنة وتجاهله تجاهلا تاما • والاعتماد على تقارير رجال الاستخبارات الامريكية في الشرق حيث اصبح من الميسور لهما ، ان تحققا كل ما تطمعان به من السيطرة على البلاد العربية ، عن طريق الانتداب ولو بالقوة المسلحة •• وبعد ذلك ، وقد اصبح الجو خاليا ، حملت الدولتان مؤتمر الصلح ان يوافق على تقرير انتداب فرنسا على سورية ولبنان ، وانتداب انكلترا على فلسطين والعراق ، بعد ان ابرزتا للمؤتمر وثائق اتفاقية اتفق عليها في « مؤتمر سان ريمو » •

* * *

ولم يبق على فرنسا بعد هذا ، ـ لتحقيق مطامعها في سورية ـ غير حشد الجيوش ، وتوجيه الانذارات ، واحتلال البلاد بالحديد والنار •• وكانت ضربة ميسلون نتيجة طبيعية ، لتلك السلسلة الطويلة من المساومات الدولية ، والاتفاقات السياسية ••

واذا كانت واقعة ميسلون بمثابة الفصل الاخير من رواية « المنافسة الاستعمارية الدولية » التي حامت حول سورية العربية ، فانها كانت في الوقت نفسه ، بمثابة الفصل الاول من مناقب المقاومة الوطنية ، والكفاح الشعبي المجيد ، ضد القوى الاستعمارية الغاشمة ، وفي سبيل الحرية وجلاء الاجنبي والاستقلال التام دون قيد او شرط ••

وقد توالت فصول هذا الكفاح بعد معركة ميسلون ، دون هوادة او انقطاع ولم يتوقف النضال الشعبي المسلح ، والعمل السياسي السلمي ، الا بعد انهاء مهمته على خير واتم ما ينبغي ، ولو قدر لذلك ان لا يتم الا بعد مرور مدة تزيد على خمس وعشرين سنة ، من التاريخ الحديث للشعب السوري العربي البطل ..

★★★

الفصل الثاني

١ ـ دور الكفاح الشعبي في طرد السلاطين

« ان المصلحة توجب علينا ان نكره السوريين على ترك اوطانهم • وان بلاد العرب كلها ، يجب تحويلها الى مستعمرات تركية ، لأن النشىء العربي ، اخذ يشعر بالعصبية القومية وهو يهددنا ويهدد مصالحنا بنكبة عظيمة يجب ان نحتاط لها من الآن •• »

« والي تركي »

أخذت هذه الافكار المجرمة وامثالها تدور في رؤوس الولاة الاتراك ، وآخرين من متعصبي « جمعية الاتحاد والترقي » التركية ، عندما شعروا بان العملاق العربي بدأ يفتح جفنيه ، وينفض عن اهدابه غبار النوم الطويل• وكانت اعدامات الوطنيين السوريين في ايار وآب من عام **١٩١٦** بداية النهاية بالنسبة لحكم السلاطين وزبانيتهم •

وكان انهيار الدولة السلطانية ينبع من داخلها بالدرجة الاولى ، قبل ان يمسها أي اعتبار من الاعتبارات الخارجية • فنظام الحكم المطلق الذي كان يرأسه السلطان ويديره جماعة من الجزارين الباشاوات ورجال القصر ، كان يستعبد المواطنين العرب والاتراك على السواء • كما انه كان

يستبعدهم عن المشاركة في شؤون الحكم • من اجل هذا ، لم يكن للشعب آنئذ صوت يعبر عن شكواه ، او يفصح عن حاجاته • وهكذا خضع العرب كغيرهم من شعوب الامبراطورية العثمانية لهذا الواقع الاليم فترة طويلة من الزمن ••

ولكن منذ عام ١٨٧٦ بدأ ذوو النظرة البعيدة من المسؤولين الاتراك ، يلاحظون النار التي اخذت تشتعل تحت الرماد الشعبي • من اجل هذا اخذوا ينصحون حكامهم بالحيطة واخذ الحذر • واقترحوا عليهم ، بان المدنية الحديثة تفرض عليهم ان يبدلوا من اساليبهم البالية القديمة ، وان يسايروا – ولو عن بعد – موكب الحضارة الجديدة • وقد اضطر السلاطين ان يستجيبوا لتلك الدعوة ، وان يعمدوا الى تعديل بعض مظاهر الحكم • فكان دستور عام ١٨٧٦ الذي افسح المجال – او بالاحرى حال دون الانفجار الكبير – وتحول الى شكل من اشكال العمل الوطني • فافسح المجال لظهور بوادر النهضة العربية في سورية والبلاد العربية الاخرى • خاصة وان الاتصال بالثقافة التحررية الغربية ، عن طريق البعثات الاجنبية ، والاتصال بالغرب بشكل مباشر ، جعل براعم هذه النهضة تتفتق على شكل واضح في القسم الغربي من سورية ، ولكن العمل الوطني ، أو أي شكل من اشكال التعبير عن القومية العربية ، كان عبارة عن مادة مهربة يحظرها القانون • وكان لا بد للعامل في هذا الحقل ، ان يتستر تحت جنح الظلام •

ورغم ذلك ، فقد دخلت حركة النهضة العربية مرحلتها الاولى بظهور اول جمعية سياسية ذات برنامج قومي ثوري في سورية تأسست ١٨٧٥ ، مؤلفة من جميع الطوائف • وكان لها فروع في دمشق وبيروت وطرابلس • وقد قصرت نشاطها الاولي ، على الدعوة الشفهية سرا ، ونشر اعلانات مغفلة على الجدران ، ضد الاستعمار التركي ، والتنبيه الى خطر الاستعمار الاوربي ، وتطالب بالاستقلال والحكم الذاتي • وكانت أهم نشرة لها هي التي علقت

على جدران بيروت ليلة ٣١ كانون الاول ١٨٨٠ م • وتتضمن برنامجا ومطاليب عديدة أهمها :

١ ـ منح الاستقلال لسورية متحدة مع لبنان •

٢ ـ الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية في البلاد •

٣ ـ الغاء الرقابة والقيود على حرية الرأي وانتشار الثقافة والعلم •

٤ ـ عدم استخدام المجندين السوريين الا ضمن حدود بلادهم •

وكان من الطبيعي ، ان لا تلاقي هذه الدعوة آنئذ نجاحا ملموسا ، نظرا لضعف الوعي الجماهيري وعدم ملائمة الظروف عامة • غير انها نجحت في تحديد أهداف تبنتها فيما بعد الدعوات التالية • وكان من نتيجتها ، ان دوت صيحات الكتاب والمفكرين ، مطالبة بمحو الظلام ونشر نور الحق والعدالة •

وفي عام ١٩٠٨ ، قام العرب ـ السوريون على الاخص ـ بنشاط سياسي كبير على الصعيد القومي العربي ، وكان من مظاهره ، تأليف منظمات سياسية ، تنبه الى خطر الاستعمار ، وتدعو الى رفع الاستبداد والاستعباد ، وتحقيق الحرية والاستقلال ـ • ومن أهم هذه المنظمات : « جمعية الاخاء العربي العثماني » ، التي أغلقها العثمانيون بعد التعرف على أهدافها « والمنتدى الادبي » ، الذي كان يقوم بدور اصلاحي غير معتمد على الكفاح الشعبي ••

ثم « حركة اللامركزية » ، التي استمر نشاطها فترة من الزمن ، وقامت بدور وطني فعال ، نظرا لانها تلافت الاخطاء التي وقع بها السابقون • فجعلت مقرها في الخارج ، ولم تقبل في صفوفها اعضاء غير عرب ، ولان شعاراتها كانت نابعة من صميم القضية العربية •

وهناك جمعيات سرية اخرى ، عملت فترة من الزمن ، ثم انحرف

بعض اعضائها عن الطريق ، او قبض على البعض الآخر ، فعلقوا على اعواد المشانق ..

وقد قطعت هذه المنظمات والجمعيات شوطا كبيرا في خدمة القضية العربية ، فنبهت الاذهان الى المطاليب الوطنية ، وحضت الشعب على اليقظة والتمرد . حتى دخلت في مراحل الكفاح الشعبي المسلح ، والثورة الحقيقية اثناء الحرب العالمية الاولى . ورغم جميع الصعوبات الدولية والتاريخية والموضوعية ، فقد استطاع الشعب العربي ، ان يساهم مساهمة فعالة في انهيار السلاطين وطردهم من بلاده الى غير رجعة . (١)

★ ★ ★

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع توجد معلومات جيدة ووافية في كتاب جورج انطونيوس يقظة العرب .

٢ ـ اعياد التحرير

كان كل شيء في غير مكانه .. وكل شيء قد تبدل . تسربت الهزة الى اعماق الارض ، الى ابعد من هذا ، الى اغوار العقل .. الى خفايا النفوس البشرية . كانت تلك الايام هي يوم السلامة ، اذا كان هذا التعبير يعكس معنى « يوم القيامة » . فقد انحسر غطاء الظلم والجهالة والاستعباد . وتقوض حكم السفاهة والبطش والضلال . وتوارى الشبح الاسود البغيض . طويت ايام لا تحصى ، وشهور لا تعد ، سنون كثيرة .. مئات السنين . ستة قرون طويت كلها دفعة واحدة ، وجاء يوم النصر المجيد .

فقد انهار حكم السلاطين ، وذبح الانكشاريون ، وطورد جمال باشا السفاح .. وسطع نور الشمس .. شمس الحرية .

لم يكن وعد بلفور الذي برز الى الوجود قبل عام واحد ، قد هضم هضما كافيا . ولم تكن اتفاقيات ماكماهون وقد ازيح عنها النقاب . ولم تكن اتفاقية سايكس ـ بيكو غير حبر على ورق .

وفي غمرة الافراح ، في خضم الاحتفالات ، ابان هيجان الشعب ، هب الناس بطبقاتهم والوانهم واشكالهم ، لاستقبال الجيش العربي المظفر ، الذي كان يشق طريقه الى دمشق ، زاحفا من الجنوب . وكانت فلول الاتراك تهيم على وجهها هاربة ، بضباطها الخائبين ، بخيولها الذليلة ، بعتادها المبعثر . وكان الشعب العربي في سورية ، يفرش السجاد وينثر الازهار ، ويقدم الذبائح ، وكانت الحناجر قد بحت من فرط الهتاف ، والاكف قد أدميت من فرط التصفيق ، والزينات قائمة ، والاعلام العربية ترتفع في كل مكان ..

كان الجيش العربي قد سار من الحجاز ـ قبل سنتين ـ ، بادئاخطواته الاولى على عزيف بيان اصدره الشريف حسين بن علي ، الذي بويع ملكا على العرب • وكان هذا الجيش مؤلفا من متطوعين ، اتوا من كل الاقطار العربية ، حاملين الاسلحة والرايات ، هجانة وخيالة ومشاة ، زاحفين في موكب رهيب ، مكتسحين أمام تقدمهم الهادر ، خطوط الاتراك ، رادمين خنادقهم ، مدمرين تحصيناتهم وتحكيماتهم التي لم تعد تحميهم من ثورة الشعب العربي المدمرة •

وكان هذا الجيش يضم تحت لوائه الوانا متعددة من الرجال : جنودا نظاميين ورجال عشائر ، ومحاربين قدماء ، وسياسيين محكومين بالاعدام •

كان هؤلاء المتطوعون ، يتحملون خلال زحفهم المرير ، الشـــوط الاكبر من القساوة والعناء • كانوا يقطعون المسافات الشاسعة ، على اقدام متورمة دامية • متكبدين من جيوبهم نفقات الثورة العربية • هدفهم الاكبر هو تحرير البلاد ، والعودة الى أوطانهم التي سلبها عدو غاشم بغيض • كانوا يعتبرون الثورة هي ثورتهم وثورة ابنائهم ، من اجل هذا كانوايقاتلون ببسالة ، بالبنادق والسيوف ، التي باعوا الرغيف ليحصلوا عليها ، وهـم يجمعون حول صدورهم اثمالا بالية ، وأصابع أقدامهم الدامية تبرز من النعال ، التي مزقها بعد المسافات والسير المتواصل •

كان هؤلاء المتطوعون ـ في كثير من الاحيان ـ لا يخضعون لاوامر القادة • لان هذه الاوامر ـ بمفردها أو بمجموعها ـ كانت تبدو لهم غريبة عجيبة • فكان الجيش ، يتقدم ويتراجع ، وينحرف يمينا ويسارا ، ثـم يهدأ هدأة طويلة ، حتى تتفق كلمة الحلفاء على خطة موحدة للعمل •

وفي الاول من من تشرين الاول عام **١٩١٨** وصلت طليعة الجيش العربي الى دمشق •• حيث كان يتموج هدير الشعب السوري ، وهو

يوقع بخلجات قلبه معزوفة النصر ، على رائحة الدخان ، وانفجـارات البارود ، ورطوبة ثرى الشهداء .. وكانت الليلة الاولى من تشرين الاول ١٩١٨ ، ليلة القدر .. ليلة خير من ألف شهر . ليلة ستبقى خـالدة الى ابد الآبدين ، في صدر كل من شاهدها ، أو سمع عنها أو تخيلها ، . وأولئك الاطفال الذين أصبحوا رجالا ، يتوقفون في أكثر الاحيان ـ وراء المحراث أو عند الآلة الدائرة أو قرب ميزان المبيع أو على مقعد الدراسة ـ ليذكروا بكثير من الانس ، جدهم أو جدتهم ، كيف كانت تحدثهم ، قرب مدفأة قديمة ، يئن في جوفها عود الحطب المحترق ، عن يوم مـن الايام الغابرة ، غاب في بطن السنين ، وابتلعته أحداث ماكرة ..

ويرجع ذلك الجد أو تلك الجدة بذاكرته الى الوراء ، ويتساءل دون أن يصدق :

ترى هل انقشعت تلك الغشاوة القاتمة ، التي حجبت الشمس عن بلادنا طوال قرون .؟ هل رحل الذين قسموا بلادنا الى ولايات ، والذين كانوا يبيعونها الى ولاتهم بالمزاد العلني .؟ ـ من يدفع أكثر يأخذ أكبر ـ وعلى الوالي بعد ذلك ان يفعل ما يشاء ، فيسترد ما دفعه من الربح الفاحش، لاجئا الى مختلف وسائط الغدر والبطش والتسلط ، كي يحصل على أكبر قدر من المكاسب . هل اختفى الى غير ظهور ، أولئك الذين حاولوا تتريكنا بالحديد والنار .؟ والذين نسبوا تهمة الخيانة العظمى الى كل من نادى بعروبته . والذين حاولوا القضاء على اللغة العربية ومنعوها من المـدارس والمحاكم والدواوين . والذين ظلوا يعلنون الاحكام العرفية حتى يتسنى لهم محو الحقيقة والذين ما انقطعوا عن شنق الوطنيين ونفيهم و «خوزقتهم»..

وقد يذكر أو لا يذكر ، ذلك الجد وتلك الجدة ، ما قاله أحـد الولاة الاتراك :

« ان المصلحة توجب علينا ان نكره السوريين على ترك أوطانهم ، وان بلاد العرب يجب تحويلها الى مستعمرات تركية ، لان النشيء العربي ، صار يشعر بالعصبية القومية • وهو يهددنا ويهدد مصالحنا بنكبة عظيمة ، يجب ان نحتاط لها من الآن » ••

٣ ـ تنفيذ اتفاقية سايكس ـ بيكو

يعتبر تنفيذاتفاقية سايكس ـ بيكو الصفحةالاولى من خياناتومؤامرات الاستعمار في الشرق الاوسط بعد الحرب العالمية الاولى .. كما يعتبر فتحا جديدا في تاريخ الاستهتار بكرامة الشعوب وسلب حقوقها والسيطرة على مقدراتها وأراضيها المقدسة ، واستهانة بكل ما تعارف عليه الانسان من شرف وعهود ..

ومن المعروف أن معاهدة سايكس ـ بيكو كانت معاهدة سرية ، لا يعرف عنها الرأي العام شيئا ، الى أن حدثت الثورة الروسية في تشرين الاول ١٩١٧ . عندها فتح قادة الثورة الادراج ، وخرجوا بكل المعاهدات والمواثيق التي جرت بين الحلفاء ـ وكانت روسيا القيصرية من بينهم ـ وراحوا يذيعونها على الملأ فضحا للمؤامرات الاستعمارية تأييدا لحق الشعوب في الحرية والاستقلال . وعندما وصل الامير فيصل بن الحسين الى دمشق على رأس الجيش العربي ، سئل من قبل بعض الوفود القادمة الى تهنئته عن حقيقة تلك المعاهدة ، فأجاب « لقد أكد لي السير ماكماهون بنفسه ، ومن ثم الجنرال اللنبي بأن هذه المعاهدة لن تنفذ بأي صورة من الصور .. وان ما سيحدث على السواحل السورية ، لن يكون غير تدبير عسكري موقت ، تقتضيه بعض ظروف الحرب .. » أما ما حدث بعد هذا التصريح بيوم واحد ، وكان قد مضى على دخول الجيش العربي الى دمشق أربعة أيام ، وكانت الاحتفالات بأعياد التحرير في أعلى ذروتها ، ان وقفت أمام السراي سيارة من طراز فرنسي ، هبط منها شاب يرتدي

الملابس المدنية ويعلق على صدره أوسمة حربية ، وسأله أحد المستقبلين :
من يكون السيد ؟.

فأجاب الفرنسي بكبرياء :

ـ انني مبعوث من القيادة الفرنسية اريد مقابلة بمستشار الامير الكولونيل لورنس . وتفحص لورنس ما هية القادم ، الذي قدم نفسه باسم الكولونيل تولا ثم جرى بينهما حوار من هذا القبيل .

قال لورنس ـ لقد وصلتني التعليمات من الجنرال اللنبي قبل ساعة واحدة فقط ..

وقال الفرنسي :

ـ يبدو انني تأخرت في الطريق من بيروت الى هنا .. نظرا لوجود الوحول والاعلام العربية التي يرفعونها على طول الطريق .

ورد لورنس ـ دون ان تفوقه هذه الملاحظة عن الجمع بين الوحول والاعلام العربية ـ :

وقال الفرنسي بنفاذ صبر :

ـ ان قيادتي تفضل ان يتم العمل فورا .. فضلا عن أن تقدم الجيوش العربية نحو الشمال ، يسبب لنا الكثير من المضايقات ..

وطمأنه لورنس قائلا :

ـ يجب الآن معالجة الامور بقليل من الحكمة . ولقد وصلتني نسخة عن احتجاجكم على رفع الرايات وتقدم الجيوش العربية ، مع بعض الاوامر الاخرى .. ولقد فهمت ان حكومتكم تريد ان تنتهز فرصة طلب الالمان للصلح ، لتنفيذ الاتفاقية على الفور ..

ورد الفرنسي مستفسراً :

ـ وماذا سيكون موقفكم تجاه تصريحاتكم المتوالية ، والتي تقولون فيها للشريف بأن الاتفاقية أصبحت لاغية ..؟

وأجاب لورنس بخبث :

ـ في الحقيقة نحن لا نعني الغاءها ، بل نعني أن تنفيذها لن يسبب مشكلة . ان معاهداتنا مع العرب تقول : بأنهم سينالون ما يريدون . وبعدها نكتب بالحبر السري ان لا ينالوا شيئا .

وقال الفرنسي :

ـ اننا نخشى أن تفسر هذه الوعود حسب رغبة العرب .. وعلى كل حال ، وخوفا من أن يحدث أي تبديل على المعاهدة ، فاننا مضطرون للنزول الى الشواطىء غدا .. واذا كانت توجد هناك فكرة للمقاومة من جانب السوريين ، فنحن مستعدون للقتال ومواصلة الحرب..

وعاد لورنس يطمئنه قائلا :

ـ لا .. لا .. فقد اعددنا كل شيء واعطينا الاوامر باخلاء السواحل .. وقد افهمنا الامير فيصل ، بأن هذه تدابير عسكرية محضة لا تؤثر في مصير البلاد ، ولا تعني تقسيمها تقسيما سياسيا .

ونهض المبعوث الفرنسي على عجل مودعا بالاكرام والاجلال ..

وفي الثامن من تشرين الاول ـ اي بعد اسبوع واحد من وصول الجيش العربي الى سورية ـ احتل الفرنسيون السواحل السورية بضربة واحدة . وفوجيء الشعب بالمعنى الحقيقي لمعاهدة سايكس ـ بيكو التي

وصلت الى اسماعه ، عقب الثورة الروسية ، يشوبها الكثير من الغموض ، وكان المسؤولون يقدمون لمن عرف معناها الحقيقي حقنا من المخدرات والمسكنات على شكل تصاريح وخطب وبيانات ...

ويقول « الكتاب الذهبي لجيوش الشرق » الذي وضعته القيادة العسكرية الفرنسية :

« لقد ترتب على جيش الشرق الناشيء ان يؤمن في البدء احتلال لبنان وساحل العلويين وكيليكيا ، وان يقوم على ادارتها جميعا . على ان قواته كانت أقل من ان تفي بجميع الاغراض المقصودة . هذه القوات المؤلفة من : فرقة مختلطة ، فيلق مشاة ٤١٢ ، فيلق خيالة ، وبعض الآليات والمدفعية الساحلية والجبلية . وقد تحتم على تلك القوات الهزيلة ، ان تضطلع بأثقل المهام واكثرها اشكالا ، في منطقة مترامية الاطراف ، حيث استيقظت على الفور ، اعمال الشقاوة والثورة » .

الفصل الثالث

١ - نظرة عامة الى الكفاح الشعبي في سورية (١٩١٩ - ١٩٢٢)

« كانت اعمال الشقاوة والفوضى ، تتلاءم كل الملاءمة مع التقاليد المحلية . ولئن كان النظام قد استقر حينا في كيليكيا بفضل ضخامة القوات البريطانية ، فان سلطاننا لم يعرف الاستقرار في المناطق السورية الساحلية الا بعد مقاومات عنيفة ، تذكرنا بالحروب الكبيرة ..

فقد انتفض علينا منذ الايام الاول ، فلاحو الجبال متمثلين بالشيخ صالح العلي أحد زعمائهم . وقد تمنع الشيخ صالح وانصاره في الجبال الى أواخر سنة ١٩٢١ . ولم ينفك عن مناوءة مخافرنا وجنودنا ومهاجمتها . حتى انهم توصلوا حينا من الاحيان ، الى المدن الساحلية .

وكانت بلاد العلويين ، المسرح الاول للمعارك الهامة ، التي اشتبك بها جيش الشرق .. »

من « الكتاب الذهبي لجيش الشرق الفرنسي »

قبل الخوض في دراسة مراحل الكفاح الشعبي في سورية ، وسرد بعض الوقائع والمعارك التي جرت بين الشعب والجيوش المستعمرة ، علينا

ان نلقي نظرة الى طبيعة هذا الكفاح ، من النواحي العامة والموضوعية والى المناخين التاريخي والنفساني اللذين عاش فيهما كفاحنا الشعبي العظيم •

ان حروب التحرير تستهدف عادة ، فاتحا غريبا ، أو سلطة فرضها الاجنبي ، فتحتم انطلاق حركة كبيرة تشمل كل الشعب ، وتكون عادة طويلة الامد ، وضارية لا هوادة فيها • وتتمركز عادة في المناطق الفقيرة الصعبة المسالك • ولا اشق على الجيش المحتل ، من ان يجابه عصاة ثائرين من أبناء الشعب ، لا تجمعهم غير رابطة الشعور الوطني والعزة القومية • ويقول أحد العسكريين المعاصرين :

« ان زمان الحروب الكبيرة والجيوش الضخمة ، في سبيله الى الاختفاء • وان حروبا من نوع جديد ، تحل مكانها ، هي حروب العصيان والثورة » •

فالاساليب التقليدية في الحروب الكبرى ، القائمة بين جيش وجيش آخر ، لا يمكن تطبيقها في أعمال القمع الداخلية ، والثورات الشعبية • وعلى هذا ، فان الثورات الوطنية تأخذ دائما سمة ، أو سمات معينة تختلف باختلاف ، طبيعة الشعب الثائر ، وطبيعة الاراضي التي تجري فيها الحركات ، وبالتالي الحالة التي يكون عليها الجيش الغاصب •

واذا رجعنا الى ثوراتنا التي بدأت منذ ١٩١٩ ، أي منذ وطئت أرضنا الجيوش الفرنسية والانكليزية ، نجد انها اتخذت ـ على الفور وبشكل مفاجيء ودون أية دعاية او تحضير ـ صورة الثورة الحقيقية العارمة ، طويلة الامد •

ولكي نلم الماما قريبا من الكمال بطبيعة هذه الثورة ، يجدر بنا ان نعرف شيئا عن ظروف الجيوش التي احتلت بلادنا : كان الجيشان الفرنسي والانكليزي الحليفان ، قد خرجا من الحرب في أواخر عام ١٩١٨ منتصرين • تكسو صدور قادتهما الاوسمة والنياشين ، وتكلل رؤوسهم

أكاليل الغار • وكان الجنود على درجة معنوية عالية ، بعد ان ملأت نفوسهم نشوة الانتصارات • واذا كانت هذه الجيوش حقيقة أصبحت تميل الى قليل من الاستجمام والراحة ، فان دخولها الى سورية كفاتحة ومنقذة ، عوضها كثيرا عن كل حاجة الى الاسترخاء • كما أن فكرة « هذه مستعمراتنا الجديدة ولن نخرج منها » ، أحيت في نفوس العسكريين آمالا لم يكونوا ليحلموا بها من قبل ، وزادتهم يقينا بأن جهودهم لم تذهب ولن تذهب عبثا • زد على هذا تمرسهم بشئون المعارك والحرب طيلة الاعوام الاربعة الماضية ، جعلهم يأخذون لكل أمر عدته ، ويقفون بالمرصاد لكل حركة مناوئة تصدر عن الشعب المحتل • أضف الى كل ذلك ان الاسلحة الحربية، كانت قد وصلت في نهاية الحرب الى أقصى جودتها وحدتها التدميرية ، بعد طول الاختبارات والتجارب العملية • فاذا أخذت كل هذه العوامل بعين الاعتبار ، مع عوامل أخرى مادية ومعنوية ، أمكن معرفة صعوبة المهمة الملقاة على عاتق الشعب السوري ، عند قيامه بالثورة ••

أما اذا نظرنا الى الحالة التي كان عليها الشعب العربي في سورية في تلك الفترة ، فاننا – أول ما نلمسه – هو كونه خارج من فترة نقاهة •• نقاهة المصدور الذي ظل طوال ستة قرون يعاني سكرات الموت في سريره الضيق • وما ان فتح عينيه للنور حتى وجد نفسه يبدد انفاسه في التصفيق والهتاف للجيوش القادمة المنقذة • وعندما رفعت هذه الجيوش عن وجهها القناع ، كان هول المفاجأة من القوة بحيث جعلت المستعمرين يأملون أن يعود الشعب العربي في سورية الى النوم من جديد ، مؤثرا الاستسلام على استئناف الكفاح •• وهنا يدخل اعتبار هام ، هو طبيعة الشعب العربي في سورية •• الذي لم يفعل ما كان يتوقعه المستعمرون •

ويمكن اطلاق تعبير « صرخة الاسد الجريح » على وثبة هذا الشعب ، اذا عرف أنه لم ينتظر مؤامرات جديدة ، تحاك خيوطها في

مؤتمر الصلح ، بل هب لفوره منتضيا سلاحه ، دونما قيادة ، أو اشــارة من زعيم ، مدافعا عن حريته وعزته وكرامته .

وفي ذلك الحين ، كانت الاحداث التي تجري في بلد ما من العالم ، من الصعب أن تهم أو تسترعي انتباه البلدان الاخرى . وكانت شــعوب العالم خارجة من حرب كبرى ، وهي عاكفة على لعق جراحها وتدبـير شئونها التي أربكتها الازمات . وكان كل شعب منفصل عن الشعب الآخر بسبب الغايات المشتركة للبلدان المستعمرة التي كان همها الدائم تفــريق الشعب الواحد وعزل الشعوب عن بعضها بعضا ليسهل افتراسها وضمهــا الى المستعمرات . من اجل هذا ، كانت الثورات السورية شبه منعزلة عن العالم . ولم تكن لتحظى بالمعونة او التأييد التي كان يجب ان يحدث لولا تلك الظروف العصيبة . بالاضافة الى انالمستعمرين ، الفرنسيين والانكليز ، راحوا يشيعون ـ وهم الذين يملكون وسائل النشر والاذاعة وبقية اسباب الدعايات ـ بأن الشعب السوري هو شعب متوحش ومتخلف ، وانه يقابل الحسنة بالاساءة ، ويستقبل المحررين بالعصيان والمروق والخيانة ونكران الجميل ..

في هذا المناخ غير الطبيعي بزغ فجر الثورات السورية . وكان بزوغه ـ الذي يبهر الابصار ، شديد الوقع بحيث اجبر المستعمرين انفسهم عـلى الاعتراف بأن الحرب لم تنته بعد ، فحشدوا الحشود ، و عبأوا الجيوش ، واتخموا الميزانيات بالاموال ، ليتسنى لهم استئناف حرب جديدة ...

عندما نزل ا لفرنسيون في السواحل السورية ، لم يكونوا قد اخذوا اهبتهم الكاملة لحـرب الجبـال والغابات . ولم يـدر في خلدهم ، انهم سيواجهون مسألة اسمها الثورة . فوجدوا انفسهم ـ دون مقدمات ـ تجاه خصوم عتاة اشداء مجهولين . ولم يعرفوا عن قائدهم غير انه فلاح اسمه صالح العلي . ثم توالت الاخبار تفيد بان هناك في الشمال ايضا ، رجلا اسمه

ابراهيم هنانو ، يتزعم عصابة ، تقلق الامن الفرنسي ، وتهاجم قوافل الجنود والمؤن •

جوبه الفرنسيون في البداية ، بغارات جهنمية ، تشن عليهم في ثكناتهم على طول الساحل • فاحتاطوا للامر حسب امكانياتهم التي اعدوها للطوارىء • وراحوا يكثرون من الدوريات ورجال الحرس • غير انهم لم يستطيعوا ان يمسكوا شيئا ، أو يحدوا ـ ولو قليلا ـ من سرعة الهجمات وعنفها وهول مفاجآتها •

كانوا يعرفون بأن احتلالهم ، ما دام بمعرفة الانكليز وبالاتفاق معهم ـ ، فلا بد ان يقف الشعب السوري مع امرائه ، مكتوفي الايدي ، بانتظار ما سيتمخض عنه مؤتمر الصلح في باريس • وعلى هذا سيخلو لهم الجو ، وسيعملون على تنفيذ مآربهم خلال المفاوضات الدائرة هناك • ولكن حركات النضال التي بدأت في السواحل والشمال ، وقفت على الفور مانعا كبيرا في وجه خططهم وترتيباتهم ، او سببا في تأخيرها وافشالها •

لقد عرفوا ، منذ اليوم الاول من الاحتلال ، بأن احتياطاتهم الدفاعية لا تجدي بالذود عن جنودهم ، ولا تمنع الاذى والتخريب عن منشآتهم وعتادهم • فشرعوا باعداد الحملات العسكرية ، لتأديب من اسموهم ب « العصاة والمتمردين » • غير انهم الفوا بعد عدة حملات فاشلة ، بان الخرائط ، صورت لهم معاقل الثوار على غير حقيقتها • وان جواسيسهم وأدلاءهم ، كانوا يتخاذلون عندما يبدأ الالتحام • والواقع انهم وجدوا في جبال العلويين ، تضاريس طبيعية صعبة تعرقل حركات الجيوش النظامية فعكف منذ ذلك الحين جهابذة فكرهم العسكري ، على دراسة هذه المعضلة ووضع حد لها • واستدعوا على الفور نخبة من جنرالاتهم الذين قهروا فنون كلاوزيفتز التعبوية ، وعبقرية جنرالات الامبراطور غليوم ـ ليستعينوا بهم

على وضع الخطط لاخماد ثائرة جماعة من الفلاحين ، الذين يجهلون كل شيء عن الفن العسكري .

والحقيقة ، ان الفرنسيين لم يكن ينقصهم مقدار السلاح او نوعيته ، وليسوا مفتقرين ـ وهم اعظم دولة خرجت ظافرة من الحرب ـ الى التكنيك او التكتيك او علوم الطبوغرافيا العسكرية . ان ما كان ينقصهم في الواقع ، هو الدراسة (النفسية) للعدو الذي يحاربونه .

لم يكن اصحاب الارض جنودا ، وليس بينهم ضباط ينشدون مجدا ونياشين ، ولم يكونوا مغامرين لاهدف لهم غير اطلاق الرصاص ، كانوا باختصار فلاحين ، لا يحبون ان يروا ارضهم تداس مقدساتها باحذية اجنبية ، او ان يسمعوا لغة غير لغتهم توجه اليهم كلمات الاتهام ..

ومن الغريب ان يسقط المستعمرون هذه الاعتبارات من حساباتهم الدقيقة ، فيقعوا في اخطاء أساءت كثيرا الى عنجيتهم وثقتهم بالنفس . مما جعلهم ـ او اضطرهم ـ لان يدخلوا في اعداداتهم لقمع الثورات اسلحة جديدة ، هي : صنع الخلافات العنصرية ، واحداث التعصب الديني ، واشعال الفتن الطائفية ، واستغلال النفوذ للعشائري ، وبذر بذور الضغائن ، وتحريك اصابع الاحقاد .. ولكن الفلاحين ظلوا يستدينون « على الحملة » .. كان الفلاح يقول لجاره اعطني نقودا لاشتري بندقية ، وسأردها اليك عندما يهاجمنا الفرنسيون . وكان الجار يسلف جاره ، ما دام سيحمل بندقية . كان متأكدا بأن جاره سيربح المعركة عند الهجوم وسيقوم بوفاء دينه من الغنائم التي سيفوز بها من العدو .

وهكذا راح الثائرون يحاربون العدو باسلحته ويتمونون بذخائره ومعداته . واخذت المعارك تتوالى ، وتزداد عنفا وحدة . الى ان خرجت الثورة من نطاقها الضيق المحدود ، وانتشرت كالهشيم في آفاق واسعة

جديدة . واخذت القيادة الفرنسية ، تحشد القوات المدعومة بالآليات والمدافع والطائرات والاساطيل . كما انها راحت تستبدل فرقها العسكرية ، معتمدة على القوى التي تمرست على القتال في الاحوال الخاصة (قتال الليل والجبال والغابات والشوارع) . واستقدمت كتائب من افريقيا ، واخرى من الهند الصينية ، حتى اضطرت اخيرا الى ان تجري صلحا مع الاتراك ، وتسحب الجيش من بلاد العدو ، لتضعه في وجه شعب ، آثر ابناؤه الموت بعز على العيش بذل ، وفضلوا ان يشعلوا النار في كل مكان ، على الركون الى سلام الحكم الاجنبي ..

٢ ـ معارك جبال العلويين

« كان اخماد الفتنة في البلاد يتوقف على قطع دابر عصابة الشيخ صالح العلي ، واعتقاله ، أو التوصل الى تحقيق استسلامه • بيد ان هذا الرجل كان يتفلت من نطاق الجيوش المطاردة ، لما كان يلقاه في البلاد من نصرة وعون •• »

عن « الكتاب الذهبي لجيوش الشرق »

(١) محاولة القضاء على الثورة في المهد :

حاول الفرنسيون ان يقضوا على ثورة العلويين في مهدها قبل ان تتسع وتأخذ شكل ثورة عارمة • خاصة وان نشاط قائدها الشيخ صالح ، قد وصل الى الذروة باتصاله برجال العشائر ، واقناعهم بضرورة العمل العاجل لطرد المحتلين من السواحل • فبدأوا باستدعاء الشيخ الى القيادة في طرطوس ، للاستفسار عن بعض الامور • ولكن الشيخ رفض الانصياع لهذا الامر • مما جعلهم يستعملون القوة المسلحة ، ومهاجمة الشيخ في عقر داره ، في قرية الشيخ بدر •

ومن اجل هذه الغاية خرجت من قلعة القدموس ، الواقعة على السفوح الغربية لجبال العلويين ، قوةمسلحة ، تقدر بسرية مشاة ، مدعومة بفصيلة رشاش « هوتشكيس » محملة على البغال • اتخذت هذه السرية في

البداية تشكيلة الرتل الثلاثي • ثم ما ان بدأت في المسير ، حتى غيرت من ترتيبها ، واتخذت تشكيلة « التقرب المستور » • وعندما وصلت مقدمتها الى السهل المؤدي الى قرية وادي العيون اعادت تشكيلها من جديد ، فاتخذت تشكيلة « التقرب المكشوف » • وكلفت فصيلة الرأس بأخذ شكل «مروحة» للتفتيش عن العدو واخذ الحيطة والحذر • وما ان اقترب الكشافون من حدود قرية النيحا حتى سمعوا صوتا من بين الصخور والاشجار الكثيفة ، يهيب بهم ان يعودوا الى مراكزهم قبل ان تبيدهم نيران الشيخ صالح ورجاله •

كان الشيخ صالح ، قد تمركز في دغل من اشجار الزعرور ، تحيط به الصخور العالية ، ويشرف اشرافا مباشرا على السهل كله • وقد تسلح مع رجاله الخمسة ببنادق قديمة من طراز الماني وعثماني ، ولم يكن لديهم من الذخيرة ما يكفي لقتال ساعة واحدة • غير ان فكرة الثبات حتى النصر او الموت ، جعلتهم يصممون على خوض المعركة مهما كانت النتائج ••

وعندما نقل الكشافون ؛ ويبدو انه كان بينهم من يفهم العربية ـ ما سمعوه الى آمر السرية من الخلف ، رفض هذا الانصياع لتلك النصيحة • وقرر الهجوم على المعقل ، دون ان يعرف بالضبط عدد او نوعية الاسلحة التي يملكها المقاومون • وعلى الفور امر فصيلة الرشاش ان تتمركز وراء مرتفع صغير من الارض ، وتصب نيرانها على الدغل الذي صدر الصوت من داخله • وذلك تمهيدا للهجوم ، الذي كلفت به الفصيلتان الجانبيتان • وبما ان ذخيرة الثوار الخمسة كانت محدودة جدا ، فقد ادخروها للحظة الحاسمة ، ولم يردوا على نيران الرشاش بالمثل ، خاصة وان الرصاص لم يتمكن من اصابتهم بأي اذى نظرا لوجود مانع طبيعي يحول دونهم ودون الرؤية او الاصابة •

وبعد عشر دقائق ، كانت الفصيلتان المكلفتان بالانقضاض ، قد زحفتا

تحت نيران الرشاشات ، ووصلنا الى التخم • وعندها اعطى آمر السرية امره بوقف اطلاق نار الرشاشات ، وبدء الهجوم •• ومن حفرته — على بعد مائتين من الامتار — شاهد القائد الفرنسي ان هجومه باء بالفشل • فقد سقط وراء الصخور اكثر من حضيرة من جنوده صرعى ، وارتد الباقون على اعقابهم لا يلوون على شيء •• غير انه لاحظ بالتجربة ، بان الثوار لا يتجاوزون تعداد اصابع اليد ، وان اسلحتهم فردية وقديمة ، مما حفزه على جمع الصف واستئناف الهجوم • وفي هذه المرة قرر ان يكون الانقضاض من الجوانب •• فقسم فصيلة الرشاش الى حضيرتين ، الاولى ترمي على الجانب الايمن للدغل والاخرى على الجانب الايسر • واتخذ ممن تبقى من جنود سريته تشكيلة ، تكفل له اكتساح الموقف •• غير انه لم تمض خمس دقائق على الانقضاض الجديد ، حتى ادرك انه خسر المعركة نهائيا •• فقد ارتد الجنود متراجعين بشكل فوضوي ، بعد ان تركوا اكثر رفاقهم يتلوون في ارض المعركة ••

خسر الفرنسيون في هذه المعركة ٣٥ قتيلا ، أي ثلث تعداد السرية تقريبا ، وحوالي العشرة جرحى • عدا عن عشرات البنادق وصناديق الذخيرة والمعدات • وكانت هذه المعركة فاتحة لمعارك ، أحمى وطيسا ، واشد ضراما ••

فقد ادرك الفرنسيون ، انهم تجاه رجال لا كالرجال بأسا وعزيمة وقوة ، وان التغلب عليهم ، يحتاج الى مران طويل ، وقوى لا تحصر ، وترتيبات جديدة ، تختلف كليا عما تعارف عليه العسكريون من فنون الحرب الحديثة •

اما رجال الثورة الخمسة هؤلاء ، فما ان نفضوا عن عباءاتهم غبار الارض ، التي كانوا ينبطحون عليها ، حتى وجدوا انفسهم محاطين بجموع

من الفلاحين ـ رجالا ونساء واطفالا ـ اتوا على لعلعة الرصاص ، ليضعوا انفسهم تحت تصرف الثورة المقدسة • وقد ادركوا جيدا بان ذلك السلاح الرهيب ، الذي يهز صوته الجبال ، ويطلق في الثانية اكثر من مائة طلقة وهو الرشاش ، ادركوا انه ما هو غير لعبة صغيرة ، امام بندقية عتيقة بيد ثائر ••

(ب) الثورة لن تموت :

قدر للكفاح الشعبي في سورية ، ان يأخذ من المعركة السابقة بداية لامتداده • فلم يتمكن الفرنسيون من القضاء على الروح الثورية في المهد ، كما كانوا يتعشمون ، بل انهم بوحشيتهم وسوء تصرفهم وتقديرهم ، جعلوا نار الثورة تلهب النفوس ، وتنتقل عبر الجبال والوديان ، حتى عمت مناطق جديدة ، لم تكن في الحسبان • فقد اشتعلت الثورة في جبل صهيون شمال جبال العلويين • كما انتقلت الى تلكلخ الى الجنوب منها •• اما في جبال الزاوية بقيادة نجيب العويد وابراهيم هنانو فقد اخذت ترسخ جذورها بشكل رائع •

وفي جبال العلويين نفسها ، شكلت هزيمة الفرنسيين الاولى ما يسمى بـ « عقدة النقص » لا في نفوس الجنرالات وحدهم ، بل في نفوس اعضاء الحكومة الفرنسية ، وانتقلت منهم الى كل من نصب نفسه وريثا ـ غير شرعي ـ للدول الناشئة • وعلى هذا ، فكان لا بد للاستعمار ان ينقذ هيبته من السقوط في الوحل ، وان يعمل متكاتفا من اجل القضاء على الجبل الذي كان يشكل فوهة البركان المشتعل • واتفق الفرنسيون على استجداء معونة الانكليز بقمع ثورة صالح العلي على ان يشترك الاولون بالرجال والعتاد ، والآخرون بالمؤامرات وحبك الاشراك •• وان يستعملوا مهزلة « نحن اصدقاء العرب » صنارة للصيد في الماء العكر • وكان نشوب الثورات في سورية ، يقلق الانكليز كثيرا ، اولا لخوفهم على ضياع دير الزور ضمن

البلاد ، التي احتلوها عقب انسحاب الاتراك ، وثانيا لخشيتهم من انتقال الثورات الى فلسطين وشرق الاردن والعراق • واخيرا لخشيتهم ان تخرج الثورة الشعبية عن الحدود التي يمكن ان يستفيدوا منها في مساوماتهم مع الفرنسيين • من أجل ذلك لم يتوانوا لحظة واحدة ، عن مد يد المعونة الى اصدقائهم الفرنسيين ، على شكل وساطات ، وتجسس •

فبعد محاولات فاشلة ، ومعارك عسكرية ضارية ، قام بها الفرنسيون لاخضاع الجبل العلوي ، وتكبدوا فيها الخسائر الفادحة ـ في الرجال والعتاد ـ ، قرروا استخدام النفوذ الانكليزي لتحقيق غاياتهم •

وحدث ان وردت الى الشيخ صالح العلي في **٢٥** ايار **١٩١٩** ، رسالة من الجنرال اللنبي مع رسولين بريطانيين • وقد جاء في هذه الرسالة :

« ان الحلفاء الذين قدموا لتحرير سورية من ظلم العثمانيين ، واعطائها الحرية والاستقلال •• (كذا) • لا يلقون منكم التكريم والحفاوة اللائقين• وان موقفكم من القوات الفرنسية يدعو الى الخيبة والعجب •• »

ويبدو ان الشيخ صالح لم يتأثر كثيرا بهذه العواطف النبيلة ، لا لجمود عاطفته ، او سماكة احساسه ، ـ فقد عرف عنه الاعداء قبل الاصدقاء وخلال التحامه مع الفرنسيين بانه كان يتحلى بالصفات العربية التي كان يتحلى بها العرب الاقدمون من نخوة ، وقوة شكيمة ، وعفو عن الاسرى والضعفاء ـ لم يتأثر الشيخ بتلك الرسالة ، لانه كان يعلم بأن « الحرب خدعة » • وكانت الرسالة تطلب من الشيخ ، ان يسمح للجيش الفرنسي المرابط في القدموس ، ان يعود الى طرطوس مارا بقرية الشيخ بدر • وان يلبي رغبة العدو بالتوقف عند القرية للاستراحة والتزود بالماء • وكان من الطبيعي ان يرفض الشيخ هذا العرض • ولكن ، ومهما كانت الاعتبارات ، فقد اضطر في النهاية ان يوافق على شروط ، منها : الا يتوقف الفرنسيون في الشيخ بدر غير ساعة واحدة ، والا ينصبوا خيمة او ينزلوا حمولة •• وكانت المعركة الكبرى ••

(ج) المعركة الكبرى :

كانت قلعة القدموس ـ وتقع في السفوح الغربية لجبال العلويين ـ عبارة عن أثر قديم ، شيد على شكل حصون يصعب اختراقها ، بناها الامراء الاسماعيليون منذ مئات السنين على صورة ابراج دائرية ذات فتحات ، ليلتجئوا اليها عند غارات العدو ، ويتخذوا منها حصونا دفاعية • وهي ـ بحكم موقعها فوق قمة جبل ـ محاطة باطرافها جميعا بوديان سحيقة ، يستحيل الوصول اليها أو اختراقها الا عن طريق ممر ضيق ، يسهل الدفاع عنه ، بجعله هدفا دائميا للنار ••

وبما ان القيادة الفرنسية استطاعت ان تحتل هذه القلعة الفارغة منذ الايام الاولى لنزولها في الشواطيء السورية ، فانها خشيت ـ عند استعار نار الثورة واشتداد ضرامها ـ ان يعمد الثوار الى محاصرتها ، وقطع المؤونة والامداد عن حاميتها الفرنسية • وقد حدث فعلا ما خشيته القيادة ، ليس مرة واحدة بل مرات كثيرة • حتى ان حاميتها في بعض الظروف اضطرت ـ بعد ان نفذت ذخائرها ـ ان تدافع عن نفسها برؤوس الحراب وبصناديق الذخيرة الفارغة • وكانت الرشاشات الاربعة المنتصبة على الابراج ، لا تفتر لعلعتها طوال الليالي والايام •• مما جعلها على الدوام تستهلك ذخيرة الشهر كله بيوم واحد•

وفي صبيحة المعركة الكبرى ، كانت فئة من المجاهدين ، تفترش العشب وسط دغل في واد يقع تحت اقدام البرج الغربي للقلعة ، يعانق افرادها بنادقهم منتظرين اللحظة الحاسمة لاقتحامها ، والقضاء على حاميتها • وكان الدغل الذي يكمن فيه الثوار هو أحد الادغال الواطئة الكثيفة المنتشرة على طول السفوح حتى تصل الى أعماق الوديان • ورغم ان الوقت كان قد جاوز الصباح ، الا ان الشمس ظلت محجوبة عن الرؤيا • كان بعض الرجال ينظفون سبطانات بنادقهم بحبال ذات رؤوس حديدية • وبعضهم الآخر ،

كان يأخذ اغفاءة قصيرة ، بعد ليلة قضاها ساهرا متربصا متجولا حول الحصن • وفجأة سمع من طرف قريب اصوات رجال عكرت صفو السكينة المهيمنة • واقتربت الاصوات شيئا فشيئا حتى وصلت الدغل • ورفع الثائرون رؤوسهم ليجدوا احد رسل صالح العلي يحمل أوامر على غاية من العجب واللامعقولية • كانت الاوامر تنص على ترك المنطقة المحاصرة ، والارتقاء الى رؤوس الجبال • وعندما استفسر المجاهدون عن الاسباب ، اجاب الرسول باختصار : بأن الشيخ قد سمح للفرنسيين المحاصرين ان يعودوا الى وحداتهم في طرطوس دون ان يتعرض لهم احد بأذى • وتجمع الثوار حول الرسول يريدون الفتك به ، لولا ان لحقته جماعة أخرى أكدت هذه الاخبار • وأعلنت ان رسالة وردت من الجنرال اللنبي ترجو من الشيخ صالح – خدمة للانسانية وللشرف العسكري ، وللمرة الاولى والاخيرة – ان يعفو عن افراد الكتيبة المحاصرة • واسقط بيد الثوار ، وبانت على وجوههم سيماء الخيبة والمرارة وعدم التصديق • ثم أخذوا يرتقون الجبال •

كانت الجبال التي تسلقها الثائرون ، تطل على قرى الشيخ بدر والرستن ووادي العيون وقرى أخرى • وعلى البعد كانت رؤوس الهضاب والتلال ، تبدو كحلم أثداء سمراء لامعة منتشرة في كل مكان • ومن بينها كانت الوديان الخضراء والمسارب الضيقة ، تتشابك مع بعضها تشابكا يصعب على العين متابعته • ولم يفطن الثوار الى ان الشيخ صالح العلي كان بينهم ، الا بعد مدة طويلة ، وذلك عندما أخذ يتحدث بنبرته المعهودة ويشير بمنظاره نحو الغرب • وتطلعت الجماعات الى حيث يشير ، فسرت على الفور همهمات وغمغمات مكظومة تحولت الى هرج ومرج • وسمع احد اعوان الشيخ صالح يقول : « انهم يتقدمون نحونا » واضاف آخر : « انهم يربون على الالوف » • ورفع الشيخ منظاره الى عينيه وراح يجيل عدستيه في الافق الغربي •• واستطاع الرجال بالاعين المجردة ، ان يلمحوا أعدادا هائلة

تشبه النمل تزحف على التلال ناحية الشرق بارتال طويلة ، وهي تتخذ تشكيلات شطرنجية •

لا يعلم مدى تواطؤ الفرنسيين مع الانكليز في هذه العملية التي اسماها الشيخ صالح العلي غدرا ، الا أن الذي حدث بالضبط ، هو ان الجنرال الفرنسي ـ قائد القوات الفرنسية في طرطوس ـ استغل كلمة الشرف العسكري من ناحيته والتقاليد العربية من ناحية الشيخ ، ثم قرر الاستفادة من فرصة انشغال الثوار بمراقبة الكتيبة العائدة من القدموس ليضرب ضربته ، ويقضي على الثورة قضاء مبرما ••

وقد أعد لهذه الغاية خطة كبيرة ، مستعينا بكل القوى الموجودة في الساحل ـ من اللاذقية الى طرابلس ـ • فقد جمع ما يقرب من ثلاثة الوية من المشاة والخيالة والقناصة ، وقسمها الى سرايا مختلطة من فرنسيين وجنود مستعمرات • وهذا تكتيك ، قلما عمل به الفرنسيون قبل الآن • ولعل الجنرال خشي من حدوث تصدع في صفوف قواته ـ نظرا لصعوبة الارض وتجلد رجال الثورة ـ • وقد دعم هذه الالوية الثلاثة ، ببطاريتي مدفعية ثقيلة من عيار ٧٥ ، مع سريتي رشاش هوتشكيس • وادخل الهاون طراز ١٧ لاول مرة في هذه المعارك •

وما ان وصلت طلائع الحملة الى الروابي المطلة على الشيخ بدر والقرى المجاورة لها ، حتى اتخذ احد الالوية وضعا دفاعيا ، بان انبطح افراده على الارض ، وراحوا يحفرون مساند للمدفعية ولانفسهم ، بينما اتخذ اللواءان الخلفيان ترتيبا هجوميا على خطوط مستقيمة ومترادفة • وفي هذه الاثناء ، كانت كتيبة القدموس قد وصلت الى الموقع ، فافرغ لها مكان في القلب ، لتساهم في المعركة • وقد وضح بصورة جلية ، بان الفرقة قد اتخذت تدابير احتياطية ، تكفل لها الاتصال الدائم مع مقراتها في اللاذقية

وبانياس وطرطوس • اذ راحت ارتال البغال والعربات تمضي وتعود دون توقف في نقل المؤن والذخائر •

كان كل ذلك يجري والثوار في الجبال ، يحرقون الارم ، ويضغطون على اسنانهم ، منتظرين رفع راية الهجوم التي كان الشيخ صالح قد ادخر رفعها الى اللحظة المناسبة •• وقد صدرت من بعضهم الآخر طلقات هوائية صيحات النخوة والهجوم ، كما صدرت من بعضهم الآخر طلقات هوائيـة تعبر عن الغضب ونفاذ الصبر ، الا أن الشيخ ظل يوصي بالتروي وضبط النفس ، حتى يعرف خطة العدو ، ليضع مقابلها الخطة المناسبة والمجدية ••

وفي تمام الساعة العاشرة من الصباح ، بدأت المدفعية بالعمل • انطلقت القذيفة الاولى ، فسقطت على بعد امتار من التخم الغربي لقرية شيخ بدر • وبعد عدة قذائف ذات ابعاد زمنية ، تم احكام الرمي على قلبها بطريقـة مباشرة • ثم بدأ القصف من قبل البطاريتين معا • وقد لوحظ ان احدى البطاريات ، اخذت ترمي قنابل محرقة على البيوت ، بينما عملت الاخرى ، على حصار القرية بالقنابل المتفجرة •واثر ذلك توضحت خطـة الجنرال للشيخ صالح • كان الهدف ، هو حرق القرى بما فيها من حرث ونسل وانعام ، فمن أراد النجاة من الحريق تلقفته شظايا القنابل عند الاطراف • كما ان الجنرال كان قد قرر ، ان يأمر اللوائين الخلفيين ، ــ بعد ساعتين مـن القصف المتواصل ــ ببدء الهجوم ، واكتساح خطوط القرى والفلاحين التي ستظهر امامهما ، ولن يتوقفـا الا في السفوح الشرقية من الجبال عنـد مصياف • وبهذا يكون الجنرال قد قضى قضاء مبرما على كل حي في بلاد العلويين ••

ومهما كان حظ الشيخ صالح العلي من الثقـافة العسكرية وفنون الحرب ، فانه درس الوضع عن كثب ، وقرر العمل على الفور • كان قد قسم رجاله منذ بدء الثورة الى عشـائر • تعمل كل عشيرة تحت امـرة

شيوخها ، المرتبطين جميعهم بقيادة واحدة ، هي الشيخ صالح واركان حربه ومهما كانت الصفة التي تنطوي عليها هذه التقسيمات ، فانها تعطي نتائج طيبة ومردودا باهرا • نظرا لوجود التنافس البريء بين العشائر ، والفخر الذي يكنه كل فرد منها الى عشيرته • ومن الطبيعي ، ان يولد هذا الفخر لدى الفلاحين حماسا واندفاعا في المعارك ، دائبين ابدا على ان يظل اسم العشيرة ساميا ، مكتسبا على الدوام القابا رفيعة من المجد والسؤدد •

وجد الشيخ صالح بعد نصف ساعة من بدء القصف ، صعوبة كبيرة في السيطرة على رجاله • صحيح انهم نفذوا اوامره واختفوا بين الصخور ، الا أن صياحهم وزئيرهم راح يتعالى وهم يرون القرى من الاعلى ، تحترق وتفجر تحت سمعهم وابصارهم ، بما فيها من النساء والاطفال والبهائم • حتى ان بعضهم فقدوا السيطرة على اعصابهم ، وراحوا يطلقون النـــار جزافا • واستخف الغضب بآخرين ، فانقضوا من الاعالي يتدحرجون بين الصخور ، فائرين مزمجرين •

وبعد ان وضع الشيخ مع رجاله خطة للعمل ، رفع منظاره الى عينيه ناحية القرى المحترقة ، ثم افاد بأن النســاء يعبرن الوديان الشرقية مع الاطفال ، ولا يظن ان هناك خسائر كبيرة في الارواح • ثم عــاد ينصح بالتريث وعدم العجلة التي هي من الشيطان •• واخيرا اعطى اوامره •• « يجب اولا ان نقطع عليهم طريق الامدادات من الخلف ، ثم نحصرهم بين وادي ورور ووادي غنام • وعند حلول المساء ننقض عليهم من جميــع الاطراف • علينا ان نبدأ الزحف من الآن • تتسلل عشيرة المتاورة مــن وادي ورور ، وعشيرة الخياطين من وادي غنام • وتلتقي العشيرتان عنـد السفوح الغربية ما بين عين صفرة والمريقب[1] • وبهذا نقطع عليهم سبيل

---

(١) اسماء قرى في السفح الغربي من جبال العلويين •

الفرار عندما يبوء هجومهم بالفشل الذريع باذن الله • اما عشيرة الرشاونة فستقف امامهم لتمنعهم من التقدم •• هيا يا رجال ولنر همتكم •• »

وعند الظهيرة تماما ، كان رتلان طويلان من الثوار ، وبينهم نساء على رأسهن ام حبابه زوجة الشيخ ، يتسلحون بالبنادق ، ويتمنطقون باجندة الخراطيش ، ويخترقون الوديان متسللين تجاه الغرب ، محدثين ما يسمى بـ « فكي كماشة » •

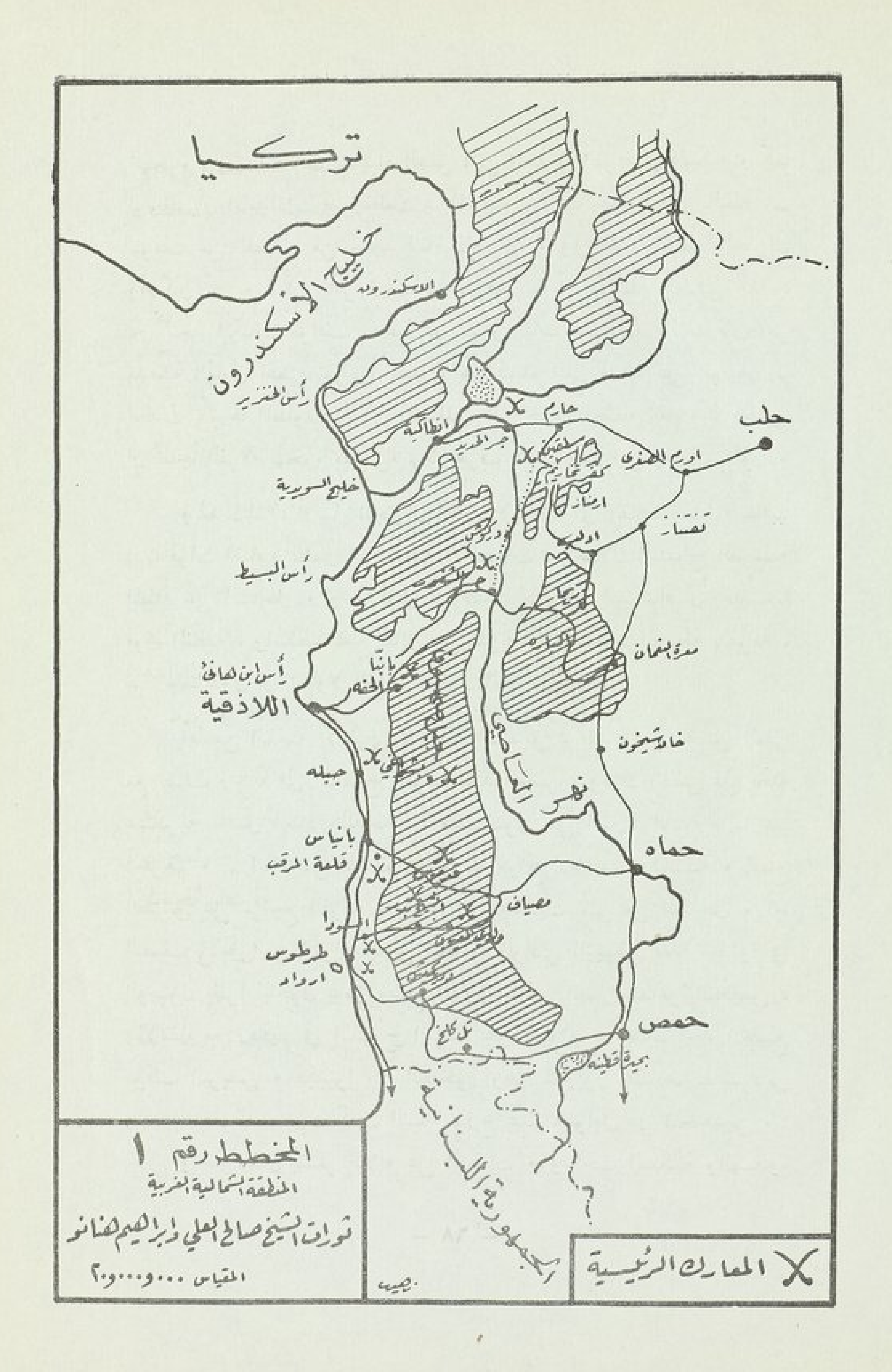
وقد جرت الاحداث بعد ذلك على الترتيب التالي :

في الساعة الثالثة من بعد الظهر انقطع قصف المدفعية ، وبوشر الهجوم من قبل احدى كتائب القناصة • ولكن فئة من الثوار لا يتجاوز عدد افرادها المائة استطاعت ان تحبط الهجوم الاول • وفي الساعة الرابعة استؤنف الهجوم من قبل لواء كامل ، وقد مهد له رمي متواصل من الرشاشات • استطاع هذا اللواء ان يتقدم مسافة خمسمائة من الامتار ، حيث تراجع المدافعون ، وربضوا في احد الوديان العرضانية ، وتمكنوا من دحر القوة المهاجمة •

في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة ، أعطى الجنرال الفرنسي أوامره على ان يستأنف الهجوم من الجوانب • وبعد عشر دقائق وردته اخبار ـ حملها اليه بعض الكشافين ـ بأن هناك حركة مريبة تجري في الوديان المحيطة بالفرقة •

في الساعة السادسة ، باشرت مدافع الهاون قصفها على الوديان ، ولكن الثوار الذين كانوا يتسللون فيها ، استطاعوا تجاوز المنطقة المقصوفة بسرعة ، مما جعل الخسائر بينهم لا تتجاوز الخمسة جرحى •

وعند غياب الشمس ، كان اللواء الذي يشكل رأس الفرقة ، قد فشل للمرة الثالثة باقتحام رصيف المرتفعات المحيطة بقرية الشيخ بدر ، مما حدا بالجنرال ان يستدعي كتيبتين من اللواء الاوسط ، لتدعما تشكيلة



تركيا
خليج الاسكندرون
الاسكندرونة
رأس الخنزير
انطاكية
حارم
حلب
خليج السويدية
رأس البسيط
رأس ابن هاني
اللاذقية
جبله
بانياس
قلعة المرقب
طرطوس
ارواد
مصياف
حماه
حمص
معرة النعمان
خان شيخون
نهر العاصي
تل كلخ
بحيرة قطينة
المخطط رقم ١
المنطقة الشمالية الغربية
ثورات الشيخ صالح العلي وإبراهيم هنانو
المقياس ٢٠و٠٠٠و٠٠٠
المعارك الرئيسية

الهجوم ، وبهذا ضاقت تشكيلة العمق التي اتخذتها الفرقة في البداية • كما لوحظ بأن الامدادات قد انقطعت عن الوصول ، مما جعل احدى البطاريات تتوقف عن القصف من جديد لنفاذ ذخيرتها • وفي المساء اضطر الجنرال وأركان حربه ، ان يأمروا ضباط الفرقة بتبديل تشكيلة الجيش كله ، بأن تتخذ الكتائب مواقف دفاعية على شكل نقاط استناد • وذلك لان آمر مدفعية الهاون اعطى تقريرا يفيد ، بأن قنابله التي قذفها على الوديان لم تحدث تأثيرها المطلوب ، لان المتسللين قد اختفوا اختفاء تاما • ، فخشي ان تفاجأ الفرقة بهجوم مفاجيء ، لا يعرف كيف ومن اين ومتى سيكون •

وبعد ذلك ، أرسل الجنرال اشارة لاسلكية الى القيادة العليا ، يطلب اليها قوات اضافية لتعمل على تغطية الانسحاب ، باحتلال السفوح الغربية المطلة على الساحل • وبعد قليل ، وصلت طائرتان استكشافيتان حلقتا فوق المنطقة ، واسقطتا بضع قنابل على المرتفعات المشجرة المحيطة بالفرقة ، ثم رجعتا دون ان تحاولا العودة لحلول الظلام •

أما من الناحية الاخرى ، ناحية الصديق ، فقد وصل حسن العلي مع نصف رجاله الى السفوح الغربية بعيد العصر ، وهناك انقض على قافلة عسكرية تحمل العتاد والذخائر ، فاستولى على المؤن واباد رجالها عن آخرهم • ثم اتخذ من المرتفعات الغربية مواقع دفاعية محكمة • لقطع الطريق على تراجع الفرقة ، ولصد أي امدادات تأتي من الساحل • أما النصف الاخر من الثوار الذين اتخذوا الوادي الشمالي فقد تأخروا في الوصول نظرا لدخول عامل مدافع الهاون • غير انهم استطاعوا التخلص ، والالتقاء مع رفاقهم في السفوح الغربية عند الظلام • وهناك اخذ الجميع موقف التربص • فكمنوا بين الصخور وهم يتناولون عشاءهم ـ سردين ولحما محفوظا ـ حيث كانت النساء توزع غنائم القوافل على المجاهدين •

واخذ الليل ينشر ظلاله على الهضاب • وراحت السكينة والهدوء

المحفوفين بالتوتر الشديد ، يعمان الكون بأسره • وعلى صفحة السماء الداكنة ، التي بدت مجوفة واطئة ، اخذت تتراءى نجوم باردة ، ترقص بتوفز ، على الحان اصطخاب الامواج البعيدة • وكان الثوار في مكامنهم يتشبثون بأسلحتهم وهم يحصون كل حركة او نأمة • مستعدين كل الاستعداد لحرق الارض والسماء •

وفي ساعة ما من ساعات الليل ، وعلى غير انتظار ، اضاء الكون شهاب أزرق اللون ، انطلق من وسط الوديان ، ارتفع عاليا ثم سطع سطوعا مباغتا ، قبل ان يذوي ويهوى الى الاعماق • ثم تصاعد من جميع الارجاء ضجيج هائل • وساد الليل والجبال ارتباك غامض • وهتف صالح العلي بنبرة عالية ، يخبر الثوار بأن الاشارة التي رأوها هي اشارة الانسحاب ، وحضهم على التيقظ والثبات •• كما انه نصح من يملك في بندقيته حربة ان يركبها ، ليكون جاهزا للقتال بالسلاح الابيض • وكان هناك الكثيرون من سعيدي الحظ الذين يتسلحون بالسيوف والخناجر •

عند اعطاء اشارة الانسحاب ، لعلعت على طول الجبهة انفجارات الرشاشات الثقيلة ، في حين أخذت نيران بنادق مقابلة ترد على الرشاشات بالمثل • وكما يسري اللهب في الهشيم ، اخذت النار تستعر في كل الجوانب وعلى طول الوديان • وعلى نورها الارجواني ، كانت أشباح الفرنسيين تقفز في الهواء وكأنها ترقص رقصة النار على تصفيق الانفجارات الثاقبة المنبعثة من كل مكان • وراح الصياح يتعالى برطانة وذعر وهياج ، وبخليط من اللغات ، في حين اخذت لعلعة الرشاشات تتباطأ ، حتى سكنت نهائيا •

كانت آخر خطيئة ارتكبها الجنرال الفرنسي ، هي اطلاق الشهاب الازرق • كان جنود الفرقة يستطيعون الدفاع عن انفسهم لو ظلوا بمكانهم متمسكين بالارض على شكل قلعة او قلاع محصنة • فقد ظن انه يستطيع المحافظة على هذه التشكيلة اثناء عملية التراجع ، غير ان اطلاق الرشاشات

قبل بدء العمل لتغطية الانسحاب ، كان فاشلا . أو بالاحرى ، كان ايعازا للثوار بالتنبه وبدء الهجوم .

وبعد عشر دقائق فقط من بدء الانسحاب ، وجد الفرنسيون انفسهم : أولا مطاردين من الخلف بالجماعة التي كانت تقف موقفا دفاعيا . وثانيا مجابهين من الامام بنيران كثيفة مؤلفة من الجماعة التي تسللت عبر الوديان لتقطع دونهم سبيل الفرار . وكان نصيب الجماعة الثانية من مهمة الافناء بالغ الصعوبة . لانهم فوجئوا بالجند يندفعون نحوهم كالقطيع الهائج الهارب من ذئاب جائعة . فوقعوا بين الاقدام المتواثبة الهائمة على غير بصيرة أو هدى ، المتدفقة كالسيل صفوفا طويلة مبعثرة ليس لها أول من آخر ، يلاحقها الموت ويحيق بها الفناء من كل جانب .

انجلت تلك المعركة عن هزيمة الفرنسيين هزيمة غير منظمة . ويعتبر العسكريون ، أن الفوضى في التراجع أسوأ كثيرا من الهزيمة نفسها ، وذلك لان الخسائر فيه ، سواء كانت مادية أو معنوية تكون على غاية من الفداحة . وهذا ما حدث فعلا . فقد خسر الفرنسيون في تلك المعركة أكثر من ثمانمائة ما بين قتيل وجريح . وحوالي ستة عشر أسيرا بين جندي وضابط ورقيب . أما مقدار الاسلحة والمعدات والذخائر التي حصل عليها المجاهدون ، والتي ظلوا يجمعونها في أرض المعركة أياما كثيرة ، فلم يكن يجمعها حصر . وبالمقابل خسر المجاهدون بعض الشهداء كان من بينهم بعض النساء ولكن الخسارة لم تتجاوز واحد الى مائة بالنسبة للعدو .

وكان هذا النصر الرائع المبين ، فاتحة لمعارك وانتصارات متوالية وجديدة . فقد اصيبت العنجهية الفرنسية في الصميم . فراحت على الاثر تكيل الضربات من كل جانب . ولكنها ظلت كالاعمى الذي يصارع الهواء ، لا ترى أو تلمس شيئا . أما من الناحية الاخرى ، فكان لهذه

المعركة آثارها العميقة والبعيدة • وكان ربحهـا المعنوي والادبي ، أقوى أثرا من الربح المادي وقد نبهت رجال الثورة الى حيل الحرب وخدعهـا ومكرها • كما انها أهابت بالكثير من الرجـال ان ينضموا الى صفوف الثورة ، وراحوا يتدربون على القتال واستعمال السلاح الذي صار يوزع عليهم من الغنائم والهبات التي يقدمها القادرون على الدفع • ومنذ ذلك الحين ، اشتد ساعد الثورة ، واخذت شكلا تنظيميا دقيقا • في حين كانت استخبارات الفرنسيين تنقل اليهم بالتوالي اخبار تفاقم الثورة ، وانخـراط الكثيرين في صفوفها •

وعلى الاثر خيم على مناطق الثورة هدوء وتوفز من الجانبين • وكان هذا الهدوء شبيها بالسكتة التي تسبق العاصفة • ولكن هذه الفترة القصيرة من حبس الانفاس ، لم تكن لتخلو من مناوشات واستفزازات ، كانت تقع في أماكن متفرقة من مناطق الثورة • وعلى كل حال ، فقد ظل الثائرون ، يرقبون الاوضاع بدقة وحذر منتظرين بفارغ الصبر ، هجومـات فرنسية جديدة ، ليحققوا على اثرها انتصارات ستبقى خالدة الى الابد في سـجلات التاريخ السوري العربي الحديث •

(د) صمود الثورة وتطوراتها :

حاول الفرنسيون من جديد حرق جبال العلويين والقضاء على كل حي فيها ، واعدوا لذلك حملة جديدة بدأوها باستعادة قرى الاسماعيليين ، مخترقين الجبهة عن طريق وادي الاسماعيلية الذي يجري فيه النهـر المسمى باسمه • وكان احتلال قرية عقر زيتي والقرى التابعة لها ، يشكل تهديدا مباشرا لجناح الثائرين اليساري •

وفي نفس الوقت الذي كان فيه الفرنسيون يدخلون الرعب في قلوب سكان الجبال بمعاملاتهم الوحشية ، وباقتناص المارة وذبحهم ، أو أسرهم وتعذيبهم ، كان الثوار يعدون العدة لهجوم مضاد ، لاجلاء المحتلين عن

المراكز التي احتلوها في المناطق الاسماعيلية • وقد استطاعوا بعد معارك عنيفة ، ان يحرزوا تفوقا باهـرا بالبداهة والشجاعة والالتحام ، مما اضطر الفرنسيين ان يجلوا عن المناطق الاسماعيلية ، بأجنحة متكسرة ، وهـم يجرون أذيال الهزيمة والخيبة المريرة •

ولجأ الفرنسيون بعد ذلك الى وسيلة جديدة من وسائل قمع الثورة ، وهي " طلب الصلح " واجراء المفاوضات ، وجندوا من أجل هذه الغايـة بعض الوسطاء من العرب والانكليز • ولم يشأ الشيخ صالح العلي ان يرفض هذا الطلب ، بل وافق عليه على أساس أن يرخي الحبل الى أقصى مدى • وقد وافق على اجراء مفاوضات الصلح بالشروط التالية :

أولا ـ أن يوافق الفرنسيون على ضم الساحل الى الدولة السورية ، وان يجلوا عنه بقواتهم جلاء الى غير رجعة •

ثانيا ـ اطلاق سراح الاسرى من الثوار •

ثالثا ـ دفع التعويضات الى السكان مقابل الاضرار التي لحقت بأرواحهم وممتلكاتهم •

وقبل الفرنسيون بهذه الشروط دون قيد أو شرط • وطلبوا تعيين مكان وزمان لاجراء المشاورات • وأبدى الشيخ صالح استعداده للاجتماع بالمفاوضين الفرنسيين ، على أن يتم الاجتماع في موقع الشيخ بدر ، والا يتجاوز المفاوضون أربعة أشخاص ، وان يكونوا عزلا من السلاح • وبعد مداولات طويلة بين القيادة الفرنسية والوسـطاء ، تظاهر الفـرنسيون بالموافقة على شروط قائد الثورة ولكن وهذا ما كان يتوقعه القائد ، حنث الفرنسيون بمطاليبهم • فقد ظهر انهم يمدون يدا للمصافحة ، ويخبئون باليد الاخرى خنجرا مسموما • اذا انهم ما ان لاحظوا هدوء الاحوال ، وانسحاب رجال الثورة من القرى الاسماعيلية ، حتى راحوا سرا يعدون حملة جـديدة لاستئناف القتال على اوسع نطاق • وقد تمكنوا من دعم قواتهم في القدموس ،

واحتلال القرى البعيدة نسبيا عن مركز الثوار ، واخذوا بحرق هـذه القرى وقتل واعتقال سكانها الآمنين • وقد وجد الفرنسيون ان افضل طريقة للقضاء على الثورة ، هو تحويل جيوشهم الى عصابات للقتل والتدمير، وبث الرعب والفوضى في نفوس الآمنين من السكان •

ومنذ مطلع عام ١٩٢٠ كان الحال قد انقلب تماما • انقلبت اعمال الجيوش الفرنسية الى اعمال عصابات ، وتطورت تنظيمات رجال الثورة حتى أصبحت جيشا حقيقيا ، لا ينقصه التنظيم وتسلسل القيادة والانضباط ، بل ينقصه الاسلحة الثقيلة والدولة التي تحتضنه • وباشر الشيخ صالح ترتيباته للقيام بهجوم عام ، مزمعا ان يأخذ زمام المبادرة من يد العدو ليضعه بيد الثورة • ووضع خطة محكمة للهجوم على طرطوس مركز القوات الفرنسية في الساحل ، ومحاصرة الكتائب الموجودة في القدموس ، والتي كانت تشكل اسفينا في قلب الجبال الثائرة •

وفي صباح العشرين من شباط ١٩٢٠ ، بدأ جيش الثورة هجومه العام • قسم الشيخ صالح جيشه الى كتائب مختلطة بين خيالة ومشاة • ووضع على رأس كل كتيبة قائدا ومساعدين ، وقد اسمى ذلك القائد « عقيدا » • وكان سلاح الكتائب الثورية هو البنادق المختلفة النوعيات ـ المانية وعثمانية وانكليزية وفرنسية ـ ، مع بعض الرشاشات التي غنمها الثوار اثناء الحملات الاولى ، وتمرن على استعمالها بعض المجاهدين فأصبحوا رماة عليها • أما حملة السيوف والاسلحة البيضاء فقد شكل منهم مفارز صغيرة تصحب الكتائب لتقوم مقام مفارز التنفيذ عند الاغارات والالتحام والقتال القريب • وفي الواقع كانت خطة الشيخ صالح لاحتلال طرطوس تتناسب مع طبيعة التنظيم ، ونوعية السلاح الذي يستخدمه المهاجمون • فباعتبار ان الجيش الثوري كان ينقصه المدفعية والطائرات والآليات ، هذه العناصر الضرورية للقيام بهجوم عام ، فقد اضطر ان يقصر هجومه على عملية ، أشبه ما تكون بعملية الاغارة ، التي تعتمد على الكر والفر ، خاصة وان العدو كان يمتلك

هذه العناصر الحربية مجتمعة مضافا اليها الاسطول البحري المرابط في المياه على السواحل •

وفي الساعة الرابعة من الصباح ، فوجئت المدينة باقتحام الثائرين من أطرافها الثلاثة : من الشمال والشرق والجنوب • وبوغت الفرنسيون بأنهم محاصرون في ثكناتهم الواقعة في الطرف الجنوبي من المدينة • فدارت المعارك حول الثكنات من الصباح حتى الظهيرة ، حيث استطاعت كتيبتان من كتائب الثورة اجتياز خطوط الاسلاك الشائكة ، واختراق الثكنات عند طرفها الجنوبي • وبدأت مفارز السلاح الابيض عملها في رقاب العدو الذي ارتد مذهولا الى الداخل حيث لم يبق أمامه غير البحر •• ولكن لم ينتصف النهار ، حتى كان الاسطول الفرنسي قد دخل المعركة •

بدأت مدافع الاسطول الثقيلة تلقي حممها على مداخل المدينة حيث كانت تتوزع فصائل الثوار ، ففصلتها عن المقدمات التي كانت مشتبكة عند الاسلاك الشائكة في معارك حياة أو موت • ثم اخذت القنابل تقترب من الداخل ، فحصرت كتائب الثوار بين نارين : نار الاسلحة الرشاشة ومدافع الهاون والمصفحات من الامام ، وقنابل الاسطول من الخلف •• ثم شرعت الزوارق بانزال سرايا البحارة من شمال وجنوب المدينة ، حيث حوصر الثوار من جميع الجهات ، وبدأت تجري ضدهم حركات الالتفاف•

وعلى الفور أعطى الشيخ صالح أوامره بتبديل الخطة : ايقاف الهجوم ،والعمل بمبدأ الدفاع المتحرك ، أي التراجع مع اطلاق النار للحماية ومنع المطاردة •

وبذلك لم تنقلب هذه المعركة الى هزيمة ، بل انقلبت الى نصر • واذا كانت قد حققت غاية فانها استطاعت ان تعطي النتائج التالية :

أولا ــ ايقن الفرنسيون ان بقاءهم في السواحل العربية لا يعني أن الارض ثابتة تحت أقدامهم •

ثانيا ـ اضطروا الى تجميد نصف قواتهم بصورة دائمية لتكون جاهزة للدفاع عن مراكزها ٠

ثالثا ـ بلبلة روح الاطمئنان في نفوس المحتلين ، وخشيتهم الدائمة من حدوث الاغارات المفاجئة ٠

أما من ناحية الصديق ٠ ، فعدا عن المكاسب المادية التي حصلوا عليها ، فقد شحنت هذه العملية نفوسهم ، بشعلة قوية من روح العزيمة والقوة واستمرار النضال ٠

وبعد شهر واحد ، اي في الثالث من نيسان ، زحف الثوار الى القدموس ، مغتنمين صدى الذعر ، الذي خلفه هجومهم على طرطوس ، فحاصروا القلعة من جديد ، وارسل الشيخ صالح انذارا الى حاميتها بوجوب الاستسلام او الفناء ٠ ولم يستجب قائدها الى الانذار الا بعد أيام عندما نفذت ذخائره واشرف عساكره على الهلاك ، من جراء انقطاع المياه والمؤن عن الوصول اليه ٠ فاستسلم مع كتيبته واسلحتها الى رجال الثورة دون قيد او شرط ٠ وكان لاحتلال القدموس من قبل الثوار ، صدى كبير في جميع الاوساط ٠ ففضلا عن انه حمى ميمنة الثورة ، بالقضاء على ذلك الجيب الخطير فيها ، فانه كفل للثوار ان يسيطروا سيطرة كاملة على مدينة بانياس وقلعة المرقب ، ومهد للهجوم عليهما بعد ذلك ٠

وما ان هل ربيع ١٩٢٠ حتى كانت الثورة قد اتسعت الى الشرق ووصلت فروعها الى المدن السورية الوسطى ٠ فقد تشكل في حماه لواء من المجاهدين ، يضم في صفوفه رجالا من جميع الطوائف : من حماه وحمص وجميع مدن وقرى الساحل ٠ وبهذا اصبح لرجال الثورة قاعدة يستندون عليها ، وتعمل على حفظ وسلامة المؤخرة عند عمليات القتال ٠ في حين كان الفرنسيون يعملون على اجراء ترتيبات جديدة ، واستجلاب قوات واسلحة للخلاص من مشكلة الثورة ، قبل البدء باحتلال سورية

احتلالا عسكريا تنفيذا لمقررات سان ريمو • خاصة وان مشاريع وزارة الدفاع الفرنسية ومخصصاتها المالية قد دخلت في طور التنفيذ •

واستأنف الفرنسيون هجماتهم على منطقة السودة ـ ١٥ كيلو مترا شرقي طرطوس ـ ليفتحوا منها منفذا الى معاقل الثورة • واستخدموا بذلك فرقتين كاملتين ، معززتين بالدبابات وفوجين من المدفعية الجبلية • وكان رد الفعل عند الثوار مخالفا للخطط التي كانوا يتبعونها في السابق • فقد اتبعوا عمليات الهجوم المضاد عوضا عن الدفاع • وذلك تبعا للمبدأ القائل « ان الهجوم خير وسيلة من وسائل الدفاع » • خاصة وان عمليات طرطوس ، كشفت أمامهم طريقا لاتباع أساليب جديدة ، اكتسبوها بالممارسة والمران •

(هـ) معارك السودة ومضاعفاتها :

كانت الكتائب الثورية قد اتخذت مواقعها على التلال المجابهة والمشرفة على الجيش الفرنسي ، المعزز بجميع صنوف الاسلحة • وقد اتخذ الجيش الفرنسي تشكيلة هجومه على اساس تعاون جميع الصنوف • من اجل هذا كان ترتيبه معززا تعزيزا يكفل له القيام بجميع المهمات ، بما فيها مهمة الدفاع • أما الكتائب الثورية كما هو الواقع ، فكانت مفتقرة الى كل ما يكفل لها التمهيد والستر لعملياتها الهجومية • وعلى هذا ، فقد كان هجومها مكشوفا • وكان على المهاجم ان يظل معرضا لنيران وانظار العدو مسافة طويلة حتى يصل الى هدفه ، وذلك اذا قدر له ان يصل • ومن هنا تنجم الصعوبة المترتبة عن تلك العمليات « الانتحارية » التي تنطبق عليها هذه التسمية تماما •

بدأ هجوم الثوار على المواقع الفرنسية على شكل رأس حربة ، قامت بها كتيبة من الفدائيين الاشاوس • انطلقت من قرية بعزرائيل الكائنة الى الشرق من السودة • ثم تبعتها الكتائب الاخرى على شكل « مروحة » •

وكان الهجوم صاعقا وسريعا بحيث أربك العدو وجعله في البداية لا يعرف كيف يتلافى الهجوم • فأخذ يصب نيرانه في أول الامر على طول جبهة القتال ، مما جعلها تتوزع دون أن تعطي الكثافة النارية اللازمة ، في حين كان الثوار قد اجتازوا المنطقة المقصوفة بالمدفعية ، واصبحوا على بعد كاف ، يسمح لهم باستعمال اسلحتهم الفردية • وكانوا يندفعون في هجومهم الصاعق ، غير مبالين بالنيران المنصبة حولهم وبينهم • وعندما وصلت الطلائع الى بعد قليل من الامتار ، تعرضت كتائب اليسار الى نيران كثيفة حامية ، جعلتها تتأخر في الوصول لدعم الجبهة الوسطى واليمنى • فاستغل الفرنسيون هذه الفرصة ، وقاموا بهجوم مضاد من تلك الناحية • ثم ثبتوا جبهة الوسط ، ليستديروا من الناحية اليمنى ايضا • وهنا وجد الشيخ صالح ، ان الكتائب الوسطى قد اصبحت بحكم المحاصرة ، وان ضراوتها واندفاعها في القتال لم يعودا يعطيان المردود المطلوب ، من اجل هذا أعطى أمره لجميع الكتائب بالتراجع الدفاعي ، اي ان تحمي كل كتيبة تراجع رفيقتها ، حتى تصل الكتائب الى أماكن تمركزها الاول ، لتتخذ وضعية الدفاع • وقد تمت العملية رغم كثافة النيران العدوة والمتنوعة وعملية الهجوم المعاكس على صورة تستحق الاعجاب • فما ان وصلت عناصر العدو الى الخطوط التي تمركز بها الثوار ، حتى انكفأت راجعة الى الخلف ، لتحضر لهجوم جديد •

وفي اليوم التالي بدأت طلائع العدو تنتشر على طول السفوح الغربية ، وتتسلل من الوديان ، ترافقها الدبابات وتحرسها الطائرات ، في حين كانت المدفعية تمهد للهجوم بالقصف المتواصل • وعندما وصل المشاة الى خط الانطلاق ، تلقوا أمرا بالتربص والتريث ريثما تقوم الطائرات باستكشاف خطوط الثوار ، ومعرفة ما اذا كانوا قد ابيدوا عن آخرهم من جراء القصف • وعادت الطائرات لتعطي تقريرها : « لا اثر للعصاة » •

وعندها انطلقت ألوية الجيش الفرنسي لتقوم بمهمة التعقيب والتنظيف • وما ان وصلت الى الخطوط التي كانت عرضة للقصف ، حتى هب الثوار من مكامنهم كالشياطين ، وراحوا يمطرون العدو برصاص البنادق ، والقنابل اليدوية ، وتحولت المعركة بعد ساعتين الى ما يشبه « حرب الخنادق » ثم حدثت الاشتباكات بالسلاح الابيض • واستبسل المجاهدون استبسالا رهيبا في الدفاع عن مرابضهم • وعند المساء اختلط الحابل بالنابل ، وقتال الخنادق ما يزال مستمرا ، وصليل السيوف والحراب يتصاعد بين صراخ الرعب وأنات الجرحى • وما ان طلع صباح اليوم التالي ، حتى وجد ما تبقى من الفرنسيين أنفسهم وحيدين • فقد انسحب الثوار ، منتقلين الى خط جديد من خطوط الدفاع •

وكان الفرنسيون خلال زحفهم ، يحتلون القرى العلوية ، ينهبون منها ما يهمهم ثم يحرقونها على رؤوس سكانها الآمنين • وكان لهذه الوحشية رد فعل هائل في نفوس الثوار • الذين غيروا من تنظيمهم السابق ، واصطنعوا لانفسهم تنظيما جديدا على شكل وحدات صغيرة ، قوية التسليح سريعة الحركة ، تضمن لهم التغلغل في صفوف الفرنسيين الزاحفين ، ومهاجمتهم من الخلف ، وبعد العديد من المعارك والاشتباكات الاسطورية ، من حيث حدتها وجبروتها ، ايقن الفرنسيون انهم لا يستطيعون التقدم في الجبال ، فانسحبوا عائدين الى ثكناتهم ، بعد ان تركوا القرى التي في طريقهم انقاضا على رؤوس النساء والشيوخ والاطفال •

وفي ١٢ حزيران ١٩٢٠ تلقت القيادة الفرنسية في السواحل السورية أمرا من باريس بأن تجمد الوضع في جبال العلويين بالطريقة التي تراها مناسبة ، وذلك نظرا لانشغال الجيش الفرنسي بالتحضير للمهمة الكبرى ، وهي احتلال دمشق • وعملت القيادة على تنفيذ الاوامر على الفور • ولم تجد طريقة لتجميد الوضع الا بطلب الصلح من جديد ، متعهدة بقبول

وتنفيذ مطاليب الثوار بحذافيرها ودون قيد او شرط • ولكن الشيخ صالح العلي ، وقد خبر لؤم الفرنسيين وخياناتهم ، رفض هذا العرض ، واخبر الوسطاء الذين أتوا لهذه المهمة ، بأن الفرنسيين لا يمكن ان يكونوا جادين بأي طلب لصلح شريف ، فضلا عن انه لم يعد يثق بالفرنسيين ولو ارتدوا مسوح الرهبان • وفي الحقيقة ، لا يعلم مدى تواطؤ القيادة الفرنسية في السواحل السورية مع وزارة الدفاع في باريس ، عند عرضهم طلب الصلح • ففي الوقت الذي كان فيه الوسطاء يعملون على اقناع الشيخ بالموافقة ، وردت الانباء عن هجوم القوات الفرنسية على قرية كوكب واحراقها للمرة الثانية ، بعد ان اعيد بناؤها وسكنت من جديد • ويبدو ان عمليتهم هذه كانت عبارة عن جزء من الخطة التي ارتأتها القيادة لتجميد الوضع ، وهي اثارة الوضع ••

وقد أثير الوضع فعلا ، عندما عرف الثوار بأن هناك فكرة مجهولة لدى القيادة اللفرنسية تريد تنفيذها ، من وراء هذه المداورات والمماحكات • فلا هي جادة بطلب الصلح ، ولا هي متنازلة قيد انملة عن اخماد الثورة بأي وسيلة شيطانية • وبما ان حس الثائر لا يمكن ان يخطيء ، فيما يتعلق بسلامته وسلامة القضية التي يعمل من اجلها ، فقد أقدم المجاهدون على احتلال نقطة حساسة ، من نقاط الساحل ، وهي قلعة المرقب • وكان وجود هذه القلعة بيد الثوار ، يعتبر كسبا استراتيجيا لا يمكن تقديره • فهو يقطع الاتصال البري ما بين اللاذقية وطرطوس •

خيبت القيادة الفرنسية أمل وزارة الدفاع في باريس ، فيما يتعلق بتجميد الوضع • فانتقت من بين قوادها « العظام » جنرالا اسمه بولانجيه • وولته القيادة في السواحل السورية • وقد ميزته من بين جميع القادة الفرنسيين بأنه أصلبهم عودا ــ على حد تعبير الحجاج بن يوسف الثقفي ــ• ومن أجل الغاية التي ارسلته لتحقيقها ، زودته بكل الصلاحيات والرجال

والأسلحة والاموال التي تكفل له تحقيق مهمته « السامية والخطيرة » •
واعطته « شيكا على بياض » ، ليصرف ما يشاء ويفعل ما يشاء • وباختصار
أوكلت اليه مهمة الحاكم الاستعماري الذي لا يسأل عما يفعل ، عليه فقط
ان يرسل اشارة الى باريس قبل نهاية تموز تفيد « بأن الاسد قد انقلب الى
هر أليف » ••

وجاء « المروض » العتيد ليبدأ العمل ، وقد شهر بيده سوطا ذا ألف
لسان مسموم • وكان سوطه عبارة عن ثلاث فرق عسكرية ، يزيد تعداد
أفرادها على ٣٠ الفا • مدعومة بكل ما وصل اليه من الشمال والجنوب
والغرب ، من آليات مدرعة ، ومدافع ميدان من عيارات ثقيلة ، واسراب
طائرات ، وقطع بحرية وخبراء عسكريين ، نالوا اوسمة تغطي صدورهم ،
وتبعث في نفوسهم ثقة لا حد لها • ودخل « المروض » الى القفص وبدأ
الصياح والتهديد ، وهو يفرقع بسوطه الطويل •

وكان من جملة ما ادخل الزهو في نفسية الجنرال بولانجيه انه وهو
يتقدم في الجبال مع جيوشه العارمة ، لم يجد مقاومة تذكر • صحيح انه
كان يحرق الاخضر واليابس ، ويتلذذ بقتل الاطفال وبقر بطون النساء ،
الا انه ظل متعطشا الى الدم •• دم الرجال ، الذين سمع عنهم ، بأنهم
يقدمون دماءهم بلا ثمن • ولم يطل ظمأ القائد ، فقد شرب منه كثيرا عندما
وصل بجيوشه الى منطقة وادي العيون •

كانت « معصم » الفرق الفرنسية اغلظ من ان يحيط بها « سوار »
النوار • ومع هذا فقد احيطت القوات الفرنسية بنار البنادق ، وفوجئت
على حين غرة « بأنياب الاسد » الذي رفض أن يتحول الى « هر » ، تنشب
في لحوم رجالها ، وجن جنون الجنرال لولانجيه فراح يصرخ ، ويضغط
على اسنانه ، وتطلع الى سوطه ، فألفاه قد فقد السنته واستحال الى « خرقة
بالية » • وبعد وقت قصير وجد نفسه ، وهو « المروض » العتيد ، قد

أصبح فريسة سهلة للاسد الكبير • أما أوسمة الجنرالات فقد سقطت عن صدورهم ، بعدما طأطأوا رؤوسهم من الخزي والعار ، وتلوثت كلها بالوحول •• وحول الجبال الثائرة ، المؤلفة من تراب ودم ذكي طاهر • واستدعي الجنرال بولانجيه الى باريس ، ولا شك بأن القائد الذي كلف بنزع شاراته العسكرية همس باذنه :

« لقد أمرت بأن انقل اليك هذه العبارة : اذا كنت انت معتبرا من قواد فرنسا العظام ، فبؤسا لهذه الفرنسا التي تمثلها •• »

الفصل الرابع

١ ـ تشكيل ثورة الشمال

« ان ثورة الشمال التي اندلعت شرارتها بين الفلاحين بقيادة ابراهيم هنانو والمدعو نجيب عويد ، جعلتنا نفقد كثيرا من عزتنا القومية ، ومكتسباتنا المادية ٠ فقد كانت حلقة الوصل بين العصاة الاتراك والسوريين ٠ وقد اجبرتنا هذه الحركة العصيانية ، على ترك كيليكيا التي هي الثدي الطبيعي لتغذية مواردنا الفرنسية » ٠

الجنرال غورو

(عن مذكرات المجاهد يوسف السعدون)

كانت معاهدة سايكس ـ بيكو تنص على ان تكون انطاكية وحارم ضمن المنطقة التي يحتلها الفرنسيون ٠ وقد جرى احتلالها فعلا في أوائل عام **١٩١٩** ٠ ولكن المقام لم يكن مريحا ٠ فقد بدأت اعمال المجاهدين من الفلاحين تقض مضجع المستعمرين وتقلق أمنهم ، وتحجب عن عيونهم طعم الكرى ، الذي كانوا يتشوقون للحصول عليه ٠

وفي تلك الاثناء، لاحظ ابراهيم هنانو ان السياسة « لا تطعم خبزا » كما يقول المثل ، فاستقال من المؤتمر السوري الذي كان احد اعضائه المؤسسين ، ورجع الى مدينة حلب ، ليساعد على اقامة ثورة منظمة ، وجدت

بذورها بصورة طبيعية ، بين أهالي حارم وسلقين وارمناز وكفر تخاريم ..
وكان بعض أبطالها نجيب عويد وفلاحين آخرين .

هب هؤلاء الفلاحون في البداية ، لكي ـ كما قال احدهم في مذكراته ـ يجعلوا فرنسا لا تهنأ بالفتح ، ولا تستقر ، فتستقيم أمورها في البلاد السورية، وتتفرغ لتبسط سيادتها عليها ، وتبث أعوانها في كل مكان . وقد ارتأوا بعد التشاور وبحث الامر فيما بينهم ، ان يبدأوا الثورة بتشكيل شرازم قليلة العدد ، سريعة التنقل ، تعمل على بث الفوضى في منطقة الاحتلال الفرنسي ، واشاعة الذعر في نفوس الفرنسيين والمرتزقة من اتباعهم ، وتحول دون دفع الاموال الاميرية الى صندوق الدولة . وتقطع المخابرات السلكية بنزع خطوط واعمدة الهاتف ، وتعبث بالقانون الذي فرضته السلطة المستعمرة ، وتضرب على أيدي الخونة الذين يتعاونون معها ..

وقد شكلت من أجل هذه الغاية ، أول حضيرة من فلاحي قرية كفر تخاريم ، مؤلفة من سبعة رجال أشداء ، عرفوا بالجرأة والحزم والصبر على الشدائد وهم : محمد علي جمعة ، مصطفى ابو درويش ، مصطفى عويد ، علي المغربي ، صالح الشغوري ، عبد الرحيم الافندي ، جميل عباس . وقد سلحوا بالبنادق العثمانية والقنابل اليدوية الفرنسية ، التي أصبحت تتداول بين الثوار لقاء شرائها بالمال من التجار والمهربين . وقد باشرت هذه الحضيرة أعمالها على الفور بحض الاهلين على التمرد ضد السلطات ودفع الضرائب ، واقلاق أمن السلطات بحوادث متفرقة . وقد تمكن أفراد هذه الحضيرة بمدة وجيزة ، من القاء الرعب والرهبة في قلوب المستعمرين ، والمتعاونين معهم على السواء . وأوقفت سير العجلة الحكومية بما وضعته في طريقها من عراقيل وصعاب ، وبما تنشره بين صفوف الموظفين من ذعر واضطراب . وكان نجاح هذه الحضيرة في باكورة أعمالها الثورية حافزا لتقوية الثورة ، وتوسيع رقعتها العملية .

ثم تشكلت على الاثر ، في كفر تخاريم أيضا ، لجنة تشريعية رباعية ، امتاز رجالها بالسمعة الحسنة وطيب الاخلاق والنخوة والشرف • وهم الفلاحون : نجيب عويد ، عزت هنانو ، ابراهيم الصرما ، محمد درويش الكيالي • وقد اخذت هذه اللجنة على عاتقها ، مهمة جمع المال اللازم لتزويد المجاهدين الجدد ، الذين أصبح عددهم أربعين رجلا • ، بالسلاح والعتاد والرواتب • وعندما اعلنت هذه اللجنة عن غايتها النبيلة ، استثارت حمية الاهلين والهبت حماسهم وشهامتهم ، فتقدموا الى الصندوق بالدفع فور الاكتتاب • وقد بلغ ما دفع خلال أربع ساعات فقط ، مبلغ ٥٠٠ ليرة عثمانية ذهبية • وكان هذا المبلغ بالنسبة لبلدة صغيرة مثل كفر تخاريم يعتبر مبلغا كبيرا جدا ، خاصة وان المتبرعين كانوا من الفلاحين • وهذا يدل على ان الروح الوطنية كانت متغلغلة بين الناس بصورة لا تحتاج الى دعاية •

وبعد اسبوع واحد • قسم المجاهدون الى اربع حضائر ، يقود كل واحدة منها فلاح سمي « رقيبا » هؤلاء الرقباء هم : الحاج درغام دره ، محمد علي جمعة ، محمد حسين زهراء ، عبدو حسن زنوب • وكلهم تحت قيادة آمر الفصيلة : عبد الرحيم الافندي ، ثم انضم اليهم عشرة فلاحين من قريةسلقين الواقعة فيمنتصف الطريق بين حارم وكفر تخاريم• وعندما بلغ عدد المجاهدين خمسين رجلا ، قرروا القيام بأول هجوم منظم على الحامية الفرنسية في حارم ، والمؤلفة من سرية مشاة ، معززة بفصيلة هاون وفصيلة رشاش ثقيل هوتشكيس •

وفي الساعة الثامنة من مساء الثامن عشر من نيسان ١٩٢٠ ، انطلق المجاهدون من كفر تخاريم ، ثم مروا بسلقين ، وعندما خرجوا منها ، نظموا صفوفهم الصغيرة على شكل أربعة أرتال كل رتل منها بقيادة آمر

الحضيرة ، وتابعوا طريقهم في الجبال الوعرة ، مبتعدين ما امكن عن الطريق العام •

وكانوا قد اطلعوا جيدا على تشكيلات الدوريات التي كان الفرنسيون يقومون بها في الليل والنهار • وعلى كيفية التنقل التي كانت تمارسها هذه الدوريات • ومن أجل ذلك ، وبعد مسير حوالي ساعة من الزمن ، قرروا ان يتقدموا الى البلدة على شكل دوريات ، تتفرق في البداية ، ثم تلتقي عند مدخل حارم • وهذا الترتيب كان ضروريا في مثل الاحوال التي كانت سائدة ، خوفا من ان يقع الخمسون رجلا دفعة واحدة في كمين عدو ، وان يصطدموا باحدى دورياته المبثوثة في جميع المناطق •



٢ ـ معركة حارم :

كان الكابتين لوروا قائد حامية حارم ، يتمشى على الطريق المحفوفة بأشجار الجوز والمشمش والزيتون ، في منتصف تلك الليلة • وهو يتنفس بارتياح أنفاسا عميقة تضيق خلالها سترته حول صدره • وكانت اشعة القمر الفضية ، تنبعث من قمة الجبل ، وتنفذ خيوطها من بين اغصان الاشجار • ، وتفرش الطريق التي يسير عليها متجها الى الثكنة • وكانت اوسمته الغالية التي حصل عليها من المغرب والهند الصينية ، تبادل أشعة القمر ايماءات لطيفة رائعة • وكان الضابط الفرنسي يحدث نفسه ، اثر سهرة ممتعة قضاها في بيت أحد المتنفذين في القضاء ، بأن كل شيء هادىء في هذه البلاد السحرية ، التي تذكره بما قرأه عن بلاد الشرق الاسطورية• وان لا صحة لما أدخلوه في روعه عندما استلم امرة الحامية ، من انه سيكون عرضة لاعتداءات بعض من اسموهم بـ « المشاغبين والمخربين والارهابيين وقطاع الطرق » ، مما جعله في البداية ، لا يجسر على الخروج من ثكنته الا مدججا بالسلاح ومحاطا بحضيرة كاملة من الجنود • الا انه بعد ان حبر المنطقة ، من وجهة نظره الخاصة ، ادرك ان ما ادخل في روعه لم يكن غير وهم من الاوهام التي لا تستحق الاعتبار • وان رؤساءه الذين زودوه بالخرائط وبقوائم باسماء العصاة ، وبكثير من الارشادات والتعليمات، لم يكونوا غير ضحية لمبالغات لا تستند الى حقيقة من الحقائق •

وراح الضابط الفرنسي يطمئن نفسه : ان اولئك العصاة من أمثال ابراهيم هنانو ونجيب العويد والآخرين الذين يصعب حفظ اسمائهم ،

لن يلبثوا ان يستسلموا ، أو يموتوا بأسرع مما تموت الفراشات على لهيب الشموع • وقفزت الى رأسه صور رجال الحامية الذين يأتمرون بأمرته : انهم جنود نشيطون • فقد تغلبوا عى الارهابيين بعدة اشتباكات كما استطاعوا ان يأسروا طفلة وأمها العجوز فيما كانتا تجمعان الحطب دون حدوث خسائر في الارواح والعتاد • كما انهم نزعوا نهائيا من نفوسهم أوهام الخوف والتبلد ، حينما استطاعت دورية منهم ان تتغلب على فلاح — ضرب أحد أفرادها بالفأس — بعد ان الحقت بجسده خسائر فادحة فقيدته من يديه وقدميه ورقبته ، انها ولا شك شجاعة فائقة اكتسبها خمسة جنود يتسلحون بالبنادق فقط ، بالتغلب على فــلاح يأكل حشيش الارض ويقود رتلا من الجمال •

وفجأة ، وعلى غير انتظار ، حدث ما جعل افكار الضابط الفـرنسي تنقلب رأسا على عقب • فقد تناهت الى اذنيه اصوات اطلاق الرصاص تدوي جنوب المدينة • وفي تلك اللحظة بدلا من ان يسرع نحو الثكنـة لاستنفار الجنود ، الفى نفسه يضيع الطريق • واخذت لعلعة الرصاص تقترب شيئا فشيئا ، ومن بينها كانت هتافات المجاهدين الحماسية تدعو الى الانقضاض • وفيما كان الكابتين لوروا يتخبط في هواجسه ، التقى بزمرة من الجنود ، يتراكض أفرادها في الشارع باحثين عن قائدهم المروع • وفي الثكنة أخبر الكابتن بأن جماعة من الثوار اصطدمت بدورية فرنسية عند تخم البلدة ، ويبدو انها قضت على أفرادها • ثم اتجهت من عدة امكنـة تهاجم الثكنة • وما كاد القائد يستعيد وعيه ويوزع قواته على المرتفعـات المحيطة بالثكنة ، حتى كان صوت جهوري يصيح : يا أهالي حارم لقـد جاء المجاهدون ••

واندفعت حضـائر الثوار الى الثكنة من اطرافها الاربعة • واحـاط الخمسون ثائرا برجال فصائل الاسلحة الثقيلة قبل ان يتمكنوا من تجهيز

مدافعهم الهاون ورشاشاتهم للاطلاق • وهناك جرى التحام بالسلاح الابيض • وبعد معركة قصيرة ، ابيد ٣٢ جنديا من جنود الحامية ، اما الباقون فقد ركنوا الى الفرار ، ملتحقين برفاقهم المائتين المتمركزين في المرتفعات المطلة على البلدة • ووجد الاهالي ان الثكنة اصبحت بيد الثوار ، فاندفعوا من دورهم للحصول على الاسلحة والذخائر ، وفيما كان الفرنسيون في الاعلى ينتظرون مفاجآت جديدة ، كان الاهالي قد انقلبوا جميعهم الى ثوار مسلحين بالبنادق والسيوف والفؤوس والمذاري ، وبكل ما وقعت عليه ايديهم من وسائل البطش ، وزحفوا الى المرتفعات لطرد رجال الحامية وقائدها الكابتين لوروا •

كان ضوء القمر قد حجب وراء الجبال الغربية • ولم يعد رجال الحامية الفرنسية يستطيعون تمييز المرئيات من خلال الظلام الدامس • غير انهماخذوا يدركون ـ بالسمع فقط ـ انهم مهددون بالفناء • فراحوا يطلقون النار جزافا على الصخور وفوق سطوح المنازل • وحاول بعضهم الهرب والافلات من القبضة التي راحت تطبق اصابعها على المرتفعات ، غير ان القائد خشي ان يصبح وحيدا ، او انه لم يشأ ان يمثل امام محكمةعسكرية بتهمة الفشل والتخاذل ، فقمع محاولات الهرب بكل ما يملك من سلطة • ثم جمع رجاله وأمرهم ان يلتجئوا الى القلعة الرومانية القديمة ، الواقعة فوق تلة عالية في طرف البلدة الشرقي • واستمر زحف المجاهدين الى التلال ، باحثين عن آثار العدو ، غير انهم وصلوا متأخرين • وادركوا عند بزوغ خيوط الفجر الاولى ان رجال الحامية قد التجأوا الى القلعة • وهنا حاولوا اقتحامها ، فجوبهوا بالنار تنصب عليهم من الابراج ، وقد استطاع بعضهم التغلغل من دهاليز القلعة الكبيرة المظلمة ، ولكنهم في الصباح اضطروا للخروج ، واقتنعوا بان بقاء « الفئران بالمصيدة » يعتبر ظفرا لابأس به •

وخشي الاهالي من ان تمتد يد النهب والاتلاف الى سجلات الاحوال

المدنية والعدلية والتمليك في دوائر القضاء ، فشكلوا فئة من الثوار لحراسة السراي • وقامت هذه الفئة باستخراج الوثائق وكل ما له علاقة بمصالح الاهلين ، وارسلته الى كفر تخاريم عرين الثورة ، حيث رؤي الاحتفاظ بها حتى الانتهاء من الثورة وتنظيف المنطقة من المستعمرين •

وقد ظلت القلعة محاصرة مدة ٩٥ يوما ، والبلدة بيد الثوار ، رغم النجدات الكبيرة والمتوالية ، التي ما انفكت عن الوصول من الساحل ، مدعومة بالمدافع والدبابات والطائرات • وقد استطاعت هذه النجدات ان تمون المحاصرين بالذخيرة والمؤونة والعتاد طوال هذه المدة ، قبل ان يفاجئها هجومات معاكسة يقوم بها الاهالي والثوار ، فترتد مثخنة بالجراح مخلفة وراءها العديد من القتلى والاسرى والمصابين •

٣ ـ معركة كفر تخاريم :

في الوقت الذي كانت تجري فيه الاحداث في اجزاء المنطقة الساحلية التي احتلها الفرنسيون ، كانت احداث مشابهة لها تماما ، تجري في منطقة قصير انطاكيـة ، حيث اندلعت نار الثورة الوطنية فور احتـلالها من قبل الفرنسيين • وكان ابراهيم هنانو بالاتفاق مع صبحي بركات ـ الذي اسمى نفسه فيما بعد بالخالدي ـ قد ساعدا على اندلاع تلك الثورة ، بمسـاعدة المجاهد الوطني الشيخ يوسف السعدون • وكانت هذه الثورة على اتصال دائم بثورة كفر تخاريم ، تتسلح عن طريقها ، وتدعم بالمال والرجـال • والواقع ان انتفاضة قصير انطاكية لم تكن لتنفصل ابدا عن فكرة او هدف ثورات العلويين والشمال والجنوب ، على اعتبـار ان سكانها كانوا عـربا سوريين ، لا يقلون تمسكا بتقاليدهم وعزتهم القومية والدفاع عن حريتهم عن بقية سكان المناطق الثائرة الاخرى ، كما ان حركات الكفاح الشعبي ضد قوى البغي والطغيان والاحتلال الاجنبي التي قام بها هؤلاء ، وحصاراتهم الدائمة للقوات الفرنسية في ثكناتها في انطاكية وجسر الحديد ، وصدهم لهجمات العدو بجرأة وبسالة ، كل هذا كان خير اثبات لعروبة اهالي تلك المناطق • كما ان الثمن الذي دفعوه من اجل تحقيق حريتهم ، واستقلال وطنهم الكبير سورية العربية ، كان باهظا ولا يمكن تقديره •• كان الالوف من الشهداء والضحايا التي قدموها على مذبح الحرية • ولكن الاستعمار سلب منهم كـل شيء وسلمهم مـع اراضيهم الى الاتـراك بعـد حوالي عشرين عاما •

في اوائل تموز ١٩٢٠ بدأ الفرنسيون ، يحبكون الخطة لاحتلال دمشق • وبالتالي للعمل على خنق الثورات والانتقام من ابطالها الميامين • وأحس ابراهيم هنانو بقرب الساعات العصيبة ، وخشي ان يقبض عليه قبل ان تأتي الثورة كلها ، فذهب الى مزرعته في قصير انطاكية ، للتربص والانتظار • وبقي في مزرعته تلك حتى فوجيء بخبر استسلام مدينة حلب للفرنسيين ، ومن ثم احتلال دمشق اثر معركة ميسلون • وفي الخامس والعشرين من تموز ، تلقى هنانو رسالة غامضة من احد الوطنيين ، يدعوه فيها الى متابعة الثورة ، وينبئه بان احرار البلاد وشعبها لن يقفوا مكتوفي الايدي • عندها استأنف هنانو أعماله من جديد • واوفد الثائر نجيب عويد الى منطقة المعرة لاستقصاء الاخبار ، والاتصال بالاحرار المأمول وجودهم من اجل التفاهم والتعاون معهم • وعاد الثائر بعد جولة قصيرة يحمل التأييد وما استطاع جمعه من المال والسلاح •

وبتاريخ ١٣ آب ، سير الفرنسيون من حلب حملة تأديبية قوامها لواء كامل ، مهمتها قمع الثورة ، والقبض على افرادها المجاهدين • فوصلت الى كفر تخاريم بعد يومين اثنين ، ودخلتها دون مقاومة تذكر ، نظرا لانشغال الثوار في منطقة القصير ووجود هنانو معهم وتقدم آمر اللواء على الفور بطلباته : امر بلزوم مثول جميع اعيان ووجوه القضاء بين يديه ، لتقديم فروض الطاعة والولاء والخضوع للدولة التي يمثلها • وبعدان تم له ذلك ، القى بالمجتمعين خطابا مشبعا بروح النقمة والتهديد والطغيان • ثم امرهم بلزوم العمل على تسليم « العصاة والمتمردين » ، ذاكرا اسماءهم فردا فردا ، في قائمة طويلة • ولما ابجيب بان هؤلاء الثوار ليسوا موجودين في البلدة ، وان احدا لا يعرف من امرهم شيئا ، استعمل القائد الفرنسي سلطته وامر باعتقال عشرة رجال من الماثلين في حضرته • ثم ساقهم معه الى حارم كرهائن ، وأمر بسجنهم في القلعة الاثرية ، التي حوصرت فيها الحامية الفرنسية في المرة السابقة • ولا حاجة الى وصف المعاملة التي لاقاها هؤلاء الاسرى ، اذا عرف بانهم قذفوا

قذفا الى سراديب القلعة الرطبة المظلمة ، ليموتوا دون ضجة ، محرومين من الهواء والغذاء والشمس ، مفتقرين الى ابسط الضروريات التي يحتاجها الانسان لاستمرار حياته • واشترط القائد الفرنسي لانقاذهم استسلام الثوار جميعهم بما فيهم ابراهيم هنانو • وبعد ثلاثة اشهر ، وقد اشرف الرجال على الموت ، دون ان يفوه احد منهم بمكان وجود ثائر ، طلب القائد الفرنسي من أهالي الموقوفين دفع غرامات مالية لقاء الافراج عنهم ، حددها بمبلغ ثلاثة آلاف ليرة عثمانية ذهبية ، تدفع نقدا وعاجلا دون تسويف • وهكذا انقلبت عمليات المستعمرين من اجراءات خطف وتنكيل ، الى اجراءات سلب ونهب وقرصنة •• ولكن عائلات الموقوفين كانت عاجزة عن دفع هذه المبالغ ، اولا لضيق ذات اليد ، وثانيا لثقتهم برجال الثورة • من اجل هذا اضطر القائد الفرنسي ان يتنازل عن مطاليبه ، وان يفرج عن الرهائن بعد ان حصل على قليل من الليرات الذهبية •

وكان ابراهيم هنانو مع رجال الثورة ، قد عادوا من انطاكية الى كفر تخاريم • وعلموا ما كان من امر الحملة الفرنسية واعتقال بعض رجالات البلدة ، ممن لا ذنب لهم ، فتداولوا القضية ، وقرروا الاتيان بعمل يكفل اطلاق سراح الاسرى • ولكن الظروف لم تكن في صالحهم بأي حال من الاحوال ، خاصة وان المعلومات كانت تفيد بأن الفرنسيين يضيقون الخناق على الوطنيين ويسعون بكل ما لديهم من وسائل لاعتقالهم والضرب على ايديهم • من اجل ذلك عاود هنانو السفر الى انطاكية ، لينطلق من هناك بعد ان يجمع الصفوف ، وينفخ النار في الصدور التي اخمدتها ضربة الاحتلال الفرنسي للبلاد السورية •

ومن هناك وجد ابراهيم هنانو ان لامندوحة من الاتصال بالقوات التركية التي تحارب الفرنسيين في كيليكيا ، للاتفاق مع قادتها على تزويده بالمال والسلاح ، حيث ان الحال كانت تجبر الجانبين على التعاون ، وفي

سبيل مكافحة العدو المشترك • ولكن الاتراك لم يكونوا مخلصين ولا جادين بمد يد المعونة الى غيرهم ، اذ انهم في الوقت الذي كانوا يفاوضون هنانو على ضرب الفرنسيين كانوا يفاوضون الفرنسيين على ضرب الثورة السورية، وعلى كل حال فقد رجع هنانو ليجتمع مع رجاله في قرية اسقاط القائمة على مرتفع مطل على سهل العمق وحارم ، حيث بدأ ينظم صفوفهم للانطلاق •

وفي احدى الليالي ، وفيما كان المجاهدون عاكفين في بيت من بيوت القرية على دراسة العمليات الجديدة ، اذ ارسل مختارها العميل الاستعماري خبرا الى الضابط الفرنسي المقيم في حارم ، يفيده فيه : بان سبعين مجاهدا موجودون في قريته ، واخبره عن الدار التي اتخذوها مكمنا لهم ، وعلى الفور ، ارسل الضابط الفرنسي قوة من الجنود ، تقدر بحوالي سرية من المغاوير ، يزيد تعدادها عن مائتي جندي ، وكلفهم باحاطة القرية ، والقبض على المجاهدين أو ابادتهم اذا حاولوا المقاومة •

وصدف عند بزوغ الفجر ، ان كانت امرأة من نساء القرية تجمع الوقود عند طرفها الشمالي • فاحست بان هناك حركة مريبة ، وسمعت لغطا ورطانة اجنبية ، ثم ما لبثت ان تبينت في الظلام بعض الخيالة يهبطون عن خيولهم ويتوزعون لاحتلال منافذ القرية • وهنا ثارت في نفسها الحمية الوطنية • وكانت تعلم بان الثوار يبيتون في بعض الدور ، فرمت الى الارض ما كانت قد جمعته من اعشاب ، وعادت على التو مسرعة لتحذير المجاهدين ، واعلامهم ما يحدث خارج القرية •

وعلى هذا ، لم يفاجأ الثائرون على حين غرة • فقد خرجوا من تحت السقوف مهللين للمرأة الشريفة المكافحة ، مباركين مروءتها ونخوتها العربية ، وسرعان ما انقسموا الى ثلاثة فرقاء • تحصن الفريق الاول بسطوح الدور ، وانتشر الفريقان الآخران في ازقة القرية لفك الحصار المضروب ، واجلاء الفرنسيين عن المنافذ التي تتحكم في مداخل القرية • وعند طلوع الصباح لاحظ المجاهدون بادرة عجيبة ومذهلة • لقد عرفوا

ان افراد القوة الفرنسية كانوا يرتدون ملابس الفلاحين ، ويغطون رؤوسهم بالشملات والعقل • وبهذا اصبح تمييزهم عسيرا ، خاصة وان هذا النمط من الملابس كان يرتديه المجاهدون انفسهم • لذلك وخوفا من ان تقع المعركة بين الثوار انفسهم ، امر هنانو رجاله الزاحفين في ازقة القرية ، ان يتواروا ويتحصنوا وراء الجدران • وان يتأكدوا جيدا من ماهية العدو عند اطلاق النار •

وما ان ارتفع الصباح واصبحت الرؤية مستطاعة ، حتى بدأ الفرنسيون حملة التفتيش • متسللين على شكل دوريات من جهات القرية الاربع ، بعد ان طال انتظارهم للمختار ، الذي كان المذكور قد اصبح اسيرا في قبضة هنانو فور تلقيه انذار المرأة الباسلة • وهكذا ما ان وصلت طليعة الدورية الاولى الى باب الدار الواقعة في طرف الزقاق الشمالي ، حتى فوجئت بأفواه البنادق تمتد من الاعلى ومن وراء الجدران ، وبصرخات جهورية تأمر افرادها برمي السلاح والاستسلام • وصعق الفرنسيون لهذه المفاجأة غير المتوقعة ، وكادوا يستجيبون للامر ، لولا ان احس القائد في الخلف بالكمين الذي سقط به رجاله ، فارتكب آخر خطيئة في حياته ، اذ أعطى تعليماته بفتح النار •

وحدثت المعركة الرهيبة ، بين المجاهدين والقوات الفرنسية في الازقة وعلى سطوح الدور • وكانت اشبه بمعارك الشوارع التي تجري في المدن الكبرى • وما لبث ان اختلط الحابل بالنابل ، وقد لاقى المجاهدون صعوبات كبيرة عند اطلاق النار ، خشية ان يصيبوا بعضهم أو أحدا من سكان القرية • وبعد ساعتين من الالتحام القريب ، والقتال المرير ، تكشف الموقف عن هزيمة الفرنسيين على صورة اشبه ما تكون بالصور « الكوميدية »• اذ ان من استطاع منهم النجاة ، حاول الهرب ، فاعاقته ملابسه العربية عن الجري

والابتعاد ، فأخذ ينزعها او يمزقها ، حتى بدا عاريا الا من ملابسه الداخلية ، وهو يعدو بين الصخور والنار والصيحات تلاحقه من كل جانب ..

بعد انجلاء المعركة ، تبين انه استشهد ثلاثة من الوطنيين وجرح واحد ، اما خسائر العدو ، فقد بلغت اربعة وعشرين قتيلا بما فيهم قائد الحملة . وكانت الغنائم ، خمسة وستين بندقية وعشرين قنبلة يدوية وسبعة جياد . وكان من اثمن نتائج هذه المعركة ، ان مثل مختار القرية الخائن مع رسوله امام محكمة ثورية ، شكلت من المجاهدين وترأسها الثائر نجيب عويد وقد وجدت في حوزة المتهم ، ادلة تثبت انه كان يعمل مع المستعمرين ، ويزودهم بالمعلومات عن تحركات رجال الثورة وخططهم . وبعد استجوابه ، اعترف بجرائمه كلها ، ثم سمح له بالدفاع عن نفسه ، فلم يقل غير كلمة واحدة « انني اعترف بانني خائن » اما الرسول ـ ومن الغريب انه كان يمت بصلة القرابة الى المرأة البطلة ـ فقد حاول التنصل من التهم الموجهة اليه ، واستنجد بقريبته التي حضرت المحاكمة ، فكان رد المرأة الباسلة : « انني لا اتشرف بان اراك حيا في هذه القرية » وفي النهاية ، حكم على الرجلين بالاعدام . ونفذ الحكم بهما على الفور رميا بالرصاص . وكانت هذه المحاكمة نواة لمحكمة ثورية دائمة ، ظل يترأسها احد المجاهدين الى النهاية .

وكانت هذه المعركة ، سببا في تدعيم اساس الثورة في الشمال ، وبعثا لحيويتها وقدرتها على المضي بثبات . وعلى الاثر أذاع هنانو بيانا على شكل منشور ضمنه ما يلي :

« من العرب الى العرب :

يجب الا نرضخ صاغرين لحكم الاستعمار الجائر ، ونحن خير امة اخرجت للناس ، لقد خدعنا الفرنسيون ونزلوا اراضينا بحجة حمايتنا وصيانة استقلالنا ، وما ذلك الا افك مبين . لقد استولوا على بلادنا ، واقفلوا

مؤتمراتنا ، وبددوا جندنا ، واعتقلوا وجهاءنا ، واحرقوا قرانا ، وهتكوا اعراضنا ، واتخذوا من الاديان المقدسة ستارا لتحقيق مطامعهم الدنيئة ..

يا بن سورية العربية : لقد اصبح وطنك الغالي مهرقا بالدماء ، فانهض من كبوتك ، وحافظ على حريتك واديانك ، ولا تنخدع بالضلالات والمراوغات فتندم ولا ساعة مندم . واعلم ان نصيبك سوف لن يكون أعدل من نصيب اخوانك الجزائريين والعرب الذين احتلت بلادهم ، والذين يموتون في اوطانهم وخارجها بالالوف وعشرات الالوف . انظر الى وجدانك ، تر ارواح الانبياء ، ترفرف فوق رأسك ، تبشرك بالنصر المبين ، وتدعوك للدفاع عن وطنك مهد الهداية والنبوة . فما عليك الا ان تموت شهيدا لكي تحيا حرا سعيدا ، لانك مسؤول امام الله والتاريخ عن اماناتك المقدسة ، لوطن احفادك ومرقد اجدادك ، ولا تنظر الى من باع دينه ووطنه من المفسدين ..

وختم هنانو بيانه باستصراخ ضمائر الدول الاجنبية ، داعيا حكامها ان يتوسطوا لحقن الدماء ، والحئول دون سفك دماء جديدة ، سيظل الشعب السوري يبذلها دفاعا عن حريته وكرامته ... (١) .

---

(١) عن مذكرات المجاهد يوسف السعدون

٤ ـ انطلاق ثورة الشمال :

كان اتصال هنانو بصالح العلي وبثوار الحفة من اجل التعاون وسد الثغرات بين الساحل والداخل وبالتالي لدمج الثورات مع بعضها ، باعثا جديدا لانطلاق ثورة الشمال • وكانت جسر الشغور الواقعة في منخفض بين رصف من الجبال على ضفاف نهر العاصي ، تشكل حلقة الوصل بين هذه الثورات الثلاث • وعلى هذا فقد تم الاتفاق بين قواد هذه الثورات على السيطرة على المدينة ، وتنظيفها من آثار الفرنسيين الموجودين فيها • وبتاريخ ١٩٢٠/١١/٢٦ تحرك مجاهدو الشمال بقيادة هنانو لتنفيذ الخطة المتفق عليها • ومن اجل ذلك قسم هنانو قواته الى مفارز صغيرة ، تعداد كل مفرزة عشرون رجلا ، بقيادة احد المجاهدين ، وحدد لكل منها ساعة الانطلاق وطريق الزحف ومكان وتاريخ التجمع • وكان على هذه المفارز ان تزحف عن طريقة بلدة دركوش ، منفصلة عن بعضها كيلا تسترعي الانتباه وتلفت الانظار •

وفي مساء اليوم التالي تواجدت هذه المفارز في اماكنها المحددة وفي موعدها الموقوت على بعد بضعة كيلو مترات عن الهدف جسر الشغور • وفي قرية عامود التابعة للقضاء اجتمع هنانو بقادة المفارز ، ونسق واياهم خطة الهجوم • ثم ارسل ـ كما هي العادة ـ دورية استطلاعية لتكشف الطريق امام الثوار ، ولتأتي بما امكن من الاخبار التي تلقي ضوءا على امكانيات العدو ومعرفة احواله • وفي منتصف الليل تحرك المجاهدون على شكل

رتلين وبطريقـة التقرب المستور • وما ان وصلت الطليعة الى المرتفعات الشماليـة المطلة على الجسر ، حتى التقت بدورية الاستطلاع كامنـة في منعطف • وهنا افاد آمر الدورية ، بأن سرية من القوات الفرنسية تحتل مزرعة قريبة من الطريق ، تقع الى الشمال الغربي من الجسر • وهنا أمر هنانو باتخاذ تشكيلة الهجوم ، لاحتلال المزرعة والقضـاء على الفرنسيين الموجودين فيهـا • وقـد انتظر الى الفجر كيـلا يقع المهاجمون فريسـة لكمين عده •

وعند ظهور خيوط النهار الاولى ، انطلق الثوار بتشكيلة الانساق • وما كادوا يصلون الى التخوم الشمالية للمزرعة حتى انصبت عليهم نيران العدو ، الذي تحصن جيدا في الخنادق وعلى رؤوس الاشجار • وهنا ادرك هنانو ، ان الهجوم جبهيا لن يعطي النتيجة المطلوبة ، عدا عن انه سيكلف الكثير من الضحايا ، فأوعز الى المجاهد يوسف السعدون ان يأخذ فصيلته ويستدير بها من الناحية الشرقية للمزرعة ، وعندما يتم له الوصول الى التخم عليه ان يعطي اشارة باطلاق النار • وبعد نصف ساعة لاحظ العدو بأنه احيط من الجانبين ، فحاول ان يتخذ ترتيبات تكفل له الدفاع ، ولكن بعد فوات الاوان • اذ انه ما كاد يوزع اوامره ، حتى انصبت عليه النار من كل جانب • وبعد عشر دقائق انطفأت المقاومة ، وشوهدت راية بيضـاء ترفرف على سطح طاحونة المزرعة • وقد أدى جرح آمر السرية الفرنسية الى هذا الاستسلام السهل السريع غير المتوقع •

وفي الساعة السادسة من الصباح ، تم احتلال المزرعة ، وأسر خمسة وتسعين جنديا مع أمارهم ، مع تجريدهم من جميع سـلاحهم وعتادهم وبضمنه رشاشان ثقيلان هوتشكيس •

وبعد تنظيمات جديدة ، اوكل الى فصيلة من الثوار بحراسة الاسرى ، ثم استؤنف الزحف الى جسر الشغور التي اصبحت على بعد كيلو مترين

ونصف • وقد استفاد الثوار من الرشاشين اذ حملوهما مع صناديق الذخائر المملوءة ، ليدعموا بهما هجومهم الصاعق • اما الاسلحة المؤلفة من بنادق وسواطير فقد قرر هنانو اهداءها الى ثوار الحفة الذين كانوا في هذا الوقت يربضون على المرتفعات الغربية لجسر الشغور ـ بناء على الاتفاق السابق ـ منتظرين الاشارة المعينة لينقضوا على البلدة من الاعلى •

وفي الساعة الثامنة من الصباح ، كان المجاهدون يتدفقون من الشمال والغرب ومن رؤوس المرتفعات ، ثم ربضوا في مداخل البلدة • وبناء على ايعاز هنانو ، اعتلى بعض المجاهدين سطح احد المنازل مع الرشاشين واخذوا باطلاق النار في الهواء • وفي الوقت نفسه ، تسلم القائد الفرنسي رسالة من هنانو ، يخيره فيها بين الاستسلام او سوء المصير • ويبدو ان عملية اطلاق الرشاشات في الهواء بقصد الارهاب مع ذلك الانذار كان لهما نتيجة باهرة • فقد هرب معظم جنود الحامية من ثكناتهم واختبؤوا بالمنازل ، بينما انقسمت القيادة على نفسها • فريق رضي بالاستسلام والفريق الآخر أصر على الدفاع • وحوالي الظهر شوهد رئيس الفريق الثاني يتزعم قوة من الجنود ويتسلل بها عبر احد الشوارع ، وما كاد يظهر للمجاهدين حتى تلقفته النيران من كل جانب ، فهوى صريعا في مكانه قبل ان يندم على شيء •• أما جنوده فقد رفعوا ايديهم على الفور بعد ان القوا باسلحتهم على الارض • وكان من نتائج تحرير جسر الشغور بيد الثوار واستسلام حاميتها ، ان غنمت ثورات الشمال والحفة والعلويين اسلحة تكفيها لتجهيز مئات المجاهدين ، عدا عن الرصيد المعنوي العالي ، الذي بث في نفوس الثوار لهيبا حماسيا لا يمكن ان تخفت جذوته •

علم المجاهدون في المساء ، بأن لواء فرنسيا قوامه ٢٥٠٠ جنديا ، معززا بالمدفعية والدبابات ، قد غادر مدينة حلب في طريقه لنجدة حامية الجسر • فبت قرار هنانو على ان لا ينتظر الفرنسيين في البلدة ، لان الجسر

بحكم موقعها الجغرافي ، تجعل الدفاع عنها امرا يصعب تنفيذه . وعلى هذا فقد صفى امر الاسرى بوضعهم في المزرعة الانفة الذكر مع رفاقهم ، تحت حراسة قوية من فصيلة المجاهدين ، ثم استلم طريق ادلب لملاقاة اللواء الفرنسي في منتصف الطريق . في حين ارسل الى رجاله الباقين في كفر تخاريم ، يدعوهم الى الزحف للمشاركة في قطع الطريق من النقطة التي يتم فيها لقاؤهم مع الجيش الزاحف . وقد أمل هنانو من هذه الخطة ان يحصر اللواء الفرنسي بين قوتين ، وبذلك يمنعه من التقدم كما انه يقطع عليه سبيل التقهقر . ولكن الجيش الفرنسي ما ان وصل الى ادلب ، حتى علم بان الثوار قد غادروا جسر الشغور . ولعل خبرا قد وصله ، يعلمه عن تحركات الثوار من كفر تخاريم . من اجل ذلك انحرف بجيشه نحو الشمال الغربي ، ليتخذ الميدان الملائم للمعركة الفاصلة .

وفي ليل التاسع والعشرين ، التقى هنانو بنجيب عويد على رأس الرجال المكلفين بتطويق الجيش الفرنسي . فاتفقا على ملاحقته وضرب مؤخرته وجوانبه ، ثم تأخيره ما امكن ، حتى يتسنى لجماعة اخرى ان تسبقه ، ثم تكمن له في الارض الوعرة المتحكمة في الطريق الجبلي الموصل الى كفر تخاريم ، بعد ان تأكدا من ان الجيش يقصد هذه الجهة للاستيلاء على مربض الثوار . وانتشر المجاهدون على شكل ٧ مستفيدين من وعورة الارض ، واشجار الزيتون القائمة على جانبي الطريق . وتم الصدام مع المؤخرة عند احد المنعطفات . وبوشرت عملية « النهش » في جسد الصيد الكبير ، من مؤخرته حينا ، ومن جوانبه احيانا اخرى . وفي كل مباغتة او جولة ، كان العدو يصاب ببعض القتلى والجرحى ، ويضطر للوقوف والتمركز وترتيب الصف . وقد ظلت هذه المناوشات تشتد وتضعف حسب طبيعة الارض ، حتى وصل الجيش الى جبال حفسرجة قبيل الغروب . حيث اقام معسكره على شكل نقاط ارتكاز محصنة ويمكن الدفاع عنها .

بعد ان تأكد المجاهدون ، من أن الجيش يقصد كفر تخاريم ، وانه

سيسلك الطريق الجبلية مجبرا ، سبقوه الى موقع تلتينا ، وكمنوا له في عدة اماكن متحكمة • وبعد ان استراح الجنود ساعتين من الزمن ، أمروا باستئناف الزحف • وقد توهم القائد الفرنسي ، بان الثوار قد عادوا ادراجهم بعد ان يئسوا من احراز قصب السبق •

وصل الجيش الى موقع تلتينا قبيل الفجر ، وما كاد يتوقف ليقيم تحكيماته ، وينصب مدافعه ، حتى انصبت عليه نيران البنادق والرشاشات • غير انه استطاع وهو في غمرة من الذعر والفوضى ، ان يركز مدافعه ويوجهها الى كفر تخاريم • ولعله استفاد من الظلام بحيث كانت اهداف الثوار غير واضحة المعالم • ثم بدأ قصف البلدة بالقنابل المحرقة والمدمرة ، في الوقت الذي كان فيه جنود المشاة يحيطون بالمدفعية لحمايتها من الهجومات المضادة • وما ان طلع الصباح ، وبرزت معالم العدو ، حتى انقض المجاهدون على تشكيلته وبدأ الالتحام القريب بالسلاح الابيض • وقد استبسل المجاهدون استبسالا منقطع النظير ، عندما رأوا بأم اعينهم النار تندلع في الدور التي أودعوا فيها نساءهم واطفالهم • وفيما كانت المعركة على اشدها ، علم المجاهدون أن فوجا فرنسيا في طريقه من حارم الى كفر تخاريم لنجدة اللواء المحاصر • وهنا اضطروا ـ امام الخطر الجديد ـ لان يسبقوا العدو الى احتلال البلدة المحترقة ، وانقاذ سكانها من الذبح والتنكيل • فانقسموا الى ثلاث فئات • الفئة الاولى تبقى على تماس باللواء المحاصر لاشغاله ومنعه من التقدم ، والفئة الثانية لملاقاة الفوج القادم ، والفئة الثالثة تحتل البلدة وتجلي عنها من لا يستطيع الدفاع عن نفسه • وما ان غربت شمس المساء ، حتى اخليت البلدة الا من بعض الشيوخ والعجزة ، في حين ظلت الفئتان الاخريان تناوران وتداوران حتى اصاب رجالها الانهاك ونفذت ذخائرهم • مما اضطرهم الى الانسحاب الى الجبال ، لينظموا صفوفهم من جديد • وفي الساعة الرابعة من مساء ١٩٢٠/١١/٣٠ تمكن الفرنسيون من احتلال كفر تخاريم ، او بالاحرى انقاض هذه البلدة المجاهدة •

٥ ـ الثورة تصل الى الذروة :

لم يلبث الفرنسيون في كفر تخاريم وقتا طويلا • فقد كانت اعمالهم الوحشية نفسها ، من الاسباب التي عجلت بطردهم منها • وقد استطاع المجاهدون عقب انسحابهم الى جبل الدويلة ، ان يجهزوا انفسهم لمعركة الثأر • وكان بطل المعركة نجيب عويد • فقد قسم رجاله الى ثلاث مفارز ، واقتحم البلدة من عدة جوانب في ساعة متأخرة من الليل • ثم أغار برجاله على معسكرات الفرنسيين ، وكان عنف الاغارة ومفاجأتها من الاسباب التي جعلتهم لا يتمكنون من الدفاع ، وان يتكبدوا خسائر جسيمة بالارواح والعتاد • وقد بلغ عدد قتلاهم حوالي المائتين وتركوا في ارض المعركة كميات كبيرة من الاسلحة والذخائر •

كان من نتائج عودة كفر تخاريم معقلا للثورة ، ان اتخذ المجاهدون ترتيبات جديدة تكفل لهم توسيع رقعة الثورة ، وتشكيل جهاز اداري يقوم مقام حكومة وطنية ، له ما للحكومة من صلاحيات واسعة النطاق • وكان المجاهدون هم نواة الجيش ، كما استحدثت قوى لحفظ الامن الداخلي ، وعين موظفون برواتب ، للقيام بتسيير الامور وجباية الضرائب • وتنظيم الجهاز المالي من حيث الصادرات والواردات • وفتح باب التطوع تمهيدا لسن قانونية الخدمة العسكرية الاجبارية ، واقيمت مخافر عسكرية وطنية للرصد والانذار ومراقبة المنافذ والجسور والقيام باعمال اعاقة العدو •

ولقد قام احد هذه المخافر بواجبه بصورة مدهشة ، عندما تصدى

لكتيبة فرنسية ، ومنعها من الوصول الى منطقة الثورة • كان المخفر المذكور متمركزا في جسر الحديد الواقع في منتصف الطريق بين انطاكية وحارم ، وكان تعداد رجاله اربعة عشر مجاهدا مزودين بالبنادق • وعندما شاهد راصد المخفر قوة فرنسية قادمة من سهل العمق ، انذر رفاقه برصاص بندقيته • وعندها استعد رجال المخفر وهرعوا الى تحكيماتهم المؤلفة من خنادق وصخور وجذوع اشجار ، ثم انتظروا طليعة الكتيبة الفرنسية حتى اصبحت ضمن المدى المجدي لنيران البنادق • ومن حسن الحظ ان وفد في تلك الآونة المجاهد يوسف السعدون في دورية ، ليتفقد شؤون المخفر • فاستلم زمام المعركة • وقد استمر دفاع افراد المخفر ضد الكتيبة الفرنسية مدة ٣٦ ساعة متواصلة ، كبدوهم خلالها ما لا يقل عن المائة والخمسين قتيلا •

ومنذ ذلك الحين بدا على القيادة الفرنسية في سورية الشمالية ما يشبه الطعنة في الكبرياء ، واتسمت اعمالها بالطيش والحقد وضعف البصيرة • وقد تلقى الجنرال ده لاموت امرا من الجنرال غورو بانهاء المشكلة مهما كلف الامر • مما جعل الكولونيل ده بيوفر يلقى نفس المصير الذي لاقاه بولانجيه العتيد •

فقد ترأس الكولونيل المذكور فرقة معززة بجميع صنوف الاسلحة ، مهمتها تنظيف منطقة الثورة التي يحددها ضمنا : جبل الزاوية في الجنوب الشرقي وموقع الحمام في الشمال والقصير في الغرب وجسر الشغور في الجنوب • وقسم الكولونيل ده بيوفر قواته بصورة تجعلها تحرث مناطق الثورة ، كما يفعل المشط بالشعر • واتخذ لكل احتمال عدته ناسيا اعتبارا واحدا هو ان الثوار المراد تنظيفهم من الوجود لم يكونوا غير فلاحين وعلى خبرة تامة بشئون الحراثة • ويقول « الكتاب الذهبي لجيوش الشرق » بعد ان استعرض الثورة ووصفها بالخطورة البالغة :

« ولكن الكولونيل ده بيوفر لم يتردد • بل عزم عزما جريئا على ان يجبه العدو فيزحف الى الشمـــال ويسحق هنالك جيش هنانو ثم يتصل بعدئذ بجيش جديد حيث يقطع عليه خط الرجعة جيش آخر كان ينتظر وصوله من اللاذقية » (١)

ويستمر « الكتاب الذهبي لجيوش الشرق » قائلا :

« وكان من نتيجة هذه الخطة ، ان تورط الجيش في منطقة جبلية جرداء ، في حين كانت ذخائره محمولة على العربات • وتحتم اذن ان توسق البغال فورا • أعطي الامر الى الجيش المرابط في الحمام ان يبادر الى وسق الدواب ايضا ، وينطلق دون مهل الى كفر تخاريم لموافاة جيش الجنوب • وفي صباح السابع من كانون الاول ، غادرت تجريدة ده بيوفـر ادلب متجهـــة الى كفر سرجة • وكانت المعلومات التي وردتنا امس ذلك النهار تشير الى وجود بعض عناصر العدو متحصنة عند منتصف الطريق ، في النواحي الغربية والجنوبية الغربية والشمالية ، وجاء الواقع مصداقا لتلك الانباء • فـلم تأزف الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والاربعون ، حتى انهالت على فرسان الطليعة نيران عنيفة ، واذا نحن أمام قوات ابراهيم هنانو • »

ويمضي « الكتاب » قائلا :

« وتدفق الرصاص على المؤخرة من تخوم ادلب • وهوجم جناحنا الجنوبي ، بينما كانت زمر من العـدو تغير على جناحنا الايمن • فدارت رحى معركة عنيفـة وضع فيها الكولونيل ده بيوفر جميع ما تيسر له من القوات ، حتى انه انزل السائقين انفسهم الى صفوف

---

(١) ان هذا الجيش الآخر لم يتمكن من الوصول فقد وقفت في طريقه قوة من ثوار العلويين والحفة •

القتال • وكانت تضغط على المؤخرة قوات خبيرة بأساليب المناورات ومتحرقة للقتال •• واستتمت حلقات تطويق جيشنا • فحدا اليأس بالقائد ان يعتزم مهاجمة الذروة التي تستقر عليها قوات هنانو ، وتقف حائلا دون مرور الجيش • وقرر ان ينجد الطليعة باحدى سرايا المشاة ، وبسرية رشاشات ، وبكوكبة من الصباحيين ، وان يعمل بعد ذلك على استجماع قافلة الذخيرة وسائر الجيش ، بعد انتزاع ذلك الموقع ، ويقوم بالمحاولة نفسها على الموقع الذي يليه •• »

وبعد ان يفيض الكتاب بمهارة وبسالة هذه القوى التي وضعت لتنجد الطليعة من قبضة عدد من المجاهدين لا يتجاوز المائة ، وكانوا قد نفذوا عمليتهم بصورة باهرة ، قبل ان ينسحبوا الى خط قتال جديد ، يستطرد الكتاب قائلا :

« وقد تكررت تلك المحاولات طوال سبعة ايام •• كان جيشنا يتخلص فيها من الكمائن والاغارات بفضل البأس والجرأة • على ان الخطر ما برح محدقا به أي احداق • فهنالك في كفر تخاريم قوات وافرة من فرسان العدو ، كما ان في ادلب يرابط جيش وطني آخر • مما اضطر القائد ان يرجع عن فكرة الزحف المستقيم ، واعتزم ان يسلك المرتفعات غير السالكة • وقصد بذلك ان يتقي سدود العدو ، ويؤمن على جناحيه في عصمة تلك السفوح الوعرة المنال والمرتقى • وبعد جهود شاقة وصل الجيش الى تلتينا • ولكن جماعات من الرماة كانوا متمنعين بين الصخور في ضواحي القرية ومزودين بذخيرة وافرة ، فنفرهم جنودنا بقذائف الهاون والقنابل اليدوية ، » ••

ويوما فيوما ، يسرد « الكتاب الذهبي لجيوش الشرق » قصة الحملة العتيدة التي يقودها الكولونيل ده بيوفر • ومن المعروف ان ارتال الجيش

الآلي الذي كان يقوده هذا القائد ، لا تتطلب غير ساعات معدودات لتصل من حلب الى ابعد منطقة من مناطق الثورة . ولكن الكتاب يستمر في تعداد الايام . وكأن الجيش قد تخلى عن مهمته« السامية » عندما ضاع في مجاهل قارة كوكب المريخ .

« وفي اليوم التاسع استقرت قوة عدوة على ذروة صخرية تشارف القرية ، وكانت تتولاها قيادة ماهرة . وكان لا بد لنا من احتلال هذا الموقع تسهيلا لمهاجمة كفر تخاريم . فتحتم علينا القيام بهجوم معاكس نفذته في منتصف الساعة التاسعة كتيبة لاروك واجتاحت الذروة بانطلاقة رائعة ، قتل خلالها الكابتن لاروك والملازم لوشين وفي اليوم الحادي عشر ، قامت تجريدة بوشون على حراسة كفر تخاريم ، وانطلقت تجريدة آبوت الى حارم لتأتي بالامداد ، فهاجم العدو كفر تخاريم ، ولكنه ردع بنشاط ، وهبطت عليه نجدة من حارم فانزلت به مدفعيتها الخسائر البالغة .

وفي اليوم الثالث عشر ..

وفي اليوم الثامن عشر ..

وفي اليوم الخامس والعشرين .. استؤنف القتال على جميع الجبهات ....

وفي اليوم التاسع والعشرين ..

في اليوم التاسع والعشرين خذل الكولونيل ده بيوفر فسحب من عنقه مع انقاض جيشه . ليحل مكانه جنرال اسمه غوبو ..

٦ ـ غوبو يبكي مجده العسكري وابنه العزيز

« لقد سئمنا من تكرار هذه الاخطاء الصبيانية ،
حتى بتنا نتمنى لو نسمع باخطاء لم ترتكب في السابق »

المارشال فوش

في ملاحظاته على الاخطـاء التي ارتكبها القـادة الفرنسيون في قمع الثورات السورية ٠ (١)

ان عبارة فوش الساخرة ، تدل على مدى وعمق المرارة التي صبغت نفوس العسكريين الفرنسيين ، من جراء فشلهم المتكرر في القضاء على حركة النضال الشعبي في سورية ٠ والواقع ان مسئولية هذا الفشل لم تكن لتقع بكاملها على العقليـة الاستعمارية الفرنسية وحـدها ، بل على الايديولوجية الاستعمارية من اساسها ٠

فضلا عن ان التكتيك النضالي الذي كان يستخدمه المجاهدون في ذلك الحين ، اصبح مدرسة لكل ما سمي بعد ذلك بـ « حرب العصابات او حرب الانصار » ٠ وقبل ان نتعرض بالتفصيل الى التكتيك الذي استخدمه ثوار ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ ، ننتهي اولا من حملة الجنرال غوبو ٠

كانت معظم جيوش الجنرال ده لاموت في سورية الشمالية ، موزعة

---

(١) وردت هذه العبارة على لسان المجاهد المرحوم نجيب عويد

على الحدود وحول عينتاب • ولم يبق لديه قوة ضاربة بالشكل الـذي يريده ، ليفي بالغرض المطلوب • من اجل ذلك جمع قواته كلها ، بما فيها الاحتياط ، والف منها جيشا عرمرما • ثم اتصل بالقيادة العليا متعهدا ومقسما بشرفه العسكري ، بأنه سيحقق لفرنسا كل احلامها ، على أن تساعده بالاسلحة الثقيلة والمتحركة وبأسراب الجو • ولبت القيادة طلبه على الفور وتهيأت لتطلق انفاس الصعداء •

ووضع ده لاموت على كتف الجنرال غوبو كفه العريضة قائلا :

« هذا انبل وسام تقلدك اياه فرنسا العظيمة وعند العودة فستمد لك فرنسا يدها بالذات فكن ابنا بارا والله يحرسك » •

وسار غوبو على رأس قواته يختال كالطاووس ، بعد ان ودع ابنه الملازم الاول وقلده وساما من النوع السابق وهمس في اذنه : « سوف لن احرمك من اوسمة الفخر التي سأحصل عليها فكن مستعدا » وتحركت جيوش غوبو من حلب في الاول من شباط ١٩٢١ ، متجهة الى جسر الشغور •

وكانت القيادة الثورية قد اعطت تعليماتها بتجنب الاشتباكات مع العدو في الاراضي السهلة قليلة العوارض والتحكيمات والموانع الطبيعية الاخرى ، كما انها أوعزت الى رجالها بعدم الوقوف في وجه العدو عندما يدخل المدن والقرى الكبيرة كيلا يتعرض السكان للدمار والتنكيل • وهكذا وصلت جيوش غوبو الى جسر الشغور في مساء اليوم دون ان تلقى أي مقاومة •

ولكنها ما كادت تتحرك من البلدة لتواصل طريقها الى منطقة القصير في الشمال حتى احست ـ كما تحس الافعى ـ بأن ذنبها قد قطع •• ومن المعروف ان جسر الشغور تقع في وادي العاصي محاطة بالجبال المتممة

لجبال العلويين • وهكذا باشر رجال المقاومة أعمالهم ، بجماعات منظمة صغيرة ، قوية العدة سريعة الانطلاق • وراحوا يكيلون الضربات السديدة في القلب والمؤخرة والاطراف ، مع الاحتراس التام من اجبار الجيش على التوقف ليفتح جبهة ثابتة الاسس •

وعلى هذا لم تكد جيوش غوبو تقطع أكثر من كيلو متر واحد ، بعد خروجها من جسر الشغور ، الا وكانت الكمائن والمناوشات قد اصبحت عبئا لا يطاق • وكلما اقتربت من منطقة القصير ، كلما ازدادت اعمال العنف والاشتباكات • واذا عرف بأن المنطقة لا تبعد عن الجسر اكثر من ثلاث ساعات سيرا على الاقدام ، استمر فيها الجيش ثلاثة ايام دون ان يصل ، أمكن معرفة الصعوبات والخسائر التي تعرض لها • وفي اليوم الثالث وقع الجيش كله في حصار رهيب ، وطوق من جميع أطرافه بالنار والكمائن • وكان أعظم انتصار حققه غوبو في هذه المرحلة ، هو انه استطاع الافلات ، بنصف جيشه • وهنا ضاقت عليه السبل ، فلم يجد طريقا غير الانحراف نحو جبال العلويين •

وسواء كانت هذه النتيجة بناء على خطة مدبرة من قبل المجاهدين ، ام انها قد حدثت تلقائيا ، فانها قد اتت ثمارها على افضل ما يكون الثمر • فقد كان هناك رجال المجاهد عمر البيطار يرقبون الطرق بعيون جائعة كعيون العقبان • وفجأة لاح الصيد امامهم •

ويبدو ان غريزة الفن العسكري كانت تكمن في نفوس الابطال ، فلم يهاجموا الجيش في مكانه الذي كان يتنقل فيه ، بل راحوا يستدرجونه الى مواقعهم الحصينة التي يحسنون فيها القتال ويجهله عدوهم وفي لحظة معينة التفت الجنرال غوبو الى الخلف ـ ويبدو انه أحس بالجوع ـ فلم يجد خبرا لقوافل المؤونة والعتاد • وبتأثير الحس الحيواني قبل أي تأثير

آخر ، أمر غوبو بحرق القرى التي تراءت أمام أنظاره ، بعد فشله بامساك المسببين الحقيقيين لضياعه • وعلى لهب الدور المحترقة ارسل برقية الى حلب يطلب فيها قوافل جديدة من المؤن والعتاد •

وصفق ده لاموت بيديه ، وأمر بسوق قافلة كبيرة من المؤن والعتاد ، تحرسها كتيبة من المشاة وكتيبة خيالة ، وارسل معها الى غوبو هدية ثمينة هي ولده الملازم أول غوبو الصغير • واختارت هذه القافلة وحماتها طريقا مباشرا الى قائد الحملة ، هو طريق دركوش • وهذه البلدة تشبه جسر الشغور من حيث وقوعها على كتف العاصي ، مستندة على سفح الجبال • وفي ذلك المساء كان يكمن في احدى مغاور هذه الجبال ، ابراهيم هنانو مع جماعة شهروا باسم « الصيادين » • ولم يكن هنانو في تلك اللحظة ينتظر الوحي ، بل كان يكمن للنجدات التي سيطلبها غوبو •• وقد نزل الوحي فعلا ، في حين كان غوبو يتضور من الجوع • وفي ساعة من ساعات الليل الاخيرة اغمض الجنرال عينيه فحلم بقطعة من الخبز ، تمتد الى فمه من بين قضبان الحديد ، وما كاد يفتح فمه ليلتهمها ، حتى دوت في اذنه صرخة ثاقبة : « استيقظ ايها الجنرال فقد وصلتك هدية ثمينة ولكنها مغمضة العينين » •

واثناء تقهقره الى حلب في ١٩٢١/٢/٣ كان الجنرال غوبو يندب حظه العاثر وابنه العزيز •••••

الفصل الخامس

تحليل ثورات ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ ونتائجها

بالاضافة الى ثورتي صالح العلي وابراهيم هنانو اللتين مرت بعض وقائعهما في الفصلين السابقين ، اشتعلت في البلاد السورية ثورات محلية اخرى ، امتازت بالاسلوب نفسه ، ولكنها لم تعش طويلا . وأهم هذه الثورات :

١ ـ ثورة آل البيطار في جبل صهيون المتمم لجبال العلويين .

٢ ـ ثورة دير الزور الاولى عند طرد الانكليز منها . والثانية عندما احتلها الفرنسيون في خريف ١٩٢١ .

٣ ـ ثورة الموالي وهم قبيلة بدوية منتشرة بين حماة ومعرة النعمان .

٤ ـ ثورة الدنادشة في تلكلخ .

٥ ـ ثورة عشيرة الفضل برئاسة الامير محمود الفاعور في منطقة الجولان .

وهذه الثورات لم تدم طويلا ـ وان ساهمت باعطاء النتيجة المطلوبة ـ للاسباب التالية :

١ ـ صبغتها المحلية ، واقتصارها على عمليات الكر والفر .

ب ـ كونها وقعت في مناطق متفرقة من البلاد وبعد بعضها عن بعض •

ج ـ وهذا اهم الاسباب ، فقدان الدولة الوطنية أو السلطة التي بامكانها ان تجمع الصفوف وتجند الامكانيات لدمج هذه الثورات جميعها في ثورة واحدة متصلة ، بثورتي الشمال والعلويين •

وقد اندلعت ثورات ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ في ظروف دولية ومناخ قومي ، لا تساعد بأية حال على حقنها بمصل يكفل لها الاستمرار والتطور ، واعطاء النتائج السريعة المرجوة • فالثورة المسلحة ، هي ارفع مراتب التمرد ضد الاجنبي وعدم قبول حكمه • وهي بحاجة ، منذ بدئها ، الى معين لا ينضب من المال والسلاح ورفع المعنويات والثقافة والسياسة والوطنية ، وكل ما هو ضروري ليجعل ابناء البلاد ينتقلون من حالة الطمأنينة والرضوخ الى حالة الاستنفار والحرب • وبما ان استئصال العدو المتفوق بكل الامتيازات ليس امرا سهل التحقيق ، فان الاستعداد لذلك يتطلب وقتا طويلا وامكانيات لاحد لتصنيفها وتعدادها • وبعد ذلك ، ليس ثمة ما يضمن بان محاولة الاستئصال لن تسحق في المهد من قبل عدو ، او أعداء ، صمموا بكل ما لديهم من أرصدة ، ان يحققوا سيطرتهم على بلد صغير متخلف • وليس ثمة ايضا ما يكفل ، بان الحركة اذا انتصرت في مكان لن تفشل في مكان آخر • فالثورات السورية الاولى انطلقت ببداهة وسرعة غريبة ، دونما استعداد او تحضير • وكان القائمون بها محصورين في مناطق معينة وعلى تماس مباشر مع العدو • وكانوا من الفلاحين الذين لا غنى لهم عن العمل في الارض ليأكلوا الرغيف حتى تصبح لديهم القدرة على حمل السلاح • وكانوا كلهم اميين لا صلة لهم بأي نوع من انواع الثقافة • وكان العامل الوحيد لانتفاضتهم هو العامل البكر : العاطفة الوطنية •

لقد بدأ الفرنسيون انزال قواتهم في السواحل السورية في ٨ تشرين الاول ١٩١٨ . وكانت حجة عملهم هذا في ظاهرها ، لا تستدعي القيام بأي اجراء عدائي يوجه ضدهم . بل على العكس ، كانوا يطلبون من أهالي البلاد ان يستقبلوهم استقبال الفاتحين المنقذين . او على الاقل ان يساعدوهم على اتمام مهمتهم ، بتموينهم بالغذاء ، وفتح الطرق امام جيوشهم ، وتجنيد المحاربين في صفوفهم ، والى غير ذلك مما يطلبه الحليف من حليفه . ولكنهم - وقد ادهشهم هذا اللقاء غير المتوقع - جوبهوا على الفور باضطرابات صماء تنبعث من مناطق الفلاحين ، وكان صدى هذه الاضطرابات يشتد يوما فيوما ، دون ان يصل تأثيره الى المدن . التي ظلت على حالتها الطبيعية تزاول نشاطها المعتاد دون ان تتأثر بما يجري في المناطق الريفية والجبلية الملتهبة ، حتى وقعت معركة ميسلون .

ولئن كشف فلاحو هذه المناطق عن عاطفتهم تجاه نزول الفرنسيين في السواحل بهذه الطريقة ، فليس ذلك بدافع الطيش والتعصب وقلة الحيلة ، بل الاسباب اعمق في ذاتها وماهيتها من كل ذلك . فقد شوهدوا وهم يهاجمون العدو خفية ، يضربون بسرعة ويختفون ، كلما رأوا ذلك مناسبا . ثم ما لبثوا ان اكتشفوا في انفسهم القدرة على الاتيان باعمال باهرة ، فتحصنوا في الجبال والمناطق الصعبة ، وبدأوا يدرسون اعمالهم بعد ان وضعوا لانفسهم هدفا مباشرا ، هو اجلاء العدو عن بلادهم كلها ، من الداخل والخارج . ولم تتصف اعمالهم على عنفها وشدتها بالتهور او التبجح ، بل انهم كانوا يجازفون مجازفة الموت لينبؤا ابناء البلاد في الداخل ومن ثم العالم اجمع ، بأن هناك بعض اجزاء البلاد السورية ، رجالا عندهم القدرة على اعلان الرفض .

ولا شيء غير هذا . كانت غاياتهم هي اثبات وجودهم بالطريقة اياها . غير آبهين بالفرق العسكرية المعززة بالاسلحة الشيطانية ، وبآلات التدمير

المرعبة ، التي كانت تتعلق باطراف الجبال ، او تصل الى تخوم القرى ، ثم تنكفىء خاسرة مليئة بالجراح ، لتعود فتصعد من جديد ، بعد ان هيأت نفسها على افضل ما يكون ، لمحو « اعلان الرفض » ، متميزة بعناد الوحوش البليدة • ولم يكن عدد الفلاحين كافيا للقتال ، الذي كان العدو يحاول ان يجعله حربا نظامية • ولكنه كان كافيا لحرب العصابات ، والدفاع المنظم اذا لزم الامر • فكانت خططهم تتلخص بوجوب الافلات بلا انقطاع ، من الوحدات الثقيلة المدعومة والمعززة ، بفضل عمليات متحركة ومستمرة • وبعد ذلك تكون عمليات المبادرة ، بنصب الكمائن واطلاق النار وبث الذعر والفوضى في صفوف العدو ثم الفرار والتربص • وكان هذا العمل الشاق والترتيب الخطر يتطلب مجهودا يوميا ، او ربما آنيا وفي كل وقت ، لانه ضروري كضرورة جريان الدم في اوردة الجسم الحي • وذلك كي يزداد اعضاء الاسرة الثورية بالمجاهدين المسلحين ، ولينتشر اللهب الى المناطق الداخلية من البلاد فتعم الثورة كل جزء من اجزاء الوطن • وبالفعل اصبح هذا الصراع غير المتكافىء نبراسا قويا للنضال الشعبي بعد حين من الزمن • واذا كان قد تأخر قليلا او كثيرا ، فذلك لعوامل حتمية ، أهمها « عامل ميسلون » •

ان ثورات ١٩١٩ – ١٩٢٢ – على بساطتها – خلفت في الوعي القومي ، جذورا عميقة ثابتة الاصول • وقد استطاعت مع كل نقطة من الدم ، ان تنبت اشجارا وارفة الظلال متفرعة الغصون وجعلت قضية الانتداب الفرنسي ان ينقلب احتلالا ، وبهذا كانت بداية النهاية • اذ جعلت الشعب في الداخل ، لا يطيق مجرد فكرة قبول عهد استعماري جديد ، حديث الموضوع والاسلوب • فكان لا بد من حدوث كارثة كبيرة لتجعل الشعب الذي لم يذق بعد طعم الحرية ، ان ينتفض بكل طبقاته واشكاله والوانه ، وان يهاجم الثكنات ، ويتعرض للقوافل ، وان يحارب بايد عارية ، جنودا

مسلحين • وكان لا بد من خلق الكارثة ، وتعميق اثرها ، وابرازها في وجوه الناس • فحين اندلعت الثورات عقب ميسلون ، والتحق بها ابناء المدن ، وقبلوا ان يجازفوا بحياتهم واموالهم وممتلكاتهم ، فهذا يعني بصورة اكيدة ، بان الثورات السابقة ، قد نالت ثقة كل المواطنين ، ولكن الثقة وحدها لم تكن كافية ، كان يجب ان تتوفر شروط أخرى لها اهميتها القصوى ، لتكون الثورة ضد العدو المستعمر ، المتمتع بكل المزايا التكنيكية والتكتيكية ، مجدية وعلى مستوى عال من الفعالية • فالشعب يصنع ثورته بالطريقة التي تربط اعضاءه بعضهم مع بعض • وما يربط اعضاء الشعب العربي في سورية ، هو بالدرجة الاولى احساسهم بانهم « سكان قلعة البلاد العربية » • والواقع ، وهذه حقيقة كانت خافية في البداية ـ ان الثورات السورية لم تقم لاجلاء الحكم الاجنبي بالدرجة الاولى ، بل لتحقيق ما هو أعمق من ذلك ، « أن سورية هي قلب الامة العربية » • وكانت هذه الحقيقة من النتائج الحتمية التي اسفرت عنها الثورات السورية •

قلنا ان ثقةالناس بالثورة لم تكن وحدهاكافية لاعطاء المردود المجدي ، باندفاع المواطنين الى حمل السلاح ، بل هناك شروط اخرى يجب ان تتوفر ليحصل المردود المطلوب • ومن هذه الشروط :

اولا ـ الهدف السياسي للثورة :

فالثورة يجب الا تنفصل بأية حال عن العوامل السياسية التي تقررها • فكما ان الحرب هي امتداد لعمل سياسي معين ، فكذلك الثورة هي وليدة اعمال سياسية معينة ايضا • والقضية السياسية التي تملي ضرورة الثورة ، يجب ان تبرز الى الاذهان وتدرس وتستوعب على اوسع نطاق • فهي التي تجزم في تعيين طبيعة ومقومات الثورة ، وتحدد خصائصها وأهدافها القريبة والبعيدة المدى • فكل حرب خالية من الخصائص والاهداف السياسية ، هي حرب فاشلة • وهذا المبدأ ينطبق على الاعمال النضالية وابرزها الثورة •

فاذا كان الرجال الذين يحملون السلاح واضعين ارواحهم على اكفهم ، لا يعيرون المسألة السياسية الاهتمام اللائق ، واذا توهموا انهم يستطيعون مجابهة جحافل العدو ودباباته ومدافعه وطائراته واساطيله بالمدى والسيوف والبنادق العتيقة المختلطة وحدها ، فليس عليهم ان ينتظروا ظفرا اكيدا يعتمد على الظروف والاحتمالات • بل يجب النظر بعين الاعتبار الى السلاح الاعظم ، السلاح السياسي ذي الاهمية الرئيسية في تقرير مصير المعركة • وان يعرف جيدا وبكل وضوح ، ان الانتصار السياسي ليس اقل شأنا من الانتصار الحربي ، بل هو متمم له ومحقق لاهدافه •

وفي سبيل الوصول الى الانتصار السياسي ، ينبغي على رجال الثورة ان يعملوا على الاتصال بطبقات الشعب ، والامتزاج بهم امتزاجا كليا عميقا • فالثورة دون مؤزرة الشعب تبقى معزولة مقصوصة الجناح • ومن الملاحظات البارزة على رجال ثورات ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ انهم لم يستطيعوا تحقيق هذا الاعتبار ، ولسبب بسيط جدا ، هو انهم فلاحون ليست لديهم الثقافة السياسية ولا يفهمونها الا من خلال التصدي بشجاعة وحماس لعدو جاء ليغتصب ارضهم • والواقع ان عهود الاحتلال التركي طوال اكثر من خمسة قرون ، قتلت في نفوس السوريين ، وخاصة الفلاحين منهم ، روح اليقظة والنضوج السياسي •

ثانيا ـ الدعاية من اجل القضية الثورية :

من بين العوامل الفعالة لنجاح الثورة ، تقوم الدعاية بدور رئيسي • فهي تمس الشعب مباشرة • وتعالج مسائله المحلية ، وتهتم بحاجاته ومطاليه • وتجتنب المناقشات العقائدية على الصعيد الخيالي (الطوباوي) ، وما فيها من التعابير الصعبة الفهم • وتعمل عن طريق الاتصال الفردي او الجماهيري ، على مخاطبة المواطنين باللغة التي يفهمونها بسهولة ، وتساعدهم على تحسس الاوضاع الراهنة ، والشعور بالخطر المحدق • وتحفز فيهم

روح المنافسة ، فتوقظ ضمائرهم وعواطفهم الوطنية ، وتنفتح في صدورهم نار الحقد على العدو ، هذا الحقد الذي تنتقل عدواه بسرعة الى جميع السكان • كما ان الدعاية تستغل نوايا العدو واخطاءه استغلالا دائما مستمرا ، وتجعل منها سلاحا تحاربه به • ومن سوء الحظ ، ان ثورات ١٩١٩ – ١٩٢٢ كانت تفتقر الى الدعاية • رغم انها استمرت طوال ثلاث سنوات وهي تقوم بالمعجزات •

ثالثا – انشاء جهاز لحفظ امن الثورة :

باعتبار ان الثورة هي عمل غير قانوني بعرف السلطة الاجنبية الدخيلة ، فهي ، اي السلطة ، تحاول جهدها ان تحاربها على جميع الميادين وبمختلف الطرق • ولكي تحمي الثورة نفسها ، عليها ، بالاضافة الى حمل السلاح ، ان تصون سريتها واعمالها من الخونة والجواسيس • فالاعمال الثورية ، تتطلب تيقظ رجالها وسكان مناطقها ، لاجتناب البلبلة ومكافحة روح التخاذل ، ولاكتشاف تسلل الخونة وعملاء العدو بين الصفوف ، وفي الوقت نفسه مراقبة العدو ، دون ان تقع عينه على العصب الحساس في جهاز الثورة ، والحصول منه على المعلومات اللازمة للنجاح في العمليات الثورية ، ومكافحته بسرعة ودقة عن تنفيذ مخططاته العدوانية • فالقيادة الثورية تهتم اهتماما كبيرا بالبحث عن المعلومات • من اجل هذا ، عليها ان تبث العيون والارصاد في مناطق العدو ، وفي الطرق التي يحتمل المرور فيها ، والاتجاهات التي يسلكها • وقد عانت ثورات ١٩١٩ – ١٩٢٢ من بعض العملاء والخونة ، كما انها استطاعت بعد تجارب قاسية مريرة ان تنتبه الى اهمية هذا الاعتبار •

رابعا – حماية قواعد الثورة :

ان قوى الثورة لا تستطيع ان تثبت وتستمر ، ما لم ترتكز الى قواعد حصينة توفر لها دائما الحماية اللازمة • وبدون هذه القواعد ، يستحيل

استمرار الثورة . والثورات السورية كلها ، انطلقت كل منها من قاعدة معينة . فثورة العلويين انطلقت من قرية الشيخ بدر . وثورة الشمال من قرية كفر تخاريم . وثورة الدنادشة من تلكلخ .. الخ . غير ان رجال الثورات ، لم يعيروا مسألة القاعدة الاهتمام الكلي . يقول ماوتسي ـ تونغ بشأن القواعد الثورية وأهميتها :

« ان القواعد الثورية هي مناطق استراتيجية ترتكز اليها قوات الثورة للقيام بمهماتها الاستراتيجية ، وللوصول الى اهدافها ، اي لتعزيز قوتها بالرجال والاعتدة والسلاح ، ولابادة قوة العدو . وتتصف حرب العصابات بان تجري العمليات العسكرية فيها بدون مؤخرة ، فقواعد الارتكاز هي مؤخرة قوى الثورة » .

ويصنف ماو القواعد الثورية في ثلاثة انواع : قواعد الجبال ، وقواعد السهول ، وقواعد الشواطىء . فقواعد الجبال هي التي تسترعي الانتباه بالدرجة الاولى ، لان فيها يسهل الاختباء ، وتحدث المفاجأة وضرب العدو الذي لا يستطيع ان ينشر آلياته بصورة مرضية في خط القتال ، بالنظر لصعوبة الحركة في الاماكن الوعرة . وتعتبر قواعد الارتكاز في الجبال ، حصونا مهمة ومنيعة في مصارعة الغزاة . أما القواعد السهلية ، فانها اقل اهمية من قواعد الجبال ، ولكن هذا لا يعني عدم امكانية انشاء قواعد تساعد على توسيع نطاق حرب الثورة .

وتصنف القواعد حسب أهميتها ومدى استعمالها الى : القواعد الرئيسية ، القواعد الفرعية ، والقواعد الاحتياطية . ومركز القاعدة الرئيسية يكون سريا ، وتؤمن سلامته قواعد سرية ايضا . اما القواعد الاحتياطية فتكون جاهزة دائما عند اكتشاف وتعطل القاعدة الرئيسية . كما ان هناك نوع آخر من القواعد ، يسمى بالقواعد الوهمية ، وغايتها تضليل العدو ، وايهامه بانها هي القواعد الاساسية .

وقد دلتنا تجارب ثورات ١٩١٩ – ١٩٢٢ ، على ان تعزيز قواعد الارتكاز ضرورة حيوية لاستمرار الثورة وانجاحها . فقدكانت قاعدة الشيخ بدر في ثورة العلويين هي القاعدة الرئيسية والوحيدة للثورة ، ولم تكن توفر لها الحماية والسرية اللازمتين . من اجل هذا ظلت الهدف الدائم لهجومات الفرنسيين . حتى استطاعوا احتلالها في أواخر عام ١٩٢٠ . وهنا اضطرت قيادة الثورة ان تنتقل دون تحضير او سابق قرار ، الى قريةبشراغي في قضاء جبلة . وهنا حدثت ايضا الخطيئة السابقة ، فلم ينشأ مركز جديد ليكون قاعدة مركزة للانطلاق .

وكما حدث في ثورة العلويين ، حدث ايضا في ثورة الشمال . كانت كفر تخاريم هي قاعدة الثورة الاولى والوحيدة . وعندما تم احتلالها في ربيع ١٩٢١ ، لم يجد الثوار قاعدة ثابتة للانتقال اليها . وهذه المشكلة انطبقت ايضا ، على الثورات الصغيرة التي اندلعت في ذلك الحين .

والنتيجة ، لو توفرت لثورات ١٩١٩ – ١٩٢٢ تلك الشروط الآنفة الذكر ، لامكن استمرارها مدة اطول ، ولكانت قد دعمت جيدا بثورات ١٩٢٥ – ١٩٢٧ وتبدل مجرى الاحداث من اساسه .



التكتيك الذي استخدمته ثورات ١٩١٩ ـ ١٩٢٢

لم ينهج الثوار في اعمالهم الحربية تكتيكا مدروسا معتمدا على مبادىء معينة • وذلك كما اوردنا ، لفقدان عنصر التوجيه السياسي والقيادة العسكرية • ولكن أعمالهم ، رغم كل شيء ، راحت تأخذ على الايام ، وبعد العديد من الاشتباكات والتجارب المريرة القاسية ، شكلا من اشكال التكتيك • مما جعل فرنسا ، الدولة العظمى في ذلك الحين ، التي خرجت من الحرب منتصرة ، ان تضع كل قواها التعبوية والسياسية والعسكرية ، في ميزان ، والثورات السورية الوليدة في ميزان مقابل •

لم يكن ثوار ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ مستعدين للثورة ، ومع هذا ثاروا ، كأعنف ما يفعل الثائرون حتى في العصر الحديث ، وقد استحدثوا في ثورتهم نوعا من التكتيك ، وضعت له فيما بعد الدراسات والنظريات والتعاريف المستفيضة • وعندما حمل صالح العلي وابراهيم هنانو ونجيب العويد البندقية للمرة الاولى ، اكتسبوا على الفور الميزات الاولية المتطلبة من الجندي المحارب • هذه الميزات التي كانت تدرس في كليات اركان الحرب ، بالاضافة الى الهدف الاسمى الذي كانوا يؤمنون به ، « الدفاع عن الحرية » وبذلك اصبحوا قادة حقيقيين • وبالغريزة وحدها تعلموا كيف يحصلون على الصفات والواجبات المتطلبة من القائد ، وان ينموا في نفوسهم هذه الميزات باستمرار •

اما جنود الثورة ، المجاهدون والمتطوعون ، فقد تفهموا بالممارسة

دورهم الكامل في بنـاء الثورة ، وقاموا بدور الجندي في الطـاعة وتنفيذ الاوامر والقتـال • عرفوا كيف يستعملون الارض للتربص والترصـد والتنقل ، وعـرفوا كيف يستعملون اسلحتهم الفردية المتعددة الاشـكال المختلفة الهوية والعيارات ، وتفهموا جيدا معنى الوقاية من عيون العـدو ونيرانه الارضية والجوية ، ومن طبيعة الارض التي كانوا يتحصنون فيها ، اخترعوا تكتيكهم الخاص •

كانوا قد استنفروا انفسهم على الدوام ، وجهزوا أحوالهم للطوارىء • فلم يخلع احد منهم مـلابسه طوال الايام والليـالي ، وظلت اسلحتهم الى جوانبهم ، واحيانا مربوطة باذرعهم او اعناقهم ، وما انفكت اصابعهم عـن تطويق الزناد •

وعند القيام بالاعمال الحربية ، كانوا يجتنبون الفوضى والتردد • فاذا وجدوا امام قوة متفوقة عليهم ، عمدوا الى تهديد جوانب العـدو او مؤخرته ، بينما يتراجع قسم منهم الى الاتجاه المعاكس للعدو ، للاحاطة به ومفاجأته • واذا طوقهم العدو ، عمدوا الى فك الطوق بشن هجوم ناري كثيف على اضعف نقطة من نقاط القوة المطوقة • وعند الاعمال الدفاعية ، كانوا ينبشون الارض ويرسخون فيها ، بحيث لاتجدي المدفعية ولا الطائرات ولا اعنف النيران المنصبة في اقتلاعهم منها • وعندما تضطرهم قوة متفوقة العدد والعدة الى التراجع ، لا يفقدون سيطرتهم على انفسهم ، بل يتراجعون بناء على خطة منسقة محكمة ، من مكان محصن الى مكان آخر محصن ، من مرتفع الى مرتفع ، من واد الى واد ، من خندق الى خندق ، حتى ينهك العدو ، فيكرون عليه بهجوم معاكس

وعند السير للقيام بمهمة من المهمات ، كانوا يحافظون على اسـاليب تأمين السلامة • ويضعون الحراسة المتحركة في مختلف الجهات ، في المقدمة والمؤخرة والجانبين • وكانوا في تقدمهم المكشوف ، يسيرون متفـرقين ،

تفصل بين كل جماعة وأخرى مسافة كبيرة • وفي الجبال والمناطق المشجرة ، كانوا ينقسمون الى رتلين طويلين ، او الى ارتال تتعاون فيما بينها على تأمين السلامة • وعند ظهور الطائرات ، او قوات من العدو ، كانوا يأخذون الارض بسرعة ، حيث يتوارون عن الانظار ، او يدبرون خطة للقيام بالعمل المناسب •

كان تكتيك ثورات ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ ، يعتمد على الظروف وطبيعة الارض ونوع السلاح ، ومع ذلك فقد استطاع مع الايمان الكامل والمعنويات العالية ، ان يثمر افضل الثمر • وان يحرز انتصارات يمكن اعتبارها من اعظم انتصارات الوطنيين في التريخ • ومن يعتبر ان ثورات ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ قد فشلت ، فانه يرتكب خطأ مبينا • فهذه الثورات لم تفشل ، ولكنها قامت بدورها التاريخي على احسن وجه • وكانت من الاسباب التي دفعت الرأي العالمي في قارات الارض الخمس ، لان يعبر عن عواطفه ، وان يجبر مؤتمر باريس للمر الثانية ، ان يرسل لجنة الاستفتاء الى سورية ، لتقوم باستطلاع الموقف ، ومعرفة رغبات الشعب السوري وتنفيذها •

وقد وصلت لجنة الاستفتاء الى دمشق في اول نيسان ١٩٢٢ • وهيأ لها الوطنيون عدة اجتماعات لتتعرف على مطاليب الشعب • واتخذ وداعها في ٦ نيسان شكل مظاهرة شعبية رائعة ، ضمت الالوف من ابناء الشعب وكان على رأسها بعض الساسة الشرفاء • وكان المتظاهرون يهتفون : « نحن لا نرضى الحماية ولا نقبل الوصاية •• الاستقلال التام او متابعة الثورة » وقد استاء الفرنسيون من هذا الحادث ، الذي كان تكذيبا لكل ما كانوا يتبجحون به ويروجونه ، من ان السوريين قد القوا السلاح ورضوا بالانتداب • فقبضت على عدد ممن اشتركوا في المظاهرة ، وزجت بهم في السجون • وكان ذلك سببا في انتفاض الجماهير ، فقامت مظاهرات الاحتجاج ، في كل انحاء الوطن العربي ، وخاصة في المدن السورية • وقد

استمرت هذه المظاهرات عدة ايام ، واشترك فيها النساء والشيوخ والاطفال • ونزل الجيش الفرنسي الى الشوارع ، حيث راح يطلق النار على المتظاهرين العزل من السلاح ، فسقط المئات من القتلى والجرحى ، أعلن بعدها الاضراب العام • وبدأ الفرنسيون يتخذون التدابير الزجرية لقمع الاضراب • فحاكموا المعتقلين امام محكمة عسكرية ، بمقتضى قوانين الطوارىء ، بتهمة التحريض والعمل على قلب نظام الحكم ، وقد اعتبروا هؤلاء الوطنيين العرب فرنسيين في ارض فرنسية • وبعد ذلك صدرت الاحكام ضدهم بالسجن ما بين مؤبد وعشرين سنة مع الاشغال مع النفي الى المستعمرات •

وتجددت المظاهرات عقب صدور الحكم ، واغلقت الاسواق والمحلات التجارية اسبوعا كاملا • فاضطرت السلطات الفرنسية الى نقل المعتقلين الى جزيرة ارواد ثم اطلاق سراحهم في ٢٣ تشرين الاول ١٩٢٣ • وكان قد بلغ عدد المحكومين والمعتقلين في هذه الحوادث ، ما ينوف على الاربعمائة ، من السياسيين والشيوخ والشباب • وفي هذه الاثناء كان الفرنسيون ، ما يزالون مستمرين في حملات الاعتقالات ، رامين من وراء ذلك الى مكافحة الوعي الثوري الذي انتشر بين الناس ، انتشار النار في الهشيم •

اما فيما يختص بنتائج الاستفتاء التي حملتها معها اللجنة الى اوروبا ، فكانت تعبر تعبيرا واضحا عن رغبات الشعب السوري واصراره على تحقيق أمانيه • وأخذ السيد كراين رئيس اللجنة الدولية ، يصرح اينما حل وانتقل في البلاد الامريكية والاوربية عن مشاهداته في البلاد السورية • وكان يقول : بانه يتعذر حمل الشعب السوري على قبول الانتداب او الحماية مهما كان نوعها أو اشكالها • وأن السوريين لا يرضون سوى الاستقلال الكامل غير المنقوص • وأن الروح العدائية التي يكنها الشعب ضد الاجانب ، ليس مبعثها الدين ولا التخلف الحضاري ، بل هي عواطف وطنية يشترك في ابرازها السوريون جميعا ، على مختلف طوائفهم واديانهم • وقد دعا

السيد كراين الصحافيين الاجانب لزيارة سورية ، والتأكد من صحة نتائج استفتائه •

ولكن الفرنسيين أخذوا يشوهون هذه الحقائق ، ويطعنون بسمعة رئيس لجنة الاستفتاء والتقليل من شأنه ، على مستوى دولي ومحلي ، لاقناع العالم والسوريين بصورة خاصة ، بعدم جدوى الاعتماد على مسألة الاستفتاء • وقد اذاعوا بيانا يقولون فيه : ان كراين واقع تحت طائلة القانون العسكري الفرنسي بدعوى التحريض على التمرد والثورة •

وعقب ذلك نشطت اللجان التنفيذية للمؤتمرات السورية خارج البلاد ، فراحت تذيع البيانات ، وتطير البرقيات الى رؤساء الدول والمسئولين في العالم ، شارحة القضية السورية وطالبة ان يعطي الشعب العربي في سورية حريته واستقلاله •

وعلى هذا الاساس ، كانت ثورات ١٩١٩ - ١٩٢٢ عبارة عن افتتاحية النضال الشعبي المسلح والسلمي الذي استمر خمسة وعشرين عاما وكانت المهمة الاساسية للتحفز الذي كان يكمن في نفوس الجماهير • وكانت بداية البركان الثائر في تاريخ الحركات الوطنية ، والانتفاضات الشعبية التي أدت الى جلاء الاجنبي الى غير رجعة •

وأخيرا اذا قدر لهذه الثورات الا تستمر الى النهاية ، فليس ذلك لاعتبارات يمكن السيطرة عليها واخضاعها ، بل لسبب واحد رهيب ، كان الضربة القاصمة في فقرات العملاق ، وهي ضربة « ميسلون » ••••

الفصل السادس

١ ـ اعلان الاستقلال الاول

عندما نفذت اوامر القيادة العليا للقوات الانكليزيةالفرنسية ، واستولت الجيوش الفرنسية على السواحل السورية ، واندلعت الثورات في هذه المناطق ، لم يقف الرأي العام العربي على الحياد ، بل هاج هياجا شديدا وراح يحتج ويصخب • غير ان الانكليز حاولوا تسكين الاعصاب الثائرة بادعاءاتهم : ان هذه تدابير عسكرية محضة ، لا تؤثر في مصير البلاد ، ولا تعني تقسيم سورية تقسيما سياسيا • وان تقرير مصير سورية سيكون من خصائص مؤتمر السلم الذي سيلتئم في باريس بعد انتهاء الحرب •

أما ما حدث في الواقع ، فهو ان قسمت البلاد السورية ـ بأمر القيادة البريطانية العليا ـ الى ثلاث مناطق عسكرية : شرقية ، وعهدت ادارتها الى الجيش العربي بقيادة الامير فيصل بن الحسين • وغربية ، بادارة الجيوش الفرنسية • وجنوبية ، بادارة الجيوش البريطانية •

وكانت المنطقة الشرقية تتألف من سورية الحالية باستثناء محافظة اللاذقية ، مضافا اليها شرق الاردن وأقضية حاصبيا وراشيا وبعلبك والبقاع • اما المنطقة الغربية ، فتشمل الساحل كله ، من الاسكندرونة حتى الناقورة • والمنطقة الجنوبية تنحصر في فلسطين وحدها •

وقد احتلت الجيوش الفرنسية ـ بعد استسلام تركيا ـ منطقة كيليكيا التي عرفت باسم المنطقة السورية الشمالية • وصارت القيادة الفرنسية تعرف باسم « القيادة العليا للجيوش الفرنسية في المشرق وكيليكيا » •

وعلى هذا ، فقد بدأت الحياة السياسية في سورية في ظـروف سيئة وقاسية جدا • لانها منيت منذ اول ايام تكوينها ، بضربة خطيرة أبعدتها عن السواحل ، وحرمتها من الجمارك ، وسلمت جميع مرافئها وجبالها الساحلية الى ادارة الجيوش الفرنسية •

ولما كانت فرنسا تطمع في امتلاك سورية ، وتعد العدة لبسط نفوذها عليها ، فقد بدأت تسعى اولا الى تقوية نفوذها وترسيخ اقدامها في المنطقة التي احتلتها ، وان تستعمل بعد ذلك كل ما تملك من وسائل سياسية ودعائية ومادية في دس الدسائس ، واحداث المشاكل في المنطقة الداخلية ، تمهيدا لبسط سيطرتها عليها ايضا ولو بعد مدة •

في حين كان على عاتق القيادة العربيـة ، ان تؤسس دولة جديدة ، يتوفر لها الاستقرار ، لتلتف الى الشئون المترتبة عليها ، في بلاد قاست ماقاسته من أهوال الحكم التركي الطويل ، وآثار الحرب العظمى التي كانت احدى ميادينها • وفي الوقت نفسه كان عليها ان تكافح الدعايات الفرنسية ، وتعمل « سلميا » على اجلاء الفرنسيين عن المناطق الساحلية •

ولا شك ان العمل « السلمي » لم يكن مجديا • وما ادركه الفلاحون فات على المسئولين الرسميين في ذلك الحين ادراكه • كما ان الفرنسيين والانكليز طمأنوا انفسهم قائلين : ما دام العمل سيكون سلميا ، فعلينا ان ننفذ خططنا • وقد نفذوا مشاريعهم فعلا ودون تلكؤ • اذ انه لم تمض علـى التقسيمات الآنفة الذكر مدة طويلة حتى تم الاتفاق بين فرنسا وانكلترا ـ في ١٥ ايلول ١٩١٩ ـ على توسيع خط سايكس ـ بيكو ، بجلاء الانكليز عن

الاقضية اللبنانية الاربع وتسليمها للفرنسيين • وكانت هذه الاقضية حاصبيا وراشيا والبقاع تحتلها الجيوش الانكليزية لحساب الجيش العربي •

وما ان انتشر خبر هذا الاتفاق ، حتى قررت الحكومة العربية ـ تحت الهياج الشعبي ـ ان تقف منه موقف الحزم • فاحتجت على قرار الاستبدال هذا ، وابلغت القيادتين بانها لن تسمح بدخول الجيوش الفرنسية الى أي قسم من اقسام المنطقة الشرقية ، وانها ستقاوم الجيوش المذكورة بقوة السلاح اذا اقتضى الامر • ولا عجب اذا أدى هذا الموقف الحازم الى تراجع جزئي ، من قبل الفرنسيين والانكليز عن قرارهم التوسعي • فقد عدلوا عن اتفاقهم ذاك ، واستبدلوه بحل وسط رضي عنه الجانب العربي ، وهو ان تبقى المنطقة دون احتلال عسكري من جميع الاطراف ، وتلقى مهمة تأمين الامن فيها على الدرك السوري وحده •

وكان هذا الحادث دليلا واضحا على أن المستعمرين يجربون مايسمى ب « جس النبض » وانهم قد يعرضون عن الاحتلال العسكري ، اذا توفر لهم الاحتلال « بالتراضي » • ولكن الشعب العربي في سورية كان يقف بالمرصاد ، لكل حركة جديدة تبدر من المحتلين ، ويدفع الحكومة الى أخذ مواقف الشدة والحزم بدل مواقف المسايرة واللين • في حين كان سكان المناطق الساحلية والشمالية التي يحتلها الفرنسيون ، قد اقتنعوا تماما بان السياسة وحدها لا تكفي لنيل الحرية ، فأعلنوا الثورة المسلحة دون انتظار « المساومات » •

في هذه الاثناء ، كان الامير فيصل في باريس ، مشغولا ب « المفاوضة » مع كليمانصو رئيس الوزارة الفرنسية ، لعقد معاهدة تنظيم العلاقات بين البلدين • وكانت هذه المفاوضات قد قطعت شوطا كبيرا ، ووصلت الى مرحلتها الاخيرة • ويظهر ان كليمانصو أراد ان يغتنم فرصة التردد التي

يعانيها « الامراء » ، وان يدفع الامير فيصل الى توقيع المعاهدة (١) ، قبل ان

---

(١) المعاهدة بين فيصل وكليمانصو :

« عطفا على التصريح الفرنسي الانكليزي ، بتاريخ ٩ تشرين الثاني ١٩١٨ ، من جهة ، وبناء على المبادىء العامة المختصة بتحرير الشعوب .. الخ ، تؤكد حكومة الجمهورية الفرنسية اعترافها ، للاهلين الناطقين باللغة العربية والقاطنين في ارض سورية .. يعترف صاحب السمو الملكي الامير فيصل بن الحسين بان السوريين لا يستطيعون في الوقت الحاضر ـ نظرا لاختلال النظام .. الخ ـ ان يحققوا وحدتهم ، وينظموا ادارة الامة دون مشورة ومعاونة أمة مشاركة . على ان تسجل تلك المشاركة من قبل جمعية الامم عند تكونها فعلا ، وباسم الشعب السوري يطلب هذه المهمة من فرنسا .

١ ـ تتعهد الحكومة الفرنسية بان تمنح معاونتها للامة السورية بجميع أنواعها ، وان تضمن استقلالها ضد كل تجاوز ضمن الحدود التي سيعترف لها بها مؤتمر السلم ، وفي تعيين هذه الحدود ستبذل الحكومة الفرنسية جهدها لنيل جميع التعديلات الحقة من الوجهة الجنسية واللغوية والجغرافية .

٢ ـ يتعهد صاحب السمو الملكي الامير فيصل بان يطلب من حكومة الجمهورية الفرنسية ، ومن هذه الحكومة وحدها ، المشاورين والمدربين والموظفين الفنيين الضروريين لاجل تنظيم جميع الادارات الملكية والعسكرية . وهؤلاء المشاورون الاخصائيون ، سيأخذون تعويضهم من الحكومة السورية . وتوصلا للتنظيم المالي الذي هو القاعدة الاساسية لمجموع ادارة الدولة الجديدة ، يشترك المستشار المالي في اعداد ميزانية الدخل والخرج ، وله ان يفتش حصة سورية من الديون العمومية العثمانية . وستكون السكك الحديدية المعطى امتيازها تابعة لصلاحية مستشار النافعة الفرنسي . كما تمنح الحكومة الفرنسية معاونتها لتنظيم الشرطة والدرك والجيش السوري. ويعترف صاحب السمو للحكومة الفرنسية بحق الاولوية التامة بالمشروعات والقروض المحلية .

٣ ـ سيقيم صاحب السمو في باريس لدى ناظر الامور الخارجية

يجرفه التيار • وقال له بالحرف الواحد : «انني انصحك ان تقبل هـذه

مفوضا ينتـدبه سكرتيره للامور الخارجيـة ، ويكون مأمورا يتعقب المسائل الخارجية التي تهم الامة السورية • وسيعهد الى ممثلي فرنسا السياسيين وقناصلها في الخارج بتمثيـل مصالح دولة سورية الخارجية • وسيكون للمفوض السوري في باريس مندوبون تابعون لامره في لنـدن وروما وواشنطن ضمن نطـاق « كادر » السفارة الفرنسية ، ووظيفتهم رؤية المسـائل المختصـة باحوال السـوريين الشخصية وسيعهـد للقناصل بمهمة القضية السورية •

٤ ــ يعترف صـاحب السمو ، باستقلال لبنـان تحت الوصايـة الفرنسية •

٥ ــ يتعهد صاحب السمو ، بان يسهل بالمشاركة مع فرنسا بتنظيم دروز حوران بشكل وحدة مختـارة داخل الدولة السـورية تكون مجهزة بأوسع « مختارية » تلتئم مع وحدة الدولة •

٦ ــ تتعهد الامة السورية بان تبذل في كل فرصة وبكل قواهـا مساعدتها التامة لفرنسا ، امتنانا من العهد الذي قطعته لهـا الحكومة الفرنسية • والامة السورية تمنح ايضا مساعدتها للحجاز ، بالاتفاق مع فرنسا ، وذلك امتنانا من الضحايا التي رضي بها لتحريرها ، وبسبب صفته المقدسة عند المسلمين •

٧ ــ يعترف باللغة العربية لغة رسمية ، وتعلم اللغـة الفرنسية كلغة معاونة وبصورة اجبارية وممتازة •

٨ ــ تكون دمشـق العاصمة الادارية والتشريعية ودار الاقامـة العادية لرئيس الدولة • ويجعل المندوب ، القومسير العالي الفرنسي ممثل الدولة المساعدة ، اقامته العادية في حلب ، ليكون قريبا من كيليكيا ، وهي منطقة الحدود التي تجتمع بها عادة الجيوش والحاميات •

٩ ــ يـكون لرئيس الدولة السورية وللمندوب العـالي الفرنسي مشتى في بيروت التي ستتمتع بادارة بلدية مختارة •

المعاهدة ، وان توقعها وانا في الحكم ، لانني أؤكد لك بأنه لا يمكن ان تأتي بعدي حكومة ترضى حتى بجزء مما رضيت به انا الآن •• »

كان الامير فيصل يميل شخصيا الى توقيع هذه المعاهدة ، غير ان بعض مستشاريه من السوريين ، وقفوا حائلا دون ذلك ، وحذروه بشدة ، طالبين اليه ان يؤجل توقيعها حتى يطلع جيدا على آراء الشعب السوري الذي سيرفضها قطعا ومن أساسها[١٠]

والواقع أن أخبار هذه المعاهدة وبنودها وصلت الى سورية قبل عودة الامير اليها • فأوجدت في نفوس الشعب قلقا وبلبلة عنيفة • وعندما وصل الامير وجد الجو مكهربا والنفوس تمور بالغليان • مما اضطره ان يترك مسألة التوقيع على المعاهدة ، رغم اعتقاده الشخصي بفائدتها ، ويستسلم للتيار الوطني السائد في البلاد •

وفي الوقت الذي كانت فيه المعارك الطاحنة تدور بين الثوار والجيوش الفرنسية حول الشيخ بدر وكفر تخاريم والنفوس تغلي في الداخل ، كانت آراء المفكرين والسياسيين السوريين ـ بعد مسألة المعاهدة ـ قد اتجهت اتجاها جديدا ، وصارت تنزع الى احداث « امر واقع » ، باعلان استقلال سورية حالا ، دون انتظار مقررات مؤتمر الصلح بشأن مصير البلاد •

كان وضع الحكومة والجيش العربي في سورية من أغرب وأدهش الاوضاع في التاريخ •• فالجيش من الوجهة القانونية لا يزال جزءا من جيوش الحلفاء ـ فرنسا وانكلترا والعرب ـ تابعا الى القيادة العامة للمارشال

---

١٠ ـ يبقى هذا العهد الذي تضبط به المبادىء العمومية ، مكتوما بين الفريقين الى حين التوقيع القطعي المفصل الني سيحرر في اول رجوع صاحب السمو الى فرنسا وسيعرض في الوقت المناسب على مؤتمر السلم ••• »

في ٦ كانون الثاني ١٩٢٠

اللنبي ، شأنه شأن جميع الجيوش المرابطة في الشرق الادنى • وكانت الحكومة السورية ـ من الوجهة القانونية ـ لا تزال ادارة عسكرية ، تدير البلاد وفقا للاوامر المقررة في حقوق الدول لادارة « بلاد العدو المحتلة » • وكان غريبا جدا ان يعتبر الجيش العربي في سورية بهذه الصورة ، مثله مثل الجيش الفرنسي والانكليزي • وكان الاغرب من ذلك ايضا ، ان تعتبر سورية « بلدا عدوا محتلا » بالنسبة للجيش العربي نفسه الذي كان معظم ابنائه من السوريين ، وبالنسبة الى الحكومة المؤلفة من أهل البلاد نفسها •• وتجاه هذه الاوضاع الشاذة الغريبة ، كانت عملية اعلان استقلال سورية تتطلب مجهودا خارقا ومجازفة غير مأمونة العواقب • كانت تعني ان يقام بعملية شبيهة بعملية الانقلاب العسكري • وكان هذا الاجراء ضروريا من جهة أخرى ايضا : لان « نظرية الحكومة العسكرية التي تدير بلادا عدوة محتلة » كانت تعرقل تشكيلات الدولة العربية وتحول دون تنظيم الامور واصلاحها بحرية كافية • حتى انه عندما تقرر تأليف « مجلس المديرين » في ٤ آب ١٩١٩ لتنظيم امور الدولة ، اعترض على ذلك القائد العام الجنرال آللنبي قائلا : « لا يحق لكم ان تفعلوا ذلك لأن هذا العمل يعني تأليف حكومة مدنية ، في حين أن القانون الدولي يحتم عليكم ادارة البلاد ادارة عسكرية » •

ومهما كانت قيمة الظروف والقوانين والاعتبارات التي تهم الدول المستعمرة والتي لن نتعرض لها هنا ، فقد كانت ظروف واعتبارات السوريين تتطلب اتخاذ اجراء سريع وحاسم ، خاصة وان الثورات القائمة في الغرب والشمال ، ومئات الضحايا التي تبذل كل يوم وليلة ، والهياج الشعبي الهائل ، قد أخرج القيادة العربية عن ترددها ، وجعلها توافق على اعلان الاستقلال في ٨ آذار ١٩٢٠ •

وهنا دخلت البلاد السورية في طور جديد ، جعل المسؤولين فيها

يجهرون بمطاليب الشعب : « اننا نعلن امام العالم أجمع ان هذه البلاد بلادنا ونحن مستقلون فيها .. » وقد سبب اعلان الاستقلال هذا فرحا عظيما ونشاطا عارما في جميع المرافق السورية وشد في عضد الثورات القائمة وأخرج الجماهير الشعبية من بلبلتها وضيق انفاسها التي اوشكت على الانفجار . في حين أثار غضبا شديدا واستنكارا مذهلا في محافل الاوساط الاستعمارية ، الفرنسية والانكليزية . ومن الغريب ان يكون الانكليز أكثر ضغينة وحقدا على اعلان الاستقلال ، اذ اعتبروه عصيانا وتمردا على قيادتهم العامة ، واستباقا لمقررات مؤتمر الصلح وخروجا على صلاحياته . واستاء وزير الخارجية البريطانية اللورد كيرزون بصورة خاصة مما جاء في بيان الاستقلال ، وارسل برقية شديدة اللهجة ، يستنكر فيها كل ما جاء في هذا البيان .

وهكذا لم يعترف « الحلفاء » المستعمرون بالاستقلال الذي اعلن في سورية ، واستمروا على اعتبار فيصل ــ الذي اصبح ملكا ــ اميرا هاشميا يدير البلاد بصفته قائدا عسكريا في جيش الجنرال آللنبي . وقد ظهر فيما بعد ، ان رجال السياسة في فرنسا وانكلترا ، كانوا على وشك الانتهاء من مساومتهم الطويلة المعقدة ، وقد شرعوا فعلا في تهيئة ما يلزم لتنفيذ الخطط التي اتفقوا عليها .

وأخذت الوقائع تتوالى بسرعة ، وكان رد الفعل المباشر عند الفرنسيين ، ان نفذوا مشاريعهم المالية والاقتصادية فورا ، وبدأوا بالتعبئة العسكرية . فقد اسسوا مصرفا اسموه « بنك سورية ولبنان » ومنحوه حق اصدار الاوراق النقدية . وجاؤوا بكمية كبيرة من تلك الاوراق من فرنسا وأصدروا قرارا يقضي باعتبارها عملة رسمية اجبارية التداول . أما الحكومة السورية فلم تعترف على هذه العملة لأن الغاية منها هي سحب الذهب ــ الذي كان العملة الرسمية ــ من الاسواق السورية ، الى الجيوب الفرنسية . كما

انهم طلبوا من الحكومة السورية وضع سكة حديد رياق ـ حلب تحت تصرفهم ، لنقل الجيوش والعتاد الى الشمال لقمع الثورات التي اشتد اوارها واصبحت تهدد الفرنسيين • وكان رد الحكومة السورية على هذا المطلب ايضا : « نحن اعلنا الاستقلال فعليكم ان تعترفوا اولا بنا قبل ان تتقدموا بمطاليبكم »

وبينما كانت عوامل التوتر بين سورية وفرنسة تزداد دقيقة بعد دقيقة ، كانت السياسة الاستعمارية في اوروبا تسير سيرها الانتهازي المعتاد ، وانتهت الى قرار سان ريمو الذي قضى بوضع سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، ووضع فلسطين والعراق تحت الوصاية الانكليزية • وجاءت اخبار هذه المقررات صدمة عنيفة لأعز أماني الشعب الوطنية ، وأثارت في النفوس هياجا منقطع النظير • فقامت مظاهرات احتجاجية صاخبة في جميع انحاء البلاد ، تطلب من الحكومة ، اتخاذ تدابير دفاعية فعالة لصيانة استقلال البلاد وتحقيق امانيها المقدسة • فاضطرت الوزارة السورية برئاسة رضا باشا الركابي الى الاستقالة • وتشكلت وزارة جديدة برئاسة هاشم الاتاسي كان من أعضائها يوسف العظمة وزيرا للحربية ، والدكتور عبد الرحمن الشهبندر وزيرا للخارجية وبقي فارس الخوري فيها وزيرا للمالية ، وقد أخذت الوزارة الجديدة على نفسها عهدا بالدفاع عن الاستقلال الوليد بكل ما لديها من امكانيات وقوة ••

وبالفعل ، أقدمت هذه الوزارة من فورها على اتخاذ التدابير الدفاعية الفعالة • فسنت قانونا لعقد قرض وطني ، للحصول على الاموال الضرورية لضمان حاجات الدفاع ، كما انها أضافت الى قانون التجنيد الاجباري بعض المواد التي تضمن توسيع التجنيد ، بحيث يشمل جميع افراد الامة • ومن جهة أخرى ، اخذت الهيئات الوطنية والشعبية تنشط في اعمالها ، كما ان الثورات القائمة ازدادت قوة واتساعا ••

وخلال ذلك ، كان الفرنسيون يستعدون للعمل • ويعدون وسائل الهجوم على المنطقة الشرقية واحتلال دمشق • وقد وافق اعضاء (الجمعية الوطنية) بأكثرية الاصوات على المخصصات اللازمة لاعداد الحملةالعسكرية الى « بلاد المشرق » (١) وفي الوقت نفسه ، عقدت القيادة الفرنسية هدنة مع الاتراك لتتفرغ للعمل الحاسم ، فتمكنت من سحب جيوشها من ساحات القتال التركية ، لتحشدها على الحدود السورية • حتى بلغت القوات المتجمعة تحت امرة الجنرال غورو اكثر من مائة الف ، معززة بجميع صفوف الاسلحة ••

(١) لقد ورد ذكر المناقشة في الصفحة (١٦) •

٢ ـ قصة الانذار وتفاعلاته ..

« انكم تقيمون الدليل مرة جديدة على عجز سموكم الملكي عن فرض الطاعة على جيشكم . وهذا ما يجعلني اقل استعدادا لوقف اراقة الدماء باسرع ما يمكن والتفاوض مع حكومة تود باخلاص ان تتعاون مع فرنسا .. »

من برقية الجنرال غورو الى الملك فيصل (١).

كانت القضية تتلخص باحتمالين يسيران في خط واحد ، هو احتلال دمشق . فاما ان يتم ذلك عن طريق القوة ، او عن طريق « السلام » ، كما عبر عن ذلك الجنرال غورو أما المسألة فقد تمثلت للاذهان بهذه الصورة : « كيف يمكن ان تحتل دمشق ..؟ » .

كانت الاخبار ترد من باريس وبيروت ـ بين يوم وآخر ـ تدل على ان الفرنسيين يقومون بحشد القوى الكبيرة على حدود المنطقة الشرقية . كما ان التقارير الصادرة عن مديرية الامن العامة ، كانت تبين بأن أذناب الفرنسيين وعملاءهم يقومون بدعايات واسعة النطاق ، في مختلف المناطق الشرقية نفسها . وأن جماعات من الخونة ـ من موظفين ورجال أعمال وسياسيين ـ يشتغلون لحساب العدو ، ويدسون انواع الدسائس لبث روح الهزيمة والفوضى بين المواطنين .

---

(١) ساطع الحصري : يوم ميسلون ص ٢٩٩

وبالمقابل ، كانت حركة التجنيد والتطوع الشعبي ، تجري على قدم وساق . فوزارة الدفاع برئاسة واشراف يوسف العظمة بالذات ، كانت تصدر البيانات والتقارير الى القصر ومجلس الوزراء ، لاطلاع اعضاء الحكومة على سير هذه الحركات في انحاء البلاد . وكانت الجرائد لا تفتأ تنشر الاخبار والمقالات الحماسية لاضرام نار الوطنية والهاب مشاعر الجماهير . وأخذ الشعب يقوم بمظاهرات صاخبة وعنيفة في كل المدن ، مخترقا الشوارع والميادين ، معلنا عن استعداده لكل انواع التضحية في سبيل الدفاع عن البلاد وحفظ استقلالها .

غير أن كل شيء كان يدل على قرب حدوث الازمة الكبرى التي تقرر مصير البلاد بصورة نهائية ، بعد اشهر من التردد والانتظار الطويلة التي توالت على سورية منذ اعلان الهدنة وانتهاء الحرب العالمية . ولقد انفجرت هذه الازمة بغتة ، بوصول اخبار الانذار الفرنسي في اليوم الحادي عشر من شهر تموز ١٩٢٠ .

كان قد تقرر ان يسافر الملك فيصل الى باريس ، لعرض القضية السورية من جديد على مؤتمر الصلح . وأوفد نوري السعيد ـ الذي كان من مرافقي الملك ـ الى بيروت ليطلب من الجنرال غورو اعداد وسائل السفر . ولكن الجنرال امتنع بكل بساطة عن تلبية هذا الطلب . وأعلم نوري السعيد بأنه أعد انذارا رسميا سيرسله الى الملك بعد بضعة ايام . وبأنه لن يسمح للملك فيصل بالسفر الى اوروبا ما لم يقبل الشروط التي يتضمنها الانذار . وقد ذكر غورو لنوري السعيد أهم الشروط التي سيطلبها في انذاره العتيد ، وهي :

١ ـ وضع سكة حديد رياق ـ حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي .

٢ ـ تسريح الجيش السوري والغاء التجنيد والتطوع .

٣ ـ قبول الاوراق النقدية التي اصدرها بنك سوريا ولبنان •

٤ ـ معاقبة الثوار الذين استرسلوا في معاداة فرنسا •

ولا شك ان الشرط الاخير ، وحده ، كاف ليكون اعلان الرفض صريحا وعنيفا على شكل بركان • واذا كان قد وجد بين افراد الحكومة من يقبل هذه الشروط ـ فرادي او مجتمعة ـ بلا اهتمام ، فان الشعب استطاع ان يعبر عن استنكاره لها بالهياج والوقوف منها موقف الحزم وعدم التواطؤ •

وعلى هذا فقد كان الموقف الذي يجب على الحكومة ان تقفه ، هو الاستجابة الى ضمير الشعب • غير انها ارتأت انه من الحكمة اولا ـ ولظروف دفاعية ـ ان تستنجد بضمير العالم المتمدن وبمبادىء الدول المتحالفة ، وان تطلب احالة القضية الى التحكيم • وقد فعلت ذلك فورا ، دون ان تنتظر وصول الانذار بصورة رسمية • ومن سوء الحظ ان ضمير العالم المتمدن في ذلك الحين كان يفتك به جرثوم الاستعمار البغيض ، وتسلم قناصل الدول صورة الاحتجاج السوري ، وهم يتثاءبون ، ليعودوا الى خرائطهم وليتموا « غرس الدبابيس » •

وقد وصل الانذار الفرنسي في اليوم التالي لتسلم قناصل الدول الاجنبية للاحتجاج السوري • ويظهر ان الفرنسيين قد تعمدوا ان يشوهوا عيد الثورة الفرنسية الكبرى ، عند ارسالهم هذا الانذار في الرابع عشر من تموز • (١)

يبدأ الانذار بمقدمة طويلة ، تستعرض الوقائع التي حدثت منذ انتهاء الحرب ، وتتهم الحكومة السورية بتنظيم العصابات وتحريض الشعب على

---

(١) نص الانذار الفرنسي بتاريخ / ١٤ تموز ١٩٢٠
من الجنرال غورو المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية وكيليكيا والقائد العام لجيوش المشرق •

كره الفرنسيين ، ثم يذكر الشروط التي تطلبها فرنسا من سورية • وكان

الى صاحب السمو الملكي الامير فيصل بن الحسين •

باسم الحكومة الفرنسية ، لي الشرف بان اعرض على سموكم الملكي لآخر مرة موقف حكومتي ازاء السلوك الذي سلكته حكومة دمشق منذ مطلع هذا العام :

سادت السكينة في سورية ابان الاحتلال الانكليزي • ولم يتعكر صفو الامن وتبدأ الاضطرابات فيها ، الا عندما حلت جنودنا محل الجنود البريطانية • وقد أخذت الاضطرابات تشتد منذ ذلك الحين •

ولقد أثرت هذه الاضطرابات في رقي سورية ونظامها السياسي والاداري والاقتصادي ، أكثر من تأثيرها في سلامة جنودنا وفي الاحتلال الفرنسي للمنطقة الغربية • فحكومة دمشق تحمل كل التبعة ازاء أهالي سورية الذين عهد مؤتمر الصلح الى فرنسا بأن تمنحهم حسنات ادارة مؤسسة على الاستقلال والنظام والتساهل والثراء • ان الرغبة في الصداقة والتعاون التي اظهرتها فرنسا لسموكم ـ بتأييدها حقوق الاهالي الذين يتكلمون العربية ، على اختلاف مذاهبهم ، ويقطنون القطر السوري ، بحكم انفسهم بانفسهم كأمم مستقلة ـ فقد اجبتم عليها سموكم معترفين بأن للشعب السوري مصلحة كبيرة في طلب المشورة والمساعدة من دولة كبيرة ، لتحقيق وحدته وتنظيم شؤونه ، نظرا للتضعضع الذي اضعف البلاد من الارهاق التركي والاضرار التي نتجت عن الحرب ، تلك المشورة والمساعدة التي ستسجلها عصبة الامم عندما تتحقق بالفعل • وقد دعا سموكم الملكي فرنسا للقيام بهذه المهمة باسم الشعب السوري •

وعندما كنتم تفاوضون الحكومة الفرنسية في شهر كانون الثاني الماضي ، وكانت العصابات الخارجة من دمشق تجتاح المنطقة الغربية ، ارسل الي المسيو كليمانصو البرقية التالية :

« عندما بلغني خبر هجوم البدو في جنوب سورية وشمالها ، قلت للامير فيصل انني اتفقت معه موقتا على بعض المبادىء ، وانني احافظ على كلامي • ولكن يجب ان يقابل معاملتي هذه بمثل ما فيها من الاخلاص ، وان يجعل سلطته محترمة من انصاره • فاذا لم ينفذ هذين الشرطين تنفيذا

دقيقا ، فالحكومة الفرنسية تستأنف العمل بحرية وتستعمل القوة لفرض ما عهد به اليها المؤتمر في تأييد النظام واحترام الحقوق ٠ »

والبيان الآتي ، يوضح جليا كيف ان حكومة دمشق لم تنقطع عن انتهاج خطة معادية ومخالفة كل المخالفة لسياسة التعاون التي رمى اليها رئيس الوزراء وتعهدتم بتطبيقها :

١ ـ عداء واضح على قواتنا :

ان اصرار حكومة دمشق على رفض السماح للسلطة الفرنسية باستعمال سكة حديد رياق ـ حلب ، هو عمل عدائي بحت ٠ فالحكومة لا تجهل ان تلك السكة لا بد منها لاعاشة فرقنا الفرنسية في الشمال وتمكينها من القتال ، دفاعا عن حدود سورية الجديدة ، التي يجب ان تربطنا بها روابط المصلحة وعرفان الجميل ٠ ان حكومة دمشق على علم بتنظيم العصابات واستخدامها ضد جنودنا ٠ هذه العصابات التي ترتكب كل يوم عملا جديدا ضدنا ، فتربك اعمالنا وتخلق الفوضى ٠٠ وتهاجم مخافرنا في طرطوس وحارم وتلكلخ ٠ وقد سوعد الشيخ صالح العلي ، بطل الفوضى والبغضاء لنا ، وابراهيم هنانو الذي الف عصابة لنشر الرعب والفزع في صفوف قواتنا ٠ ومن الممكن ان تساق كثير من الامثلة على هذه الاعمال التي عرضناها على سموكم في حينها ٠

٢ ـ سياسة حكومة دمشق العدائية :

رأي سموكم ادخال اشخاص مشهورين بعدائهم لفرنسا في حكومة دمشق ٠ وكان تأثير المحيط شديدا فيكم ٠ حتى انكم لم تتمكنوا من السفر في الوقت المناسب تلبية لدعوة مؤتمر الصلح ٠ وقد تألفت الوزارة من أناس من تلك الفئة التي لا تقتصر خطتها على اهانة فرنسا ورفض مساعدتها ، بل تتناول المجلس الاعلى الذي منح فرنسا الانتداب على سورية ٠ ان رفض انتداب فرنسا رفضا باتا هو خطة عمياء ، قد تجر نتائجها المصائب على سورية ٠

٣ ـ التدابير الادارية الموجهة ضد فرنسا :

ان المقاومة المالية الظاهرة في رفض ورق النقد السوري الجديد الذي

ستكون الهدف الاساسي لحركات الجيوش الفرنسية • ومـن المعلوم ان

اصدره بنك سوريا ولبنان لحساب فرنسا ، ومنح جميع المعاملات التجارية والمالية مع فرع بنك سورية في المنطقة الشرقية ، هو دليل جديد على العداء يضر بمصلحة البلاد ايضا • ويصح ذلك على منع نقل الحبوب الى المنطقة الفرنسية من حماة ودمشق وحلب •

٤ ــ أعمال عدائية مباشرة ضد فرنسا :

ان كل من كان صديقا لفرنسا في المنطقة الشرقية او مواليا لها يكون مشتبها به وغير آمن على حريته دون ان يحميه رجال الامن ، ويعامل معاملة سيئة في اغلب الاحيان • ومن الادلة الظاهرة على ذلــك أن فارس غنطوس ونسيب غبريل (*) اللذين ضمنت حكومـة دمشق رسميا رجوعهمـا الى راشيا ، اسيئت معاملتهما ووضعا حال وصولهما في السجن • وفي ٢٢ كانون الثاني ، هوجم في وادي القرن ، وفد من شخصيات المنطقة الشرقية ، جاؤوا لتحيتي في بيروت ، وقتل عدد من رجاله على ايدي رجال العصابات • كما ان صحافة دمشق تواصل دائما حملاتها على كل ما هو فرنسي ، وتقبح السلطة المحتلة في المنطقة الغربية • وترد كل مساعدة تعرضها فرنسا على سورية ، وتهينني انا شخصيا اقبح الاهانات •

٥ ــ الاعتداء على الحقوق الدولية :

بمقتضى هذه الحقوق ، يترتب على قائد جيش الحجاز المحتل للقطر السوري ، الذي لا بد له ان يظل عثمانيا الى ان يقضي مؤتمر الصلح بخلاف ذلك ، أن لا يعمل بغير هذه الصفة • وان يحافظ على الحالة الراهنة وهـو حارسها • ولكنه تصرف عكس ذلك متخذا صفة السيادة العليا • وقد تقرر التجنيد الاجباري ونفذ في كانون الاول ١٩١٩ مع ان البلاد ما تزال بـلادا اجنبية • وهذا العبء الثقيل الذي لا يجدي نفعا ، قد أكره عليه الشعب ، حتى في المناطق التي لها شكل خاص ، كالبقاع ، ونفذ في أناس مستثنين منه كاللبنانيين والمغاربة المقيمين في المنطقة الشرقية •

(*) عميلان لفرنسا اسسا في جنوب البقاع جمعية طائفية ارهابيـة اسمها (جمعية حرمون) الغاية منها مقاومة الحركات الوطنية وكرد فعل لما كان يسميه الفرنسيون بالعصابات العربية •

المسافة التي تفصل دمشق عن المراكز الفرنسية كانت قصيرة جدا ، لاتتجاوز

ثم ان المجلس الملقب بالمؤتمر السوري الذي تألف واجتمع بصورة غير قانونية ، يسن القوانين ، بل يحكم باسم حكومة ودولة لم يعترف احد بوجودها ، وفضلا عن ذلك فقد قدم اللقب الملكي لسموكم بدون حق ولا وكالة ، مما جعلكم في موقف التمرد على مؤتمر الصلح • كما ان الامتيازات الاجنبية لم تعد تحترم في منطقتكم ، فان احد رعايانا الامير مختار الذي يمثل اسرة كبيرة اشتهرت منذ القديم باتصالها بفرنسا ، قد أوقف وأهين من قبل العصاة في حلب •

كما ان الاتفاقيات السياسية غير محترمة ايضا • فان يوسف العظمة المسمى بوزير حربيتكم ، قد ارسل لواء عسكريا الى مجدل عنجر ، رغم الاتفاق التي تم في كانون الاول الماضي مع مسيو كليمانصو والذي يقضي بان لا تحل في البقاع قوة شريفية او فرنسية •

٦ ــ الاضرار التي اصابت فرنسا وسورية من ذلك :

لم تستطع السلطة الفرنسية حتى الآن ان تنظم البلاد التنظيم الذي تنتظره منها • لانها اضطرت الى صرف قواها وجهودها لقمع الفتن المتوالية ، ومواصلة المفاوضات العقيمة مع حكومة دمشق • فهي والحالة غير مسؤولة عن هذا التأخير ، على انها تتحمل العبء العسكري والمالي الذي تقضي به الحالة هذه غير مسؤولة عن هذا التأخير ، على انها تتحمل العبء العسكري والمالي التي تقضي به الحالة التي اوجدتها حكومة دمشق • ولا بد للنفقات من ان تؤثر في الميزانية السورية ، سواء عن طريق تناقص الدخل الذي ينشأ عن استمرار الفوضى ، أو من جراء الاشتراك في نفقات السيادة التي ستقع على عاتقها في المستقبل •

ولقد بلغت الفوضى التي اوجدها مثيرو الفتن في البلاد حدا دعا الى استجلاب قوات كبيرة ، أعظم عددا مما يقتضيه استبدال الجنود الانكليزية في حالة سكينة وسلام • ان هذه الاسباب تدل دلالة كافية ، على انه لا يمكن بعد الآن ان نعتمد على حكومة جاهرت بعداء فرنسا كل المجاهرة ، وأخطأت نحو بلادها خطأ عظيما بظهورها عاجزة عن تنظيمها وادارتها •

لذلك ترى فرنسا انها مضطرة لأخذ الضمانات التي تكفل سلامة

الستين كيلو مترا • وكان هذا الوضع الاستراتيجي يضع المسألة في موقف

جنودها وسلامة السكان ، الذين نالت من مؤتمر السلم مهمة الانتداب عليهم • فاتشرف بابلاغ سموكم الملكي ان هذه الضمانات هي مايأتي :

اولا ـ التصرف بسكة رياق ـ حلب الحديدية بصوة مطلقة ، لاجراء النقليات التي تأمر بها السلطة الفرنسية • ويضمن هذا التصرف ، بأن يراقب مفوضون عسكريون جميع ما ينقل في محطات رياق ، بعلبك ، حمص حماه ، حلب ، تعضدهم قوة مسلحة مخصصة بالمحافظة على المحطة ، وباحتلال مدينة حلب التي هي مركز مواصلات هامة ، لا يسعنا تركها تسقط بيد الجيش التركي •

ثانيا ـ تسريح الجيش والغاء التجنيد :

يجب ان يقف التجنيد تماما ، وان تسرح القوى حتى يبلغ الجيش الشريفي العدد الذي كان عليه بتاريخ ١ كانون الاول المنصرم •

ثالثا ـ قبول الانتداب الفرنسي :

ان هذا الانتداب يحترم استقلال اهالي سورية ، ولا يناقض مبدأ الحكم بسلطة سورية تستمد قوتها من ارادة الشعب • ولا يتضمن سوى معاونة بشكل مساعدة من الدولة المنتدبة ، دون ان يتخذ مطلقا شكل استعمار أو الحاق او ادارة مباشرة •

رابعا ـ قبول العملة الورقية السورية :

تصبح هذه العملة عملة وطنية في المنطقة الشرقية • فتلغى جميع الاحكام المتعلقة بالبنك السوري في هذه المنطقة •

خامسا ـ تأديب المجرمين :

الذين كانوا وما يزالون اشد عداء لفرنسا من الاتراك •

ان هذه الشروط تقدم جملة ، وينبغي قبولها جملة ايضا دون أي تجزئة ، خلال اربعة ايام ، تبتدىء من منتصف ليل ١٥ تموز (اي ١٤ منه الساعة ١٢ ليلا) وتنتهي في ١٧ منه الساعة ٢٤ • فاذا جاءني من سموكم قبل انقضاء هذا الموعد اعلان يشعر بقبول هذه الشروط ، فينبغي ان تكون

على غاية من الضيق والحرج ، وراح اعضاء الحكومة يعقدون الجلسات لدراسة الوضع على ضوء جميع الاعتبارات ٠

اقترح بعض الاعضاء نقل الخزينة مع الاوراق والاضبارات المهمة الى درعا تمهيدا لنقل الحكومة كلها ، ولكن علاء الدين الدروبي رئيس مجلس الشورى ، عارض هذا الاقتراح ، بحجة ان الحوارنة سيثورون لتخاذل الحكومة ، وسيذبحونهم من اعناقهم كما تذبح الخراف وأبدى وزراء آخرون مقترحات مشابهة ، في حين خيم الوجوم التام على آخرين ٠ وكانت الملاحظات والاقتراحات بمجموعها لا تخرج عن نطاق واحد « ما هو العمل » ٠٠؟ وكان ينطبق على أعضاء الحكومة ورجالات القصر كلمة « العدو من أمامكم والشعب من ورائكم » ٠

وفي هذا الوقت كان يوسف العظمة يعمل على نطاق معين ٠ كان يتحرك بنشاط ويظهر تفاؤلا كبيرا في جميع الاعمال ٠ حتى انه اراد ان

أوامركم قد صدرت في الوقت نفسه الى السلطات المختصة بعدم معارضة جنودي الزاحفة لاحتلال المواقع المشار اليها سالفا ٠ ثم ان قبول الشرط الثاني والثالث والرابع والخامس ، يجب ان يؤيد بنصوص رسمية قبل ١٨ منه ، على ان يتم التنفيذ بكامله قبل ٣١ منه منذ الساعة ٢٤ ٠

واذا لم يشعر سموكم في الوقت المحدد بقبول هذه الشروط ، فاني اتشرف بابلاغكم ان الحكومة الفرنسية ستكون مطلقة اليد في العمل ٠ وفي هذه الحالة لا أستطيع ان أؤكد ان الحكومة الفرنسية ستكتفي بالضمانات المعتدلة المشار اليها أعلاه ٠

أما المصائب التي قد تحل بالبلاد ، فلن تقع على عاتق فرنسا التي برهنت على تساهلها منذ زمن طويل ولا تزال تبرهن عليه ٠ فحكومة دمشق هي التي تتحمل مسؤولية الحلول المتطرفة ، التي لا انظر اليها الا آسفا ، ولكني مستعد لها بعزم لا يتزعزع ٠٠٠

عن (يوم ميسلون ، ص ٢٨٤)

يشرع باصدار البلاغات عن التحركات العسكرية الصديقة والعـدوة على السواء • ولكن افراد الحكومة اعترضوا على هذه الخطوة وأوصوه بالتريث وأخذ الحذر ، كيلا يظهر للعالم بأن السوريين كانوا البادئين بالعدوان • واستطاع العظمة ان يفرغ من اتخاذ ترتيباته الدفاعية اللازمة في وقت قصير • وذكر لاعضاء الحكومة اسماء القواد الذين عهد اليهم بقيادة الحركات في مختلف الجبهات •

وكانت أهم هذه الجبهات مجدل عنجر المقامة على سفوح المرتفعات المسيطرة على سهل المرج المؤدي الى شتورا • وعين لقيادة هذه الجبهـة الامير زيد شقيق الملك كما عين رئيسا لاركانه ياسين باشا الهاشمي •

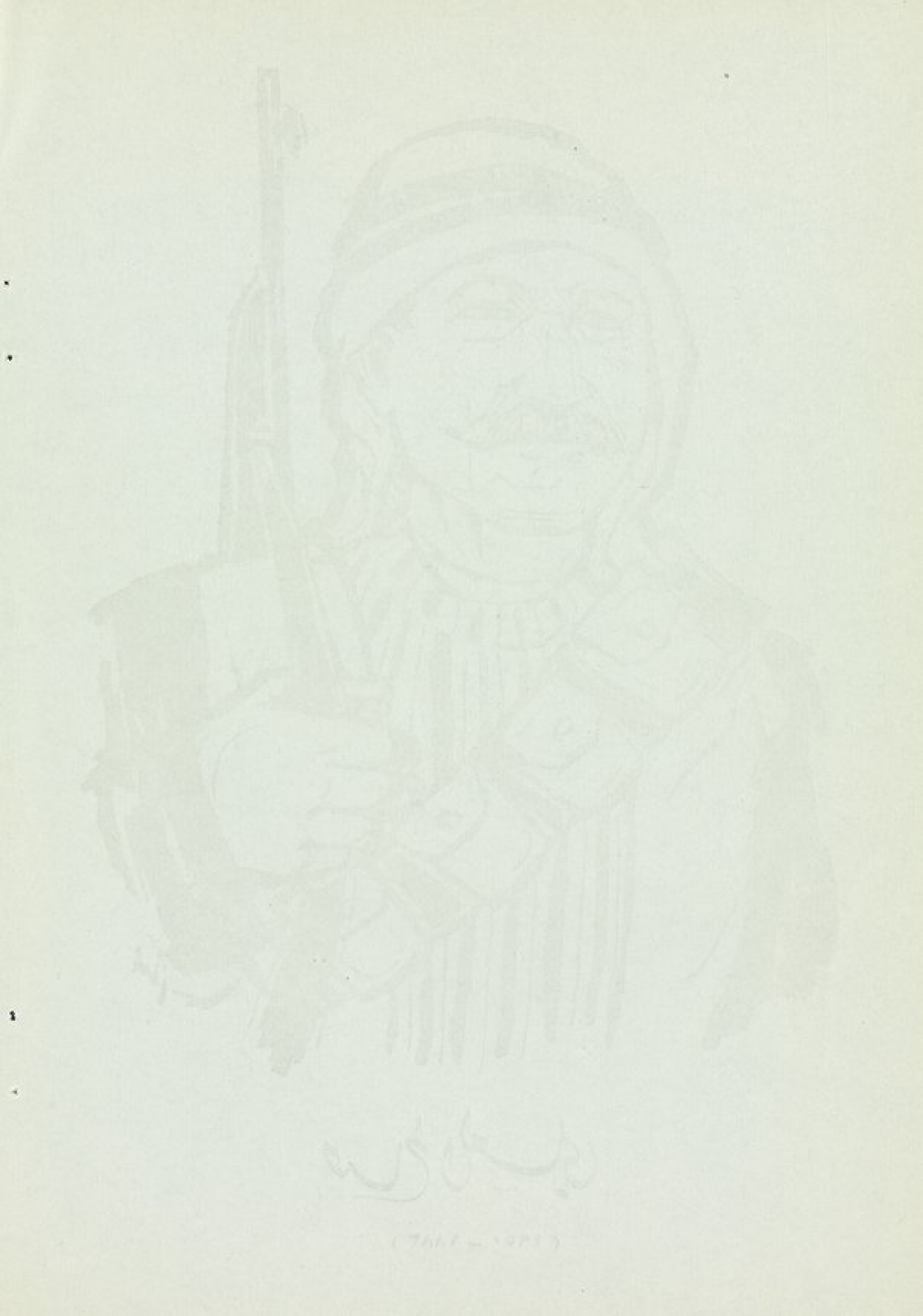
وكان رأي الهاشمي باعتباره كان قائدا للجيش ومطلعا الاطلاع الكافي على احواله وعتاده ، بأن الجيش السوري لا يستطيع ان يدافع عن البلاد ، وأنه لا يستطيع ان يصمد امام جحافل العدو اكثر من ساعتين على اعظم تقدير • وصرح فيما يختص بالمدفعية السورية ، بان المدافع التي تمـر بالاستعراضات ليس لها الا عدد قليل جدا من القذائف ، وهي لا تكفي لحرب ساعة واحدة • وانهى تصريحه للمسئولين ، بان الجيش السوري اذا اشتبك في حرب جدية ، سيصبح بعد ساعة واحدة بلا ذخيرة او عتاد •

والحق ان تصريحات الهاشمي على شؤمها لم تكن خالية من الصحة • فالقيادة الانكليزية لم تكن تمون الجيش العربي ـ العامل تحت امرتها ـ الا بتردد وحذر • ولم تكن تعطيه من العتاد والذخائر ـ حتى اثناء الحرب مع تركيا ـ الا بقدر ما تراه كفيلا بالقيام بالمهمة المطلوبة • وكانت تقتر عليه تقتيرا شديدا لا تترك له ذخيرة تكفي لمناورة صغيرة • وهكذا فوجىء الجيش بالانذار الفرنسي وهو لا يملك المخصصات الكافية للدفاع •



صالح العلي

(١٨٨٣ - ١٩٥٠)



وقد فعلت تصريحات الهاشمي فعلها المطلوب • وكان من نتائجها ان قرر اعضاء الحكومة ـ التي انفصل عنها يوسف العظمة ـ عدم التردد ، والموافقة على شروط الانذار الفرنسي بكل حذافيره ونقاطه وفحواه •• أما الملك فكان مقتنعا بلزوم قبول الشروط منذ البداية ، خاصة بعد ان اجتمع الى ياسين باشا وفهم منه كل التفاصيل • ومما قوى اقتناعه هذا ، أن الانكليز انفسهم نصحوه بعدم رفض الشروط « صيانة لآثار المدينة من الخراب » ••

٣ ـ المؤامرة الكبرى

« اننا نتمنى من صميم قلوبنا ان يحمل جنون العظمة امير دمشق على المواربة ، او على الاجابة رأسا بقوله « لا » •• حتى نزحف الى دمشق مباشرة •• لان تاخيرنا يقضي على نفوذنا في الشرق قضاء مبرما •• »

الجنرال غوابيه(١)

غورو يرسل انذارا • شروط الانذار تلوث كرامة وشرف البلاد • الحكومة تقبل الانذار • شروط الانذار تنفذ على الفور • الشعب يعلم بالقصة •• ينتفض •• يخرج الى الشوارع •• يبدأ المظاهرات الصاخبة • ينادي بسقوط الوزارة • الخطباء يحثون الناس على الدفاع • جموع الشعب تتوجه الى القلعة • تقتحم أبوابها ، تنقض على الاسلحة والذخائر الرجال يتنكبون السلاح ويصرخون : نحن سندافع عن الوطن •• ضابط من البدو يهرع الى الرشاش • يصوب نحو الجموع • يضغط على الزناد • نيران الرشاش تحصد المتطوعين •• يسقط الشهداء بالعشرات الناس يصيبهم الذهول : هل وصل الفرنسيون الى القلعة ••؟ الجموع تراجع ، ثم تتوجه الى القصر • واصوات تنادي بسقوط الملك • الملك ينزعج من الاصوات • يأمر حراسه بتشتيت المظاهرات • رجال القصر يهرعون لتدارك الموقف • المظاهرات يحمى وطيسها •• الهتافات تعلو شيئا فشيئا • المساء يقترب ••

---

(١) ساطع الحصري ـ يوم ميسلون ص ٣٤٥

الظلام يخيم على المدينة •• انه منتصف الليل • المظاهرات لا تخمد •• يبزغ فجر ١٨ تموز •

الجيش قد سرح • المحطات أصبحت بيد الفرنسيين • و •• اغتنم غورو الفرصة ، فأمر قواته بالزحف الى دمشق •• الجيوش الفرنسية تتقدم من شتورا وزحلة نحو مجدل عنجر • ثم تدخل وادي الحرير دون ان تصادف أي مقاومة • اتت الاوامر الى الجيش السوري من القصر بالانسحاب من الجبهة • الجبهة فارغة في وجه العدو • العدو في طريقه الى العاصمة •

في القصر ضابط ارتباط فرنسي اسمه كوس ، عينته قيادة الحلفاء ليبقى بجانب الملك ولورنس • الملك يقابل كوس محتجا : ماذا تفعلون ••؟ ألم نقبل شروط الانذار •؟ ونفذناها على الفور • ويبدي كوس دهشة بليدة ، ولا يدري بماذا يجيب • وعند الالحاح ، يقترح ان يتصل بقيادته ليستطلع الموقف •

ظهر ١٨ تموز • كوس يرجع من استطلاعه ويقول : ان البرقية المتعلقة بقبول شروط الانذار لم تصل الى الجنرال غورو • بسبب انقطاع اسلاك الهاتف بين الزبداني وسرغايا وقد اصدر الجنرال غورو امره بالزحف كما جاء في نص الانذار ••

ويحملق رجالات القصر عيونهم من الدهشة • ويهز البعض رؤوسهم بخيبة مريرة : لا فائدة من قبول الانذار • فخطة الفرنسيين ستنفذ رغم كل شيء •• كان يوسف العظمة على حق فهو ما يزال يعمل منفردا ••

ويقترح ضابط الارتباط كوس ان يوفد القصر وفدا الى الجنرال غورو ليقوم بمهمة الاحتجاج • ويوافق القصر على هذا الاقتراح : فسمى

ولعل •• ويعين وزير المعارف مع مرافق عسكري من مرافقي الملك للقيام بهذه المهمة الخطيرة (١) • وفي احدى ردهات القصر فيما كان رجلا الوفد

يهمان بالخروج ، يحس الوزير بيد تمسك ساعده فيلتفت ، انه يوسف العظمة •• ويهمس يوسف باذن الوزير : « اولا كن حذرا من مرافقك • ثانيا انني ارجوك بصفة شخصية ان تعمل خلال مقابلتك مع غورو ان تعمل على اكسابي اطول مدة من الزمن •• فانا ذاهب الى ميسلون لاعادة تنظيم الجيش على قدر الامكان •• وقد صممت على الدفاع حتى الموت •• »

وقبل ان يتحرك الوفد من السراي ، يظهر فيها ضابط فرنسي ، يرتدي بزة عسكرية على كتفيها رتبة « كولونيل » وعلى صدرها حفنة من الاوسمة والنياشين • انه الكولونيل تولا موفد الجنرال غورو جاء يحمل رسالة من قائده :

« انني لا استطيع ان اضمن تنفيذ طلباتي الواردة في الانذار اذا تولت تنفيذها حكومتكم الحاضرة • فبقاؤها في مناصبها ينطوي على معنى العداء لفرنسا • وان وزير حربيتكم يبذل جهده لجر بلادكم الى الحرب والقائها في أتون بلاياها • ولن يعصمها سوى تصرف سموكم الملكي وحده » •

ان هذا الكتاب يعني استقالة يوسف العظمة من منصبه ، كان غورو يريد ان يدخل المدينة بين الهتاف والتصفيق ، ويوسف العظمة لن يستقيل ، فقد اتجه الى ميسلون بعد ان وضع سكة الحديد تحت تصرف المتطوعين والمتظاهرين من ابناء الشعب الذين قرروا الدفاع عن المدينة ، وقد أمر

---

(١) اصبح هذا المرافق (جميل الالشي) فيما بعد رئيسا لوزراء لوزراء غورو • اما وزير المعارف فهو ساطع الحصري •

بتسليحهم وتجهيزهم بالبنادق والذخيرة • وقد خرج الامر عن نطاق القصر وقيادة الحلفاء معا ، واصبح بيد الوطنيين •

ويجاب الكولونيل تولا على الكتاب بان يرافق الوفد المرسل الى قائده فلديه مطلق الصلاحيات • وتضم سيارة مكشوفة من طراز « فوكسهول » الثلاثي : وزيرا ومرافقا عسكريا مشبوها و •• تولا ، تتجه السيارة نحو الغرب •• الى عاليه مقر قيادة الجنرال غورو •

السيارة تضطر اثناء الطريق الى السير ببطء شديد ، بسبب الجماهير الثائرة المندفعة الى ميسلون ، وقوافل البغال والجمال التي تحمل المؤن والعتاد ، وارتال الجنود المسرحين العائدين الى بيوتهم والذين رفضوا الرجوع الا بمرسوم ملكي ، وكان الضابط الفرنسي يشهد كل ذلك تراقص على شفتيه ابتسامة لئيمة سوداء • وتصل السيارة الى ميسلون • وعلى احدى الروابي القريبة من الطريق يشاهد ضابط سوري كبير ، يحمل بيده كرة من الاسلاك الشائكة وهو يقيس الارض بخطواته المحمومة طولا وعرضا •• ويسأل الكولونيل تولا عمن يكون هذا الرجل الذي يرفض « السلام » فينتطخ المرافق لاجابته ساخرا : « انه وزير حربيتنا يوسف العظمة » ، ويشعر المرافق بوخزة عنيفة في خاصرته ، قال له الوزير « اخرس » • ويرد الكولونيل معلقا على اجابة المرافق ، « اظن ان المسألة ليست ذات شأن ، ولا تتطلب كل هذا التعب •• فالقضية ستحل بسهولة ، سيتوقف جيشنا عن الزحف ، ولكن ضباطنا واركان حربنا يدخلون المدينة كترضية معنوية •• »

هكذا كان يفكر الضباط الفرنسيون ، العنجهية الفارغة قبل كل شيء •• ثم تسكين الاعصاب بمخدرات سامة المفعول • ويلمح يوسف العظمة السيارة ، فيقترب منها وبكرة الاسلاك على صدره ، وما يكاد يلمح

الضابط الفرنسي حتى يصيبه الذهول ، ولكنـه لا يتراجع ، يومىء الى السائق ان يقف • ثم يشير الى الوزير برأسه : « اريد ان اتحدث معك » ويهبط الوزير ويقدم اذنه الى فم القائد ويسمع الكلمات التالية : « اكرر ما كنت رجوتــه منك في السراي •• اكسب لنـا اكثر مـا يمكن من الوقت •• فسنحفر الخنادق وننصب الاسلاك الشائكة •• وأتمنى لك التوفيق •• »

كانت تعابير وجه يوسف العظمة لا تعبر عما فعله ذلك الصباح • وقد توضح ذلك عندما اجتازت السيارة سفوح الجبال منطلقة الى الغرب • فقد شوهدت مفرزة فرنسية تجر وراءها ثلاث دبابات محترقة ، وهي تتراجع الى الوراء بترصد وحذر •• وعندما شاهد قائد المفرزة ضابطا كبيرا يتصدر مقعد السيارة ، ارتفعت معنوياته وصاح بنبرة غاضبة :

« انظر ياسيدي ما فعله بنا السوريون •• فقد كلفت بمهمة الاستطلاع مع رعيل من الدبابات ، وعندما وصلنا قرب الوادي المؤدي الى ميسلون ، فوجئنا بالقنابل تنهال علينا من الجبل فاضطررنا الى التراجع •• »

صحيح •• وقد تسلم قيادة المدفع السوري يوسف العظمة بنفسه ، كان الرجل خلال عمله في حفر الخنادق وزرع الاسلاك الشائكة ـ يرصد الطريق بعين ثاقبة • وعندما شاهد المفرزة الفرنسية قادمة ، تقدم من المدفع الذي كان قد أمر بتمركزه في مكان مشرف ، وانتظر حتى اقتربت الدبابات ، ثم أحكم الرمي بنفسه ، وأعطى ايعاز النار •

وصلت سيارة الوفد في المساء الى صحراء الجديدة ، فشاهدت اضواء كثيرة مبعثرة ، وأشار الكولونيل تولا باصبعه : هنا مقر قيادة الحملة •• وخرج الجنرال غوابيه من خيمته واصبعه على زناد مسدسه : من هناك ••؟ ويرد تولا : وفد شريفي جاء للمفاوضة • ويتقدم الوزير من الجنرال قائلا بحدة ودهشة :

« ان حكومتنا قبلت جميع الشروط الواردة في انذاركم ، وسرحت الجيش عملا بتلك الشروط ، كما تأكدتم من ذلك عند اجتيازكم مرتفعات مجدل عنجر ، حيث لم تصادفوا اية قطعة عسكرية .. فيظهر اذن ان تقدم جيوشكم كان نتيجة سوء تفاهم مؤسف . »

ويهز غوابيه رأسه بمعنى : لم يكن تقدمنا نتيجة ذلك بل لانه يجب ان نتقدم ونتقدم .. ويستطرد الوزير : « وانا ذاهب الآن لمقابلة الجنرال غورو في عاليه ، فارجو ان توقفوا الزحف حيث انتم الآن الى ان نتفاوض على تسوية الامر .. »

ويرد الجنرال غوابيه بفخر : « نحن جنود قبل كل شيء .. ولا نعرف شيئا عن شئون السياسة ولا نفكر فيها ابدا .. لقد تلقينا من مراجعنا المختصة أمرا بالزحف فزحفنا .. ولا يسعنا ان نتوقف عن مواصلة التقدم لتنفيذ الخطة التي وضعناها لأي اعتبار سياسي .. ومع هذا ، اذا كنا مسئولين عن الحركات العسكرية فاننا نستطيع ان نعقد معكم هدنة لمدة اربع وعشرين ساعة ، على اساس قبول بعض الشروط العسكرية :

اولا : ان يعتبر الوادي المار من تحت سفوح ميسلون حدا فاصلا بين الجيشين . فتنسحب القوات السورية الى ما وراء هذا الوادي وتكتسب الجيوش الفرنسية حرية الحركات في هذه المنطقة .

ثانيا : تنقل المؤن التي تحتاج اليها الجيوش المرابطة هنا بواسطة السكة الحديدية من رياق الى محطة التكية .

فاذا لم تقبلوا هذين الشرطين ، فاننا سنستأنف حرية العمل من جديد .

ويتذكر الوزير رئيس الوفد رجاء يوسف العظمة : اكسب لي قليلا من الوقت . فيجب اننا نقبل هذه الشروط .. وكانت عملية « المبادلة » هذه ، شبيهة بعملية قرصنة على مستوى رفيع . فيوسف العظمة كان حقيقة

بحاجة الى وقت ، ولكن الوقت لم يعد مجديا اذا اصبحت القوات الفرنسية تحت اقدامه •• في حين كان الفرنسيون بحاجة ماسة لعقد هدنة للاسباب التـالية :

١ ـ عرفوا ان بعض القـوات السورية قد تحصنت في مرتفعـات ميسلون ، فأرادوا ان يبدلوا من ترتيباتهم •

٢ ـ منح الجنود استراحة ضرورية ، بعد ليلة شاقة قضوها سيرا على الاقدام في جبال قاحلة تحت الشمس ودون ماء •

٣ ـ تقوية الارتباط بين وحدات الفرقة القائمة بالزحف لاول مرة منذ ٢٤ ساعة •

٤ ـ اظهار حسن النية امام القناصل الاجنبية الذين يمثلون دولهم في دمشق • وقد علم الجنرال أن زحف جيوشه قد اوجد بين أهالي دمشق هياجا هائلا ، وان هذا الهياج الشبيه بالثورة قد احدث صداما بين الشعب وقوى الامن ، وقد وقع القناصـل الاجانب في قلق شديد ، خشية ان يؤدي حقد الشعب الى ذبح المسيحيين •• (وهي الحجة التقليدية للمستعمرين) ••• الخ

٥ ـ قبول الشرطين السابقين بحـد ذاته يشـكل ظفرا عسـكريا واستراتيجيا لا يمكن اكتسابه الا بخوض المعارك ••

و •• ويصل الوفد الى عاليه • وينتصب غورو جالسا وراء خرائطه المليئة بالاسهم والدبابيس • ويصغي الى موفد الملك بنصفه الحي ، ثم يرد عليه بنصفه الخشبي •• فلا يبدو الجنرال مقتنعا ، ولا يستطيع رئيس الوفد ان يأخذ كلمة مفيدة :

لقد نفذنا شروطكم يا سيدي الجنرال ••

ـ انني اعرف ذلك ••

ـ فلماذا تزحف جيوشكم اذن ••؟

ـ لقد تأخر وصول الجواب لانكم قطعتم خطوط الهاتف ..
ـ نحن ..؟ اية مصلحة لنا في قطعها ..
ـ اذن لقد قطعها الاشقياء .. اشقياؤكم ..

وقضية اسلاك الهاتف هذه لم يكشف عنها النقاب حتى الآن . ولكن بعض المصادر تشير الى ان الفرنسيين قاموا بقطعها خصيصا ليتأخر وصول الانذار ، ويكسب غورو حرية العمل .

ويتميز رئيس الوفد من الغيظ ويعود الى الحديث :
ـ والآن .. الم ينته كل شيء ..؟ فلماذا لا تأمرون الجيش بالرجوع ..؟
ـ لا يعرف جيشنا شيئا اسمه التراجع ..
ـ ٢٤ ساعة فقط ريثما توافقون على شروط جديدة ..
ـ لقد وافقنا عليها ..
ـ شروطي غير شروط غوابيه ..

وينتهي الجدل « البيزنطي » وتوضع في طريق رئيس الوفد العراقيل كيلا يصل الى دمشق في المدة المحددة . ويختلي غورو بالمرافق العسكري للملك . ثم يخرج مزودا بصلاحيات ينفذها بعد يومين .. ويصرخ الجنرال غورو من وراء مكتبه :

ـ يا الهي .. ما اروع لحظات الانتصار .. كنت اشعر بالبؤس لان لي ساقا من خشب .. ولكن ما اثمن هذه الساق عندما امدها غدا على ضريح صلاح الدين ..

ويصل الوزير في آخر لحظة الى دمشق . ويتهاوى على باب السراي محملق العينين مبهور الانفاس ، ضائعا بكل معنى الضياع .. ويتمتم بغصة :
ـ لا فائدة لقد ضاع كل شيء .. ان غورو يصر على احتلال

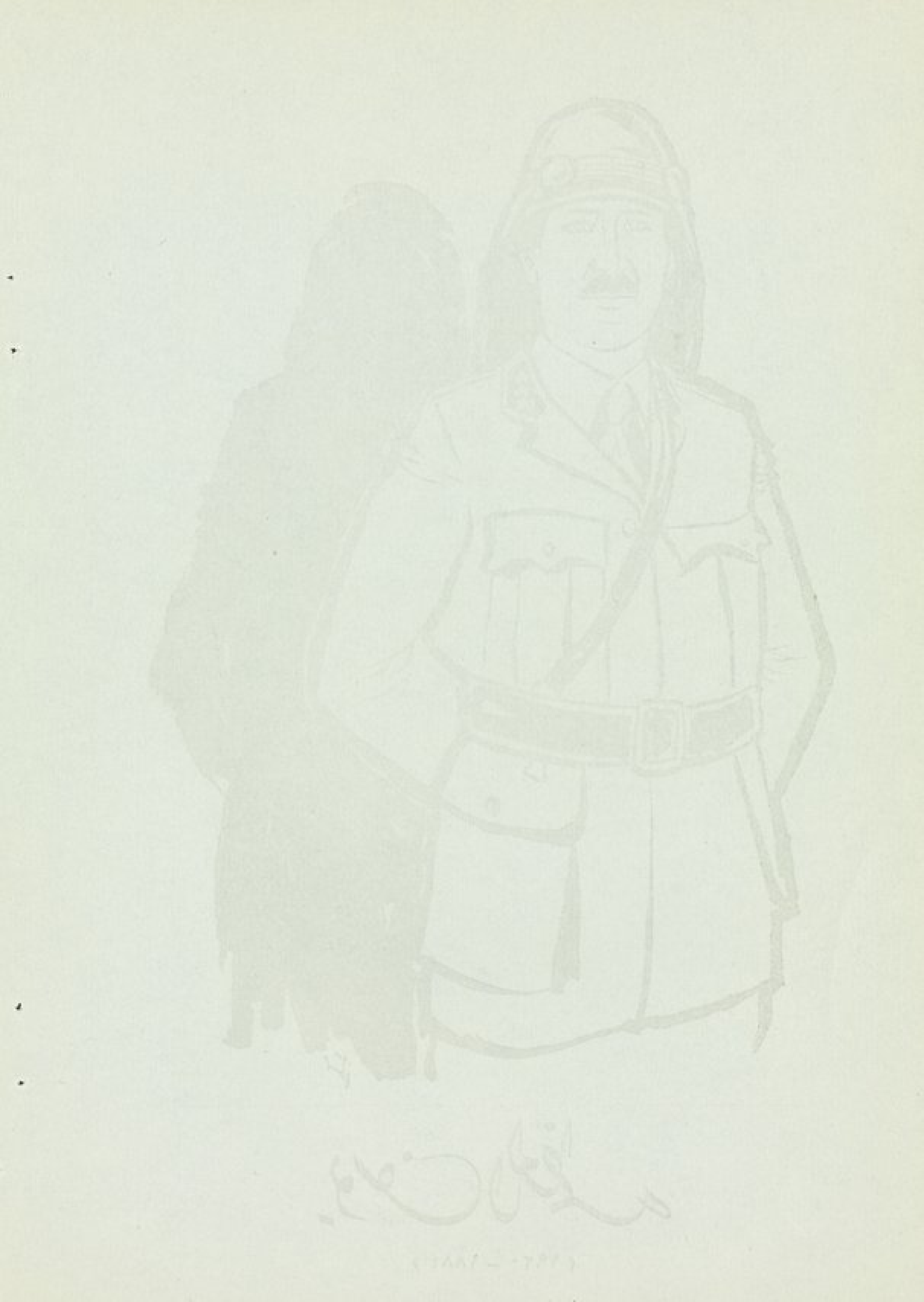
دمشق .. وهو لا يستعمل معنا الاخذ والرد الا ليبرر اعماله امام المحافل الدولية ..

أما شروطه الجـديدة ، فكان تنفيذها يعني فتح ابواب المدينـة على مصراعيه ، وفرش ارضها بالزهر والسجاد .. وبما ان هذه المهمة قد تكفل بها المرافق العسكري دون ان يعلم احد ، وأن رجالات القصر والحكومة كانوا عاجزين عن القيام بهذه المهمة .. فقد هيأوا حقائبهم وراحوا ينتظرون نتائج المعركة .



يوسف العظمة

(١٨٨٤ – ١٩٢٠)



٤ ـ يوم ميسلون ثورة شعبية :

« أنا ذاهب •• اني اترك ليل امانـة لديكم •• ارجوكم الا تنسوها •• »

آخر عبارة قالها يوسف العظمة قبل ان يتوجه الى ميسلون •(١)

لا شك ان يوسف العظمة القائد العسكري والرجل الوطني كان على خبرة سياسية واسعة ، وكان يفهم خير فهم كيف تجري الاحداث في ظروف كالتي تجري فيها •• وكان يعرف أن قبول شروط الانذار ببنوده ونقاطه المعروفة كان معناه قبول السيطرة الفرنسية مهما كان نوع تلك السيطرة ، او التسميات التي حاولت ان تستتر وراءها • من أجل هذا رفض اولا التوقيع على المذكرة التي وقعها الملك ورجال الحكومة بقبول الانـذار ، ثم أعلن معارضته في تنفيذ الشروط ، وأهمها تسريح الجيش • كما انه من البديهي الا يوافق على اعتبار رجال ثورة ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ عصاة ويجب القبض عليهم ، لانه كان يمونهم سرا بالرجال والسلاح والعتاد • منتظرا الفرصة السانحة لينضم اليهم مع الجيش العربي السوري بعد ان اصبح قائدا له •

ولا شك أن حماس الجماهير الصاخبة المندفعة نحو القصر ، والتي فقدت الكثير من أعضائها رجالا سقطوا شهداء عند مهاجمة القلعة ، كان من أهم الاسباب التي جعلت يوسف العظمة يصمم عـلى الدفاع ، ويخوض

---

(١) ساطع الحصري ـ يوم ميسلون ص ١٤٤

المعركة المجهولة العاقبة ، دون قيد أو شرط • وعلى هذا فقد راح يتمسك بالامكانية الوحيدة التي ربما تقدم له نفعا في مهمته العصيبة ، كان يطلب فسحة من ا لوقت •• هذا الوقت الذي أكله غورو بانذاره ، ولم يقبل ان يمدده الا بمقدار •• ترى هل خطر لغورو ان يوسف العظمة ربما طلب عونا من الخارج ••؟ واذا كان حقيقة قد فعل ذلك فمن اين سيأتيه العون ••؟ كيف ••؟ وعن أي طريق ••؟ ان الجنرال غورو كان يعرف بأن سورية لن تلقى أي عون من أحد •• حتى ولا من أعظم هيئة في العالم « مؤتمر الصلح » التي تشكلت (كما قالوا) لاعطاء الحرية للشعوب المستضعفة ، وذلك لسبب بسيط ، هو أن هذه الهيئة خرجت بحكم تشكيلها عن شعاراتها السامية ، وراح أعضاؤها ـ الذين ربحوا الحرب ـ يتقاسمون الميراث •

ترى هل كان يوسف العظمة ينتظر وصول نجدات من ثورات الساحل والشمال ••؟ أم كان ينتظر قيام ثورة داخلية تعهد بان يقدم اليها السلاح والمعدات ••؟ لا شك ان الحاجه على طلب فسحة من الوقت لم يكن فقط ليحفر الخنادق وينصب الاسلاك الشائكة • خاصة وأنه يعرف جيدا كقائد عسكري ان قوات العدو تشكلت باعداد كبيرة معززة بجميع صنوف الاسلحة مع الطائرات الفرنسية و « الحليفة » ، لتخوض معركة نظامية ، على غرار المعارك التي خاضتها اثناء الحرب العظمى ، كما انه لا يجهل بأن جيشه قد سرح وانسحب من كل الجبهات ، بالاضافة الى أن الجيش ـ حتى ولو أمكن جمعه ـ فهو لا يملك الذخائر والامكانيات اللازمة لمعركة ساعة واحدة ••

اذن •• لماذا فعل يوسف العظمة ـ وهو وزير لا يطلب اليه أكثر مما فعل زملاؤه ـ كل ذلك ••؟ هل خشي من التاريخ ••؟ أن يقال في الغد ،

ان الفرنسيين احتلوا سورية دون ان يقف في وجههم أحد من ابنائها ..؟ المهم .. علينا ان نرجع الى ميسلون ..

تمكن يوسف العظمة ـ عندما خرج من القصر في مساء العشرين من تموز ١٩٢٠ ان يوقف تسريح الجيش ، ورغم ان عمليته جاءت متأخرة ، فقد استطاع ان يجمع بمساعدة بعض الضباط وصف الضباط من السوريين حوالي لواء من المشاة وكوكبتين من الخيالة . كما تمكن عند وصولـه الى ميسلون ان ينقذ من الاسر بطاريتي مدفعية سورية كانت منسحبة من مجدل عنجر .

فعندما وصل الامر الى جبهة مجدل عنجر بالتسريح ، انسحب منها المشاة والخيالة بسهولة وسرعة قبل ان يعرفوا السبب . أما المدفعية فقـد تأخرت لصعوبة اخراجها من مساندها في الجبال ، ولانها تحتاج الى وقت طويل لقطرها بالعربات ثم جرها في ارض صعبة . وفيما كانت البطاريتان تتمهلان في سيرهما على الطريق متوجهتين الى دمشق ، اذ باحد ضباطهما يلحظ ارتال الجيش الفرنسي تزحف في اعقابهما ، فأعلم القائد المدفعي المرافق ، واتخذ هذا على الفور اجراءات الدفاع المتحرك ، موعزا الى رجاله بالاسراع وما ان وصلت البطاريتان الى ميسلون حتى شوهد يوسف العظمة بانتظارهما . فتسلم القيادة وانتقى للمدافع مرابض مشرفة على الوادي ثم أمر بحفر المساند . وبعد قليل ، وصل في اعقابهما رعيل الدبابات الفرنسية كما مر معنا في الفصل السابق ..

ثم يأتي دور المتطوعين . من ابناء الشعب . هؤلاء المتطوعون تشكلوا من جماهير المظاهرات التي هجمت على القلعة ، فتسلح بعضهم كيفيا دون يعرفوا شيئا عن تعريف او ماهية او استعمال السلاح ، وقتل بعضهم الآخر برصاص رشاش الضابط البدوي . وعند حصارهم للقصر الذي دام ثلاثة ايام ترامى الى اسماعهم خبر زحف الجيوش الفرنسية ، فتركوا القصر

وزحفوا باتجاه ميسلون ، خاصة وقد عرفوا بان يوسف العظمة قد صمم على الدفاع • وفي الطريق كانوا يتعرضون للقطارات المتجهة نحو الغرب ، فيوقفونها ويتسلقون عرباتها ، وقد اوصلتهم القطارات الى محطة التكيـة ـ ١٢ كيلو متر عن الزبداني ، ٨ عن ميسلون ـ وعلى هذا يمكن القول ، بأن جيش يوسف العظمة كان يعتمد على المتطوعين المتأججين حماسا ، ولكن ينقصهم التدريب ومعرفة استعمال السلاح والذخيرة الملائمة للسلاح الذي يحملونه ، ومنذ صباح ٢١ تموز بدأ يوسف العظمة في ترتيب قواته البسيطة على الشكل التالي :

١ ـ لواء المشاة : قسم الى فصائل صغيرة منتشرا في شبه مرقاة على السفح الغـربي لهضبة ميسلون يحيط بطريق دمشق بيروت مـن جناحيه • ويشرف على وادي الزرزور • وقد توزع على خطين من الخنادق المسيجة بالاسلاك الشائكة يفصلهما مسافة ٧٠٠ مترا في العمق •
المهمة التي أعطيت له : الدفاع المستميت حتى القطرة الاخيرة •

٢ ـ بطاريتا المدفعية : تمركزتا في الذروة في مؤخرة الموقع شمالا •
مهمتها : ضرب آليـات العدو ومدفعيته وتجمعاته مع الاقتصـاد ما امـكن بالقذائف • ولن يكون الرمي الا عند الحاجة القصوى وبايعاز من قائد المدفعية •

٣ ـ كوكبتا الخيالة والهجانة : الكوكبة الاولى تأخذ طريق الزبداني شمالا ، وتستدير من خلف العدو لتهاجمه وتدخل الفوضى في صفوفه • الكوكبة الثانية ، تأخذ طريق دير العشائر جنوبا ، وتعمل على تأخير العدو القادم من ذلك الطريق •
الهجانه : احتياط تحت امرة وزير الحربية •

٤ ـ المتطوعون : اعطيت لهم مهمة التمركز على جبال الزبداني ـ

التكية لعرقلة ارتال العدو اذا خطر لها ان تستدير نحو جناح الصديق الايمن •

قوات العدو : الفرقة الثالثة المعززة بجميع الصنوف بقيادة الجنرال عوابيه وتتألف :

١ ــ الفيلقان العاشر والحادي عشر للرماة السنغاليين • (الجنرال بوردو) •

٢ ــ لواءان في فيلق الرماة الافريقي (ابوت وباولتي) •

٣ ــ لواءان من فيلق المشاة ٤١٥ (اللوتنان كولونيل ريو كرو) •

٤ ــ فيلق الصباحيين المراكشيين (الليوتنان كولونيل ماسيه) •

٥ ــ فيلق الخيالة السريعة الاولى •

٦ ــ كتيبة دبابات •

٧ ــ كتيبة هندسة وتخريب •

٨ ــ المدفعية : ٤ بطاريات عيار ٧٥ ، بطاريتان عيار ٦٥ ، بطارية واحدة عيار ١٥٥ شنايدر قصير •

٩ ــ سرب طائرات قاذفة (مع الاستفادة من طائرات القيادة العامة للحلفاء) •

سير الحركات الصديقة :

تمركز المشاة في اماكنهم المخصصة بعد الانتهاء من حفر الخنادق • كوكبتا الخيالة تحركتا لتنفيذ المهمة في مساء ٢١ • المدفعية وضعت راصدا في مكان مشرف ليرصد تقدم العدو • الهجانة خيمت في مدخل طريق دير العشائر • المتطوعون استقبلوا المعركة بحبور وانطلاق فلم يستعدوا لها الاستعداد المطلوب من محارب • وعندما وزعت عليهم الذخائر لم يلاحظوا انها خليط من : انكليزي وعثماني والماني ، وانها عيارات مختلفة ، لا يمكن ان تركب على سبطانات البنادق •

سير الحركات العدوة : (يرويها الجنرال غوابيه بنفسه) :

« في منتصف ليلة ٢١ تموز تلقيت من الجنرال غورو امرا تلفونيا :

« لا جواب من الامير •• الخط التلفوني قطع في الاراضي العربية •• الزحف على دمشق يجب ان يبدأ وفقا للخطة المقررة •• »

وبناء على ذلك اصدرت على الفور الاوامر اللازمة الى الضباط والقواد •• وفي الساعة الرابعة ولنصف من صباح ٢١ بدأنا زحفنا بعبور نهر الليطاني ، وقد وجدنا الجسور سليمة ، ولم نصادف مخافر عربية • وخشيت ان يكون انسحاب الجيش العربي من هنالك بناء على خطة تعبوية ، يقصد بها ايقاع جيوشنا في كمين ، لذلك امرت ان يكون التقدم مكشوفا ، وان تتخذ تدابير الاحتراس والاحتياط لكل الطوارىء ، والاستعداد التام لفتح جبهة دفاعية • وبعد مدة ، اتتني أخبار من الطلائع تفيد بانها وصلت الى مجدل عنجر دون ان تلقى أية مقاومة • وانها استولت على المرتفعات دون ان تطلق رصاصة واحدة • عندها لم أجد لزوما مبررا لاضاعة الوقت ، فأمرت القادة بجمع الجيش والسير به في الرتل السريع باتجاه دمشق مباشرة • وأخذت مكاني وراء المقدمة •

عند الظهيرة افادتني طائرات الاستكشاف بأن انسحاب الجيش العربي كان حقيقة وليس خدعة ، لذلك قررت مواصلة السير الى الامام بسرعة لاكتساب اكثر ما يمكن من الاراضي السورية قبل ان تغرب الشمس • وفي الساعة الخامسة بعد الظهر ، كانت مقدمة الجيش قد وصلت الى عين الجديدة واستعدت للتخييم هناك • غير اني عندما وصلت الى هناك ، لم استحسن توقف الجيش في هذه المنطقة ، فأمرت المقدمة ان تحتل المرتفعات التي تسيطر على طول وادي القرن وتحكم وادي الزرزور • ونفذت الطلائع هذا الامر على الفور • وعند حلول الظلام ، كانت الفرقة قد

اصبحت في مأمن من كل هجوم ، وقادرة منذ الصباح الباكر على الزحف نحو ميسلون •

ولكن ما لبث ان حدث حادث مريع ، جعلني اعتقد بأن السوريين ينوون التمسك بوادي الزرزور لمنع جيوشنا من الخروج من مضيق وادي القرن ، فالدبابات التي كانت تسير مع الطليعة قوبلت فور خروجها من الوادي باربع او خمس قنابل مدفعية ، عطبت بعضها ، واجبرت الباقي على التراجع الى ملجأ أمين •

خلال الليل وصل الى مقر قيادتي وفد •• الخ (مر ذكر ذلك في القسم السابق) وبعد ذلك بت اترقب انتهاء مدة الاربع والعشرين ساعة على أحر من الجمر •• (يروي كلمة عن عواطفه نحو دمشق سترد في القسم التالي) •• ثم جاءت اللحظة المنتظرة :

في صباح الرابع والعشرين من تموز بدأت الزحف ، بعد ان تلقيت امرا من الجنرال غورو : (لقد فرغت جعبتنا من الانذارات) •• وهنا وزعت قواتي على الترتيب التالي :

١ ـ القوات المعدة لمهاجمة الجبهة بامرة الليوتنان كولونيل دوزاك :
لواء باولتي تؤازره بطارية من المدافع الرشاشة (من شمال الطريق)•
لواء آبوت تؤازره بطارية من عيار ٧٥ (على جانبي الطريق) •
لواء مينيان تؤازره سرية مدافع رشاشة ٦٥ (من جنوبي الطريق)
لواء غوتيه تؤازره سرية رشاشة ٦٥ (يتحول الى ذروة وادي الزرزور الغربية ويلتقي بميمنة ماسيه)

في وسط التشكيلة تتقدم سرية الدبابات (بامرة ديفار) تدعمها كتيبة (كلوبفانستين) ونصف كتيبة من التحكيمات الهندسية •

فيلق ماسيه المدرب على حرب الجبال (للاحداق بخطوط العدو) •

البطارية ١٥٥ مهمتها مقابلة مدفعية العدو والعمل التدميري العام •

وفي الساعة السادسة صباحا ، تقدم لواء آبوت واجتاز المضيق ، وفي منتصف الساعة السابعة اجتاح المتاريس التي اقيمت عند منفذه • فيما كانت مدافعنا تصب حممها على مواقع العدو ، وطائراتنا تجبره بقصفها المتواصل على الا يرفع رأسه • وانبرت في الحال بطارية روبير واستقرت عند مخرج المضيق ، فاستهدفتها مدفعية العدو وانزلت بها خسائر فادحة • على ان احدى سرايا البطارية ٧٥ كانت اوفر حظا من الاولى ، فاستطاعت ان تثبت في ذلك المكان وتفتح النار من الناحية نفسها دون ان تعترضها عقبة • وسلطت البطارية ١٥٥ قنابلها على مدفعية العدو ، ولكن نيران العدو تدافعت بشدة عندما نهد جيشنا للهجوم العام ، فاصبح تقدمه وئيدا وتكبد الخسائر • بيد أن لوائي باولتي وأبوت تمكنا مع الدبابات من اجتياز وادي الزرزو ثم شرعا بالتسلل الى السفح • أما لواء مينيان فقد عاقته المصاعب عن التقدم ولم يحتل مكانه المقرر في الوقت الملائم • وكان من جراء ذلك ، ان فتحت في صفوفنا ثغرة هامة وحالت دون تقدم المسيرة ، بينما كان لواء غوتيه ، في الميمنة يواقع العدو منفردا •

وتخلل الهجوم فترة سكون ، فاستقدمنا لواء ليدعم قلب الجيش ثم استعجلنا لواء مينيان • وتوقف الهجوم ريثما تصل تلك القوات التي كانت تتقدم ببطء بسبب وعورة الارض ومقاومة العدو • وكانت الوية الجيش الزاحفة على اجنحة العدو ، تصطدم بالمسالك الكثيرة التعاريج فضلا عن مقاومة الخصم العنيفة • فلما أطل لواء غوتيه على وادي الزرزور ، تدفقت عليه النار من ضفة الوادي اليمنى وحاولت سرية المدفعية ٦٥ التابعة له ان تدعمه عن كثب ، ولكنها سرعان ما فقدت عددا من دوابها دون ان تستطيع احكام المدافع او تصويبها • بيد أن هذا الحدث لم يفت في عضد جنود هذا اللواء ، فكانوا يتسربون شيئا فشيئا ، وكان تقدمهم بطيئا ، فلم يوطدوا

أقدامهم على الذروة الا حوالي الساعة العاشرة عندما ظهرت وطأة الصباحيين من الميمنة .

فقد انطلق هؤلاء تحت جناح الليل ، فاستوقفتهم على مقربة من دير العشائر جماعات من الفرسان والهجانه التابعة للعدو وحاولت ان تحـدق بهم ولكنهم بعثروا صفوفها بنار الرشاشات واجتاح الصباحون دير العشائر في الساعة الثامنة . وتقدم فيلقهم من هناك وهم يطاردون الفرسان والهجانه ، فلم يصلوا الى جبل المزار الا عند الظهيرة .

وفي تلك الاثناء استؤنف الهجوم على جبهة العدو ، واندفع الجيش اندفاعا عنيفا . فقد نفذ لواء فوركاد من المضيق في الساعة الحادية عشرة ، بينما كان لواء مينيان يدعم ميمنته . وانتظمت الصفوف بعدئذ وأغارت على العدو اغارة لا تقاوم . وكانت الدبابات المبثوثة على السفح تدعمها دعمـا قويا . وعند الظهيرة كللت جنودنا الذروة ، فانثنى العدو باتجاه دمشق ، تاركا وراءه مدافع بلا ذخائر ، وبضع رشاشات و .. جثمان قائده يوسف بيك العظمة الذي قتل في مكانه وقد استعجلت قذائفنا وطائراتنا هذا الادبار فحولته الى هزيمة .

واستمر الجيش على انطلاقه الى خان ميسلون دون توقف ، لان الحر اللهاب والظمأ الشديد الذين استوليا على الدواب والجنود كانا يدفعان الخطا الى هذا المكان الذي ينبع فيه الماء . فانتهى اليه الجيش عند الساعة السادسة عشرة . ولاحت في تلك اللحظة قوات ماسيه على الذروة ، التي تفصل ميسلون عن الديماس ، ولكن وصولها جاء متأخرا ، فلم تستطع ان تقطع الطريق على العدو الذي انقشع من هنالك بسرعة غريبة .

لقد خيم معظم الفرقة الثالثةذلك المساء في خان ميسلون . وفيالخامس والعشرين من تموز دخلت مدينة دمشق دون مقاومة . وقد بلغت خسائرنا في اليوم السابق اثنين واربعين قتيلا ، ومائة واثنين وخمسين جريحا ، واربعة

عشر مفقودا • كما قتل ضابطان احدهما من القادة • وقد تناولت الخسارة بنوع خاص بطارية روبير وكتيبة كلوبفانستين التي واكبت الدبابات » •

الى هنا ينتهي تقرير الجنرال غوابيه عن الحركات التي قامت بها فرقته • ولا شك ان الانسان يستطيع من خلاله ان يطلع جيدا على الاعمال التي قامت بها المفارز السورية الضئيلة العدد والعدة ، والتي جمعت على حين غرة ودون أي استعداد ، لتقاوم هذه الجحافل التي اتخذت تكتيكا هجوميا مدعوما بجميع الصنوف ، جديرا بان يوضع لاحتلال (الرايخ) •

أما المتطوعون ، فقد فاجأتهم الطائرات في الصباح وألقت عليهم حممها وقذائفها المتفجرة الثقيلة ، ثم الحقت ذلك بالمنشور التالي المطبوع باللغة العربية :

أيها السوريون :

في اللحظة التي تجركم فيها حكومتكم الى الحرب • (كذا) ، اقول لكم : لماذا تحاربون قيل لكم ان فرنسا تريد ان تستعمركم وتستعبدكم وهذا كذب صريح • انما قبلت من مؤتمر الصلح الانتداب على بلادكم •• الخ •

وانتم لاتجهلون ان حكومة دمشق ـ مدفوعة بأقلية ضئيلة متطرفة ـ (يسرد اعمال العصابات ومعاداة فرنسا ورفض تداول العملة ••)

واذا رفضتم اليد التي ستمدها اليكم فرنسا (تهديد ووعيد واستعراض عضلات آلات حرب مدهشة • طائرات • الخ)

انني لا انوي استعمال الطائرات ضد الاهالي المحرومين من السلاح ، متبعا في ذلك مقتضيات الشعور الانساني الذي يشترك فيه جميع الفرنسيين ، ولكن خطتي مشروطة بشرط واحد ، هو الا يقتل احد من الفرنسيين أو المسيحيين (كذا) أما اذا حدث شيء من ذلك فستقابل تلك الاعمال بمثلها وبطريق الجو •• وانا لا أشك في أن كل من يشعر بوطنية حارة مخلصة ،

وكل من يريد لبلاده الثروة والطمأنينة ، سيرفض الحرب وينضم الى جانبنا • اني أوجه كلمتي اليكم باسم فرنسا وسورية • وثقوا بروح الحرية والايثار التي تتصف بها فرنسا الكريمةوالنشيطة والمتمدنة • فاتوا الى اصدقائكم الفرنسيين بكل اطمئنان ••

(تحيات واشواق ••)

الجنرال غورو (١)

ومهما كان الهدف الذي يرمي اليه الجنرال غورو من وراء هذا البيان ، الذي اسقط فوق رؤوس المتطوعين بعد غارات جوية عنيفة ، فانه لم يستطع ان يفعل شيئا ذا أهمية • وذلك لسبب بسيط ، هو أنه لم يكن منطقيا ولا مقنعا • لان غورو ــ ككل منفذي سياسة القوة الاستعمارية في العالم ــ كان ينقصه موهبة الفهم الحقيقية لايديولوجية الشعب الذي يحاربه • فغورو يحاول ان ينفر المتطوعين من حكومتهم ، ويتهم هذه الحكومة بتهمة التطرف والمغامرة ، في حين كان المتطوعون يلقون المسئولية الكبرى على قبول شروط الانذار • وكانوا يأملون ــ فيما لو رفضت هذه الشروط ولم تنفذ بحذافيرها ــ ان يتخذ الفرنسيون وسيلة أخرى غير وسيلة القوة لتحقيق غاياتهم التوسعية • وقد افادتهم تجربة ايلول ١٩١٩ ، عندما تخلى الانكليز للفرنسيين عن المنطقة اللبنانية الشرقية • فقد وقفت الحكومة تحت ضغط الشعب موقف الحزم وعدم التهاون ، مما اضطر الفرنسيين ان يتراجعوا عن احتلال المنطقة ، ويقبلوا بدخول الدرك السوري اليها •

أما وقد رأوا بان انذاراتهم ومطاليبهم قد احرزت قبولا ، تحت التهديد والوعيد ، فانهم الحقوها بمطاليب وانذارات جديدة ، حتى يتحقق لهم احتلال البلاد دون ضجة ••

---

(١) عن يوم ميسلون ساطع الحصري ص ٣١٦

اما الدور الذي لعبه المتطوعون في موقعة ميسلون ، فلم يكن بارزا ابان المعركة ، وذلك لبعدهم عن ساحة الحركات . ولكنهم ما أن علموا باحتلال الفرنسيين لخان ميسلون ، وعرفوا بأن يوسف العظمة قد استشهد ، حتى زحفوا جنوبا لملاقاة الفرنسيين . فتصدت لهم كواكب الخيالة السريعة ، وفاجأتهم في منتصف الطريق بنار الرشاشات والاغارة الصاعقة على ظهور الخيل . ورغم هول المفاجأة ، فقد تواروا في الارض وحاولوا استعمال السلاح ، وعندها ادركوا أن الرصاص لم ينطلق من افواه البنادق ، فسقط منهم العديد من القتلى والجرحى ..

ولا شك أن ما كان يأمله يوسف العظمة من تسليح المتطوعين ـ دون ان تخطر له مسألة اختلاف الذخائر لان هذه الخطيئة لم تكن لتقع على كاهله بل على كاهل المسئولين عن توريعها ان ما كان يأمله قد بوشر بتحقيقه . فقد تنادى المتطوعون الى العودة الى المدينة ليبدأوا ثورة مسلحة . وقد رجعوا فعلا ، ولكن ما ان وصلت طلائعهم الى دمر والهامة ، حتى فوجئوا بالدرك ورجال الامن تحرس الطرق وتسد منافذ المدينة في وجوههم . ثم اجبروهم على القاء السلاح .

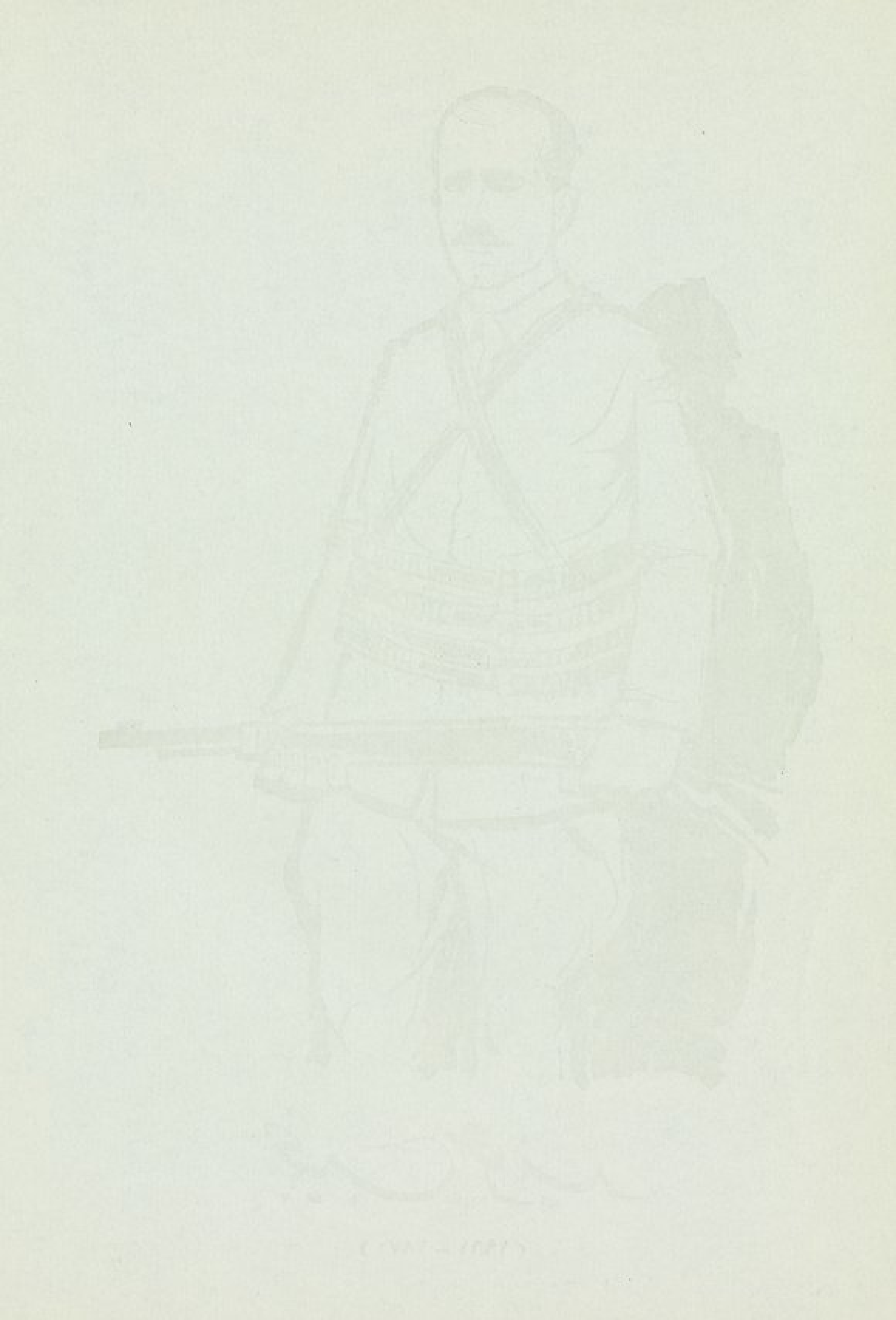
كانت حكومة غورو قد تشكلت .. وانقض رجاله على تسلم الحكم فور اعلان استشهاد يوسف العظمة . وهذا يبرز الدور الكبير الذي كان يلعبه ذلك القائد . كان مجرد وجوده حيا كافيا لان يمسك زمام الموقف ، ويحول دون ظهور العملاء وموظفي العدو ، رغم أن اعضاء الحكومة مع رجالات القصر قد انسحبوا الى حوران ، ليستأنفوا اعمالهم هناك .

وقد أظهر بعض المتطوعين تمردا ضد رجال الدرك والامن الذين حاولوا تجريدهم من السلاح ، فرفضوا تسليم بنادقهم ، ورجعوا ليفتشوا عن منفذ آخر يؤدي الى المدينة .. قبل ان يلحق بهم الفرنسيون من



نجيب عويد

(١٨٧٠ - ١٩٦١)



الخلف ، حيث كان الفرنسيون يهيئون انفسهم لدخول المدينة في صباح الغد في استعراض عسكري ٠

وقد افلح الكثيرون من المتطوعين بصعود الجبال ، والوصول الى قطنا – في الجنوب الغربي – والى تل منين في الشمال ٠ وظلوا مختفين عن الانظار محتفظين باسلحتهم ، حتى آنت اللحظة الحاسمة ، وبدأت ثورات **١٩٢٥ – ١٩٢٧** حيث كانوا نواتها الصلبة العنيدة ، فخاضوها بكل ما اختزنوه من مرارة وحقد وشعور بالخيبة والاضطهاد ٠



الفصل السابع

موجز عن فترة الاحتلال الفرنسي خلال خمسة أعوام
١٩٢٠ ـ ١٩٢٥

علينا ان ننطلق في سرد هذا الموجز من هذه الكلمات التي وجدت في مذكرات الجنرال غوابيه ، لانها تلقي ضوءا ساطعا على نيات القادة الفرنسيين المنفذين لسياسة حكومتهم الاستعمارية في الوطن السوري العربي ...

« أنا في دمشق ..؟

ان هذا الاسم كان يمثل لي شيئا خرافيا عندما كنت أقرأه في سجلات عائلتي .. وأنا بعد في سن الطفولة .

ان جان مونغوليه الجد البعيد لجدتي ـ من ناحية ابي ـ لويز ـ كان قد وقع في الاسر ، خلال الحرب الصليبية الثانية عام ١١٤٧ ونقل الى مدينة دمشق .

انه كان من السواد الاعظم ، ولذلك لم يعامله اللصوص المعاملة اللائقة التي كانوا يعاملونها للفرسان اللامعين . وجعل منه أهل دمشق عاملا يشتغل في احد المصانع التي يصنع فيها الورق من نبتة القطن . واشتغل جان المسكين ، شغلا شاقا خلال خمس سنوات . وبعد

ذلك فر من دمشق ، وتمكن من الالتحاق بالجيش الصليبي بعد اجتياز آلاف المخاطر .

وعندما عاد الى مسقط رأسه ــ بعد غياب دام عشر سنوات ، ــ أسس اولى طواحين الورق التي عرفتها اوروبا ..

وأخيرا .. اليست هي العدالة الالهية التي سمحت لحفيد اسير الحروب الصليبية أن يدخل المدينة المقدسة ــ دمشق ــ ظافرا منصورا ، لينتقم من الدمشقيين على سوء معاملتهم لجده المسكين ..؟ » (١)

بعد وقعة ميسلون ، لم يبق امام الجيش الفرنسي ما يحول دون احتلال دمشق في اليوم نفسه ، غير ان الجنرال غوابيه قائد الحملة ، أراد ان يتأكد اولا من ان (حكومة الجنرال غورو) قد قامت بواجبها في تجريد المتطوعين من السلاح ، وأفسحت السبيل امام الجيش الفرنسي ان يحاط دخوله بالابهة والجلال اللائقين بالجيوش الظافرة . وأجل أمر الدخول الى اليوم التالي ، حيث دخلها في ٢٥ تموز ١٩٢٠ على رأس جيش أعد لـ « طواف استعراضي » مصاحب بالموسيقى الحماسية في أهم شوارع المدينة . وفي اليوم التالي وصل الجنرال غورو فاستقبل من قبل « النخبة » استقبال اصحاب الفخامة والجلالة ، وبعد ان أدى واجبه الاول بزيارة ضريح صلاح الدين الايوبي وقذف الرمس بقدمه الخشبية صارخا « ها قد عدنا ثانية يا صلاح الدين » .. تشرفت وزارته برئاسة علاء الدين الدروبي بتقديم فروض وواجبات الولاء والخضوع ، وأعلن بعدها بخطاب شهير انتهاء عهد الاستقلال الاول .. (١) .

---

(١) ساطع الحصري يوم ميسلون ص ٣٥٢

(١) موجز الخطاب :

بعد افتتاحية قصيرة يستعرض فيها الوقائع التي أدت الى المعركة ،

وبعد ذلك باشرت حكومة الدروبي أعمالها لتسكين الشعب ببلاغات

ويحمل فيها المسئولية اعضاء الحكومة السابقة ، يستطرد غورو قائلا :

« ان الحكومة الجديدة التي تمثلونها ، والتي قبلت المشاركة في العمل تحت الانتداب الفرنسي ، لتنظيم البلاد السورية ، ستنال ثقتنا وستجد فينا المعونة القوية مع احترام ما للشعوب السورية من حرية ٠

ان حكومتكم الجديدة بقبولها مسئولية الحالة الحاضرة ، لا تقدر ان تنفض يدها من تبعة اصلاح ماض يتمثل فيه الخراب الجسيم والدم الغزير المسفوك (مشيرا الى الثورات القائمة في الغرب والشمال) ٠

ولذلك عليها قبل كل شيء ان تقوم بأعباء التعويض ، وعليكم ان تشتركوا في ذلك بدفع مبلغ مائتي الف دينار من الذهب ٠ وعلينا كذلك ، معاقبة اولئك المجرمين الذين يعدون وما يزالون في طليعة غيرهم من رؤساء العصابات التي خربت البلاد تخريبا منظما ، بحجة الوطنية ، وعلينا مجازاة الذين أعانوهم بنفوذهم ونقودهم ٠ وسنبعث اليكم بقائمة تتضمن اسماءهم ، فينبغي ان يوقفوا ويحاكموا طبقا للقوانين ، وان يسقطوا في حالة فرارهم من الحقوق المدنية وان تصادر املاكهم ٠

أما حكومتكم الجديدة ، فتثابر على العمل بأوضاعها الحالية ، لحل جميع المسائل المتعلقة بالاهلين والتي لها مساس بمستقبل البلاد ، بالمشاركة مع الكولونيل تولا رئيس البعثة الفرنسية سابقا ، ثم تعرض الترتيبات علينا للموافقة او التعديل ٠

وينبغي ان تخفض قوة الجيش الشريفي الى وظيفة قوة امن داخلي ٠ مهمتها صيانة السكينة في البلاد ، ويجب ان تجمع كافة الادوات الحربية وتسلم للسلطة العسكرية ٠

ان المسائل التي تنجم عن هذا الوضع ، يناط امرها بالكولونيل باتلا رئيس اركان الحرب بجيش الشرق ، وهو يحلها بالاتفاق مع وزير حربيتكم ٠ وانه يمكنكم – ويتحتم عليكم – أن تثبتوا الطمأنينة في نفوس ابناء دمشق ، وهم الذين تتألف أكثريتهم من مجموعة عاملة حكيمة ، في استطاعتكم الاعتماد عليها ، وان الاهلين لن يمسهم سوء اذا لم يقوموا بالمظاهرات أو أي تحريض مخل بالامن العام ، وسيقمع كل عمل عدائي

وتصريحات أهمها البلاغ الذي نشر في جريدة العاصمة بتاريخ ٩ آب ١٩٢٠ • وكان مضمون هذا البلاغ هو اضفاء صفة الشرعية على انتداب فرنسا لسورية ، واظهار هذا الانتداب بمظهر الضرورة اللازمة لدولة لا تدري كيف تتصرف بمقدراتها ، وتفنيد شروط انذار غوورو وشرحها شرحا يختلف بصورة عكسية عن حقيقة مضمونها •، وتحدث البلاغ عن نوايا فرنسا الطيبة والشريفة وعن عواطفها النبيلة تجاه السوريين • ثم اختتم بمطالبة الاهلين بالمطالب التالية :

١ ــ ان يخلدوا الى السكينة التامة متجنبين دواعي الفوضى وعدم النظام التي تذهب بسمعتهم وسمعة بلادهم •

٢ ــ ان لا يتأخروا عن تسليم الاسلحة التي بحوزتهم ، وان يؤدوا ما عليهم من الغرامات اموالا منقولة او غير منقولة •

٣ ــ ان يحترموا القانون وحقوق مأموري الحكومة ويلبوا أوامرهم •

٤ ــ ان لا يكتموا امر كل من أتى ويأتي بأعمال مغايرة للقانون ورضى الحكومة في أي وقت من الاوقات ، والحكومة عازمة على انزال العقاب الصارم بكل من يخالف منهم ذلك •

أما واجبات رجال الامن فكان البلاغ يلخصها بما يلي :

١ ــ ان يسارعوا الى الضرب على أيدي كل من يتصدى الى العبث بالامن والاقلاق بالراحة بيد من حديد •

بأقصى الشدة • وان البلدة ستكون مشتركة في المسئولية ، لذلك يجب ان ينتخب من كل حي من احياء المدينة ، أعيان ذوي نفوذ يعتبرون بمثابة المسئولين ، وسيجري نزع السلاح من الاهلين اولا بالتراضي ثم بالقوة اذا لزم الامر • ولقد رأيتم عند استعراض جيشنا ، اننا نملك ــ عند الحاجة ــ الوسائل المؤدية لتوطيد الامن الذي تفتقر اليه هذه البلاد أسوأ افتقار •••» (يوم ميسلون ص ٣٤٠) •

٢ ـ ان يعلموا ان كافة القوات المحلية والمنتدبة متحدة ومتضافرة على مظاهرتهم في هذه الغاية النبيلة .

٣ ـ ان لا يغرب عن بالهم ان القوات التي يطلبونها لقمع الفتن واستئصال دابر الفساد والشقاوة عند الحاجة ، انما هي للضرب والتنكيل لا للانذار والتهديد . فيجب عليهم قبل استمدادها ان يهيئوا اسباب وقوع ذلك التنكيل بمستحقيه ، فيعينوا لها الهدف تعينا صحيحا ، بحصرهم اسباب وعوامل الفتن في الاشخاص المسببة والمتعمدة لها ، واذا لم يكن فبالحي او المدينة او القرية او العشيرة اذا اشترك بها أهلها . وان وقوع الامور المخلة من البعض ، وسكوت البعض الآخر دليل ارتياح ، يستوجب التنكيل بالجميع ، ولكن على كل حال ان الوجوه والمشايخ مسئولون شخصيا بالدرجة الاولى .. أما اذا اكتفوا بذكر الوقائع من غيراسنادها الى فاعليهاومتجاسريها الحقيقيين، فيعد ذلك دليلا كافيا على عجزهم فينحون عن وظائفهم ..

هذا وليعلم الموظفون والاهلون ، انهم اذا راعوا ما ذكرناه ، وقاموا بواجباتهم المتقابلة ، بصدق واستقامة ، يكونوا قد مشوا خطوة بعيدة نحو غايتهم الشريفة من استقلالهم المنشود ، والا فاللوم على انفسهم ولات حين مندم ..

وانهى الدروبي حياته بعد اسبوع من خطاب رائع جامع القاه في حفلة اقامتها وزارته للجنرال غورو والضباط الفرنسيين . وقد جاء في خطابه الكلمات التالية : (١)

« أرحب بفخامتكم باسم الحكومة أهنئكم .. وأتمنى .. وانني عملا بما يوحيه الي الشعور ب ... اشكركم على ما تعدون به السوريين من ... ولقد كان رجال البلاد المتنورون على ثقة وطيدة بما لفرنسا

وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش الفرنسية تتم مواصلة الزحف لاحتلال المدن السورية من الجنوب والشمال ، كانت المحاكم العسكرية في دمشق تصدر احكامها دون محاكمة ، ودون حضور المتهمين ، كل شيء كان يجري غيابيا • حتى ان الوطنيين كانوا يطلعون على قرار اعدامهم من البلاغات الرسمية المنشورة بالصحف ، وهم جالسون في دكاكينهم او في بيوتهم ، او تأتيهم أخبار بأن اسماءهم في القائمة ، وعندها كانوا يسارعون الى الاختفاء عن اعين رجال الامن والسلطات الآخذة في تعقيبهم • أما تحصيل الغرامات الـ ٢٠٠٠٠٠ دينارا ذهبية ، فقد بوشر في تحصيلها برؤوس الحراب ، ومن الطبيعي ان يجري هذ التحصيل من العائلات التي لا تملك شيئا •• وأما جمع الاسلحة ، فقد تم على أساس افراد العائلة وماضيها •• حيث فرض على كل « رأس » بندقية ومائة طلقة ، عليها ان تخلقها كما خلقها الله ، والا فالسجن او الاعدام او التشريد •

وكذلك كان من أول ما فعلته السلطات الفرنسية هو حل بقايا الجيش ، ووضع اليد على مخازن السلاح وجمعه بأقسى الوسائل من حوزة المسرحين والمتطوعين • كما جرى اعتقال ضباط الجيش المنحل ومحاكمتهم حيث اعدم بعضهم ونقل الآخرون الى جزيرة أرواد تحت رقابة صارمة •

ثم بدىء بتجهيز الحملات العسكرية ، منها سبع حملات على جبال

من سلامة القصد ، الا ان اقلية ضئيلة ـ اكثرها غريب عن الدار ـ كانت توسوس في صدر الجمهور ـ كما لا يخفى عليكم ـ بأن فرنسا دولة مستعمرة وانها •• على ان الذين انخدعوا بزخرف القول لا يلبثون ان يعرفوا الحقيقة • وزيادة بالايضاح اصرح لفخامتكم بأن الشريف فيصل كان يشاطرنا هذا الرأي وكان في مجالسة الخاصة، يجهر باخلاص واستقامة الفرنسيين••» (وختم خطابه في النهاية هاتفا) : « فلتحيا سورية ولتحيا فرنسا » •• يوم ميسلون ص ٣٠٩ •

اللاذقية ، وحملتان على جبل عامل ، وحملة على منطقة حصن الاكراد ، وحملة على حوران ، وحملات عديدة على ثورة الشمال • وهاجمت هذه الحملات القرى ، فأحرقت منها ودمرت اكثر من ثلاثمائة قرية ، وصادرت ما وجدته فيها من اموال ومواشي وممتلكات ثم اعتقلت عددا كبيرا من سكانها ، حتى لقد شمل الاعتقال كثيرا من النساء ، بحجة ايواء الثوار او مساعدتهم او انهن كن ينتمين اليهم بصلة القرابة •

أما الحكم المحلي فقد بقي صوريا بيد الحكومات التي تعينها السلطات الفرنسية • في حين كان الحكم الحقيقي للجيش الفرنسي ، ممثلا ببعثة انتدابية باشراف مندوب المفوض السامي • وكان هذا الحكم جامعا لكل السلطات والاعمال الحكومية والتشريعية والادارية والاقتصادية والأمنية • وأنشئت لهذه البعثة هيئة مصغرة في مدينة حلب باشراف معاون المندوب المفوض ، وهيئات مصغرة اخرى باشراف المعاونين في المراكز الاخرى •• أقيم بالاضافة الى ذلك مستشار الى جانب كل وزير وكل مدير وكل موظف ، مع ما يحتاج اليه هذا المستشار من مساعدين وتراجمة ، كان بيدهم أمر التوجيه والحل والربط ، وباختصار كان هؤلاء هم جهاز الدولة الحقيقي • (١)

---

(١) لفت هذا الاسراف في الوظائف وتعقيداتها نظر مسيو جونار عضو مجلس الشيوخ الفرنسي ، فوصفه وصفا تهكميا لاذعا امام مجلسه في ٦ نيسان ١٩٢١ حيث قال : « عندما يصل المسافر يشعر ان في المفوضية الفرنسية مصالح عديدة مهمة • وحالما يدخل السراي يخيل اليه انه منتقل الى أعظم وزارات باريس ، بعدد موظفيها • فالى جانب معاون المندوب السامي ، مستشارون يوازي عددهم عدد الوزراء ومعاونيهم في فرنسا ، ولكل مستشار مكتب خاص • وحيثما التفت ترى معاوني مستشارين ، ومستشارين متدربين ، وموظفين ، وكتابا ـ وما اكثر الكتاب •• ـ وترى الى جانب هؤلاء اركان حرب الجنرال غورو ، ومكاتبهم السياسية ، ومصالح الاستعلامات ، وباختصار موظفين لا يمكن حصرهم او تعدادهم ،

أما المندوب السامي ، فكان بمثابة الملك او الامبراطور ، بما كان يحيط به نفسه من مظاهر الابهة والسلطان . وأصبح مصـدر السلطات ورئيسها جميعا . يسير على نظام دكتاتوري فردي لا يبالي بما يصنع ، ويرى نفسه غير مسئول أمام احد ، يمنح نفسه ما شاء من صلاحيـات تشريعية وتنفيذية وقضائية ، ويصدر ما يشاء من قوانين ولوائح ، ويلغي بجرة قلم ما لا يروقه من انظمة وقوانين . ثم انتفخت هذه التصرفـات « السلطانية » الواسعة ، الى ان اصبح المندوب السامي يلغي دولة ودستورا ومجلسا نيابيا ويعتقل رئيس جمهورية ورئيس وزراء فيعزل وينشىء من جديد بجرة قلم ، دولة ودستورا ومجلسا نيابيا ورئيسا للجمهورية والوزراء كما حدث عام ١٩٣٠ و ١٩٤٣ .

وقد أبعد كل وطني سليم النية عن الوظائف ـ وخاصة الرئيسيـة منها ـ وقصرت هذه على الاذناب والمنتفعين والمتآمرين الذين كانوا على صلة بالفرنسيين ووكلائهم . ومثل هذا حدث في دوائر الامن ، فقـد كانت هذه القوى وسائل طيعة لتنفيذ كل ما ترسمه السلطات الفرنسية من خطط ومشاريع ، وكانت تتفنن في التزلف الى هذه السلطات بما يتسق مع ما تبيته من اعمال ، في حين كانت قيادتها العليا والثانوية بيد الضباط الفرنسيين .

ثم سلخت عن البلاد مصالح كثيرة وهامة جدا من الناحيتين المادية

دون ان تكون بينهم اي معرفة او رابطة .. صحيح ـ ان كلا منهم يجهل الآخر ويتصرف منفردا بنفسه . واذا نظرت الى شكل الادارة في الحكومات الاربع التي احدثت عقب الاحتلال . وهي : لبنان الكبير ودمشق وحلب واللاذقية ، رأيت المستشارين مرة اخرى حول كل حاكم من حكام هـذه الدويلات ، وفي كل منها حكام فرنسيون ، وترى مستشارين الى جـانب الرئيس في كل متصرفية ، وأظن ان الى جانب هؤلاء المستشارين يوجـد مستشارون مساعدون ايضا ... » (نقلا عن كتاب : حول الحركة العربية لدروزه ص ١٦) .

والمعنوية ..، وأنشئت لها ادارات خاصة سميت بـ « المصالح المشتركة » مرتبطة مباشرة بالمفوضية العليا، وتدار من قبل رؤساء وموظفين فرنسيين . وكانت ادارة المصالح المشتركة هذه تعتبر كحكومة داخل حكومة . وكانت تشمل الجمارك وادارة حصر التبغ (الريجي) والبرق والبريد والهاتف والسكك الحديدية والموانيء والمطارات والمنائر والمحاجر ومراقبة الشركات والامتيازات والاحتكارات والملكية الفنية والتجارية والصناعية والامن العام والجوازات وكتائب الجيش المحلي وشئون العشائر .. الخ .

وكانت ايرادات هذه المصالح تجبى من قبل ادارتها الفرنسيه، وجعلت لها ميزانية خاصة ينفق منها على المفوضية السامية وملحقاتها، بالاضافة الى مرتبات موظفي هذه المصالح ونفقاتها . وكانت تبلغ احياناً ضعف ونصف الضعف من نفقات الحكومة السورية برمتها . أما المصالح الحكومية الخاصة، كالمعارف ومسح الاراضي (الكاوداسترو) والري والاشغال والتجارة والصناعة، فقد سلمت لموظفين فرنسيين لا أهلية لهم الا فرنسيتهم ..

وكان بنك سوريا ولبنان - موضوع الخلاف السابق - من جملة المشاريع العاجلة التي حققها الفرنسيون منذ أيامهم الاولى . وكان رأسمال هذا المصرف فرنسيا، بدأ بعشرة ملايين فرنك ثم ارتفع الى عشرين مليوناً بأقل من سنتين . وقد منح الامتياز مقابل سندات الدفاع الوطني على الخزينة الفرنسية . وقد اشترى في البدء، سندات بقيمة خمسة وعشرين مليونا من الليرات السورية اصدر مقابلها بنفس القيمة ليرات ورقيه . ولم يكن لتلك السندات قيمة وثيقية، كما انه لم يكن من الضمانة الذهبية لهذه العملة الا قدر زهيد جدا . وعلى هذا اصبحت هذه العملة نافذة المفعول في سوريا ولبنان، تؤخذ بها سلعهما وذهبهما بصورة اشبه ما تكون بعملية الاختلاس ..، وبهذا خلف البنك السوري سلفه البنك العثماني

(بالاسم) • وكان للسوريين واللبنانيين فيه ودائع بقيمة مليوني جنيه من الذهب ، فأصدر المفوض السامي تشريعا اعيدت الودائع بموجبه الى اصحابها من تلك العملة الورقية •• فعاد الى البنك من هذه المعلية وحدها ربح يوازي رأس ماله على حساب اصحاب الودائع من اهل البلاد • وكثيرا ما بلغت أرباح هذا المصرف ١٠٠٪ و ١٥٠٪ ، بسبب ما كان يناله من أرباح وفوائد ، وكان على الدوام يغرق الأسواق بالعملة الورقية غير المغطاة ، ويسحب مقابلها الذهب من المواطنين ••

ولكي تخمد الحكومة آخر انفاس الشعب أقامت جهازا للاستخبارات ذا شبكات دقيقة منظمة تصل الى أقرب وابعد منطقة من مناطق الوطن • وقد حشدوا في هذا الجهاز الجاسوسي كل مائع وخائن وعميل وعديم الاخلاق • وأخذوا يستعينون به على استراق السمع وخلق الوشايات وكيد المكائد ونشر الارهاب ، حتى بات المواطن يخشى ان يبوح بكلمة او يعبر عن رأيه علنا في مسألة تتعلق بالاحتلال الفرنسي البغيض •

واسهاما في قتل الوعي الوطني والشعور الديني ، وضع الفرنسيون ايديهم على مناهج التعليم من مختلف الدرجات ، وجعلوا اللغة والثقافة والتاريخ الفرنسي في المراتب الاولى من مناهج التعليم ليضمنوا نشوء جيل لا يعرف شيئا عن تاريخه الوطني القريب او البعيد • كما وضعوا ايديهم على الاوقاف الاسلامية وجعلوها تحت اشراف مفتش فرنسي يأتمر بأمر البعثة الفرنسية ، ووسدت الوظائف الوقفية والدينية الى المناصرين والمتزلفين والمنافقين ليصبحوا وسيلة من وسائل الدعاية • كما ان البادية السورية بعشائرها ومشاكلها وضعت في المنهج المرسوم • فأنشئت الصلات الوطيدة بين السلطات وبين الشيوخ • واستبدل من هؤلاء الشيوخ من يكن شيئا من الشعور الوطني والعربي بأشخاص آخرين أصبحوا شيوخا ،

وأغدقت عليهم المنح والمرتبات والاسلحة لتضمن طاعتهم ويصبحوا قيد الاوامر ..

ولعل أغرب وأبشع اجراء اتخذه الفرنسيون في سورية هو تجزئتها الى دويلات .. فرغم جميع التدابير الآنفة الذكر والتي كان يجب ان تكفل القضاء على الروح الوطنية والشعلة القومية والازدهار المالي والاقتصادي والحضاري في صدر الشعب ومرافقه الحيوية ، فقد عمد الاستعمار الفرنسي الى تقسيم القطر السوري الى خمس دول ، مخالفا بذلك ابسط تعاريف مقومات الشعب الواحد ذي التاريخ والطبيعة والعادات والتقاليد العربية الواحدة ، التي تجعله بمجموعه جزءاً من الامة العربية . وهذه الدول هي :

١ ـ دولة حلب : بناء على قرار اعلنه الجنرال غورو في ٨ ايلول ١٩٢٠ . وجعل منها دولة « مستقلة » .

٢ ـ دولة العلويين : بناء على قرار غورو في ٢٣ ايلول ١٩٢٠ . وتضم : اللاذقية واقضية صهيون وجبلة وبانياس وحصن الاكراد وصافيتا وطرطوس ومصياف .

٣ ـ دولة دمشق : بناء على قرار غورو في ٣ كانون الاول ١٩٢٠ . وجعل منها دولة « مستقلة » . وابدل الوزارات بمديريات عامة وجعل عليها حاكما عسكريا .

٤ ـ دولة جبل الدروز : اعلنت في ٢٠ نيسان ١٩٢١ بمراسيم تتضمن سبعة وعشرين بندا ..

٥ ـ لواء الاسكندرون : كان في البداية تابعا لدولة حلب • وفي صيف ١٩٢٤ صدر قرار بفصله واعتباره يتمتع بنظام اداري ومالي خاص تمهيدا لتسليمه الى تركيا ••

وفي الرابع عشر من أيار ١٩٢٠ اذاع المفوض السامي مجموعة الدساتير والقرارات التي وضعت لد « الدول السورية » وبعث بها الى عصبة الامم عن طريق وزارة الخارجية الفرنسية ، وليس غريبا ان اقرت هذه العصبة مجموعة تلك الدساتير والقرارات ، واعتبرت سورية مؤلفة من خمس دول وحكومات ••

وقد كشفت تجربة التقسيم هذه ـ أكثر من أي اجراء آخر ـ النار المخبوءة تحت الرماد • فأدرك الجنرال غورو ومن ورائه حكومته المستعمرة عقم هذه التجربة ، وخشي أن تؤدي الى النتيجة المرعبة ، التي كانت محاولة طمسها تجري على أوسع نطاق • فأدخل على مشاريع التقسيم تعديلا بسيطا اعتبره هاما ، وهو انشاء اتحاد بين دول دمشق وحلب واللاذقية بقرار اصدره بتاريخ ٢٢ حزيران ١٩٢٢ مؤلف من ثمان مواد •، وقد اعترف غورو في احد خطاباته بأن تقسيم سورية الى عدة دول رغم التعديل الجديد لم يحقق الغاية المطلوبة :

« انني اعلن ان هذا الاتحاد لم يقابله الاهالي في كل مكان بعواطف واحدة • غير انه من المحتمل ان يكون نقله الى الناس لم يحدث بالطريقة الصحيحة • لذلك أراني مضطرا الى قراءته عليكم بنفسي •• »

وهكذا اقام الفرنسيون في سورية ادارة استعمارية غاشمة ، معتمدة البطش والتنكيل والارهاب ، جاعلة همها الاكبر الحئول دون أي تقدم جدي ، والتصدي لكل حركة وطنية ، وتعطيل أي حيوية ونشاط ، وقتل روح التمرد حتى في اضعف النفوس ، وبث روح التفرقة بين مختلف الفئات

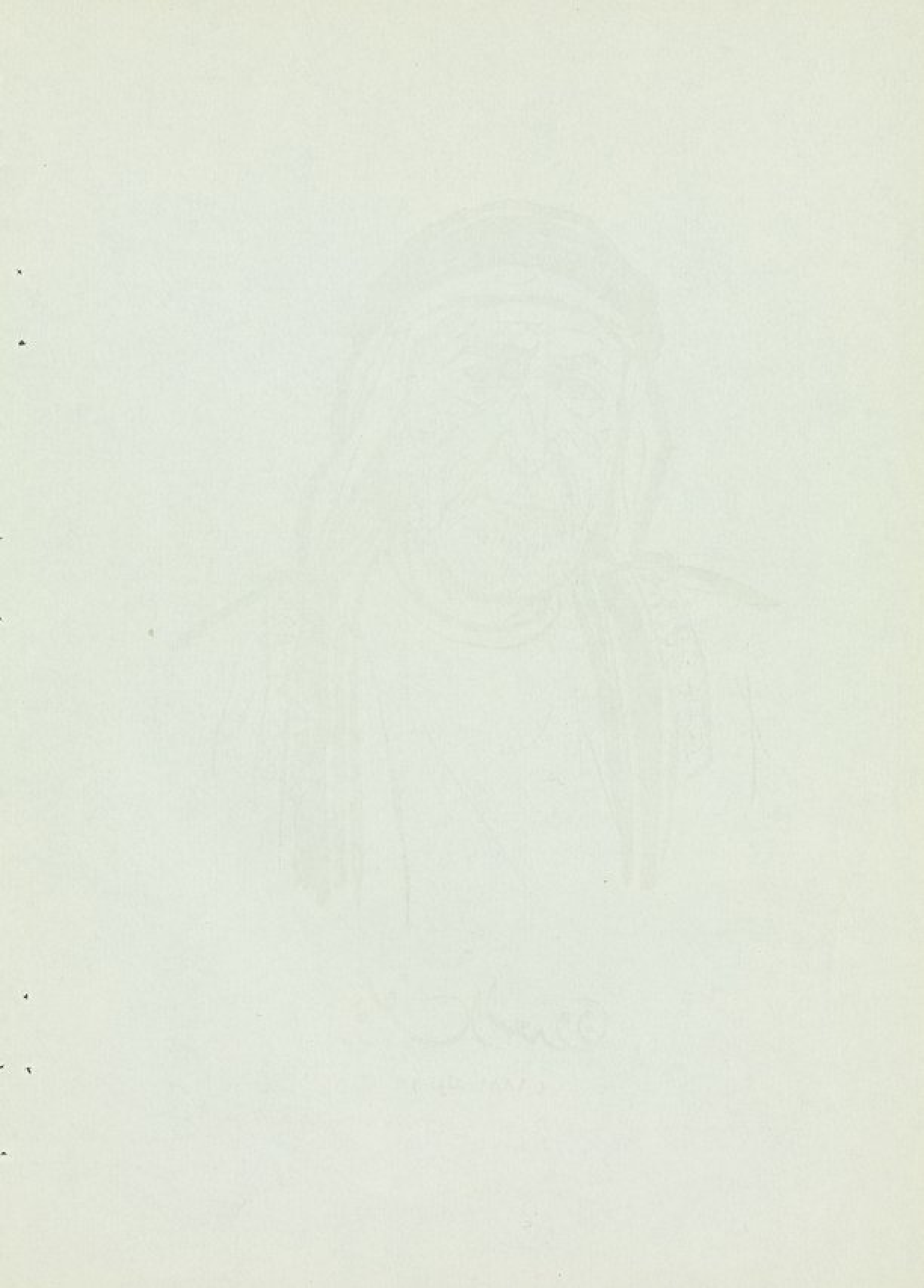
والطوائف والمذاهب ، والهاء الناس بمشاغل ومشاكل تنسيهم حـــالتهم الحقيقية ، واستغلال خيرات البلاد وثرواتها وتجارتها وكل مرفق مـــن مرافقها الحيوية •• وكان العسكريون يتربعون على اكوام الجمـــاجم وينشدون :

نحن في دمشق •• ان هذا الاسم كان يمثل لنا شيئا خرافيا ••



يوسف السعدون

(تولد ١٨٨١)



ردود الفعل الاولى لسياسة الاحتلال

كانت ردود الفعل الاولى لسياسة الاحتلال الفرنسي في سورية عبارة عن انتفاضات محلية ، تميزت بالعنف والسرعة التي تتميز بهما أي ثورة • وكان مفعولها من حيث الشدة والنتائج بليغا وخطيرا للغاية • وكانت هذه العمليات الثورية بمثابة الطليعة او « الافتتاحية » لسجل ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ • ومن ردود الفعل لسياسة الاحتلال ايضا ، ان ثورات ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ أخـــذت تجنح نحو العنفوان ، قبل ان تتكالب عليها الجيـــوش والحملات ، وتتعاون على اخمادها بوحشية لم ير لها التاريخ مثيلا •

بدأت الانتفاضة الاولى بتاريخ ٢١ آب ١٩٢٠ ، أي بعد الاحتـــلال بشهر واحد • عندما بوشر بجمع الغرامات الحربية التي فرضتها سلطـــات الاستعمار الفرنسي على لسان غورو • اذ لم تشأ هذه السلطات ان تتكبـــد نفقات الاحتلال والقمع والتدمير من خزائن وزارة المالية الفرنسية ، رغم ان هذه الخزائن القت عن كاهلها اعباء الصرف على عشرات الالوف من الموظفين غير الاكفاء ، والعاطلين عن العمل ، واللصوص ، والمرتزقـــة وغيرهم •• هؤلاء الذين استبعدوا الى سورية المحتلة لكي يعيشوا مـــن أموالها وارزاقها •

كانت حصة محافظة حوران من هذه الغرامات مبلغ ٢٠ الفـــا من الليرات الذهبية وبما ان الحورانة لا يعرفون شيئا اسمه ليرة ذهبية فقـــد فغروا افواههم من الدهشة ، ولبثوا في اوكارهم ووراء محاريثهم ينتظرون حلا لهذا اللغز اللعين • وعندما وجد غورو ان الخزانة لم تزل فارغة ،

وان وزارة المالية الفرنسية تستعجل وصول الذهب ، فقد أمر أعضاء وزارته ان تسافر الى حوران لجمع الذهب المطلوب •

وفي الساعة الثامنة من صباح الحادي والعشرين من آب ، تحرك من محطة البرامكة قطار يحمل في عرباته : علاء الدين الدروبي رئيس الوزراء ، وعبد الرحمن باشا اليوسف رئيس مجلس الشورى ، وعطا باشا الايوبي وزير الداخلية ، وشيخين من رجال الدين الكبار •، مع سرية من الجنود الفرنسيين لحراسة هذا الوفد العتيد • وعندما كان القطار يتوقف في المحطات ، كان رجال الوفد يلمحون فيها فلاحين حفاة عراة معفرين بالتراب ، تلوح في اعينهم الرمداء نظرات شبيهة بنظرات الفضول المستطير • وكان اعضاء الوفد مع الجنود يطلون برؤوسهم من النوافذ ويستعرضون المستقبلين بابتسامات من جاءوا ببشرى سارة • ووصل القطار الى محطة خربة الغزالة (٧٥ كم جنوب دمشق) فتوقف كعادته • وكان منظر الفلاحين في هذه المحطة يختلف بعض الاختلاف عن منظر الفلاحين في المحطات السابقة ، لا من حيث اللباس والهيئات العامة ، بل من حيث أن هؤلاء كانوا يصرخون ويهتفون هتافات غامضة • واستخف الطرب بعلاء الدين الدروبي رئيس الوزراء فنادى رجاله وطلب اليهم ان يطلوا برؤوسهم على المستقبلين •

ولكنه ـ ولسبب ما ـ تذكر على الفور كلمة كان قد قالها منذ شهر عندما اقترح احد الوزراء في حكومة الملك فيصل ـ اثر انذار غورو ـ ان تنتقل الحكومة الى حوران ، فقد رد عليه الدروبي : : « انا لا أوافق على هذا الاقتراح لان الحوارنة لا يؤمن جانبهم •• فسيذبحوننا كما تذبح النعاج •• »

ويبدو أن الدروبي قال عبارته هذه في ذلك الحين لاسباب لا تتعلق حقيقة بالذبح ، بل لانه كان مشغولا بتأليف وزارة غورو الجديدة ••

وعلى كل حال ، فانه عندما تذكر عبارته الآنفة الذكر تلفت حوله فوجد الجند يصوبون بنادقهم ، فربط هذا الموقف من جأشه ، وضحك في سره قائلا : (انني في حماية الجند الفرنسيين فهل أخاف من فلاحين لا يحملون غير مدى مثلومة وسيوف صدئة ومذاري محطمة الاسنان وفؤوس فقدت نصاباتها و ..) ونسي ان الذبح بهذه الادوات البدائية ، اشد قسوة من الذبح بموسى الحلاق .. ولفترة معينة ، وفيما كان الفلاحون يصرخون ويجأرون : « اين الذهب ..؟ » راح اعضاء الوفد يتلمسون اعناقهم .

وفي تلك اللحظة لمح هذا المشهد فلاح اسمه زعل اليوسف ، وكان هذا الفلاح قد باع ابنته الوحيدة منذ ثلاث سنوات ـ اثناء الحرب ـ برغيف من الذرة . فألهمه هذا المشهد على الانتقام للذهب المفقود .، ولابنته المباعة ، فانتضى سكينة المثلومة وهتف : « ليس لدينا شيء نبيعه .. » وهتف الفلاحون من ورائه : « غير شرفنا واعراضنا .. » وفي تلك اللحظة طاشت رصاصات الجند في أجساد الفلاحين السمراء ، ولكن ذلك لم يزدهم الا حماسا فانقضوا على القطار ، وبدأت السيوف الصدئة والمدى المثلومة والمذارى فاقدة الاسنان اعمالها في النحور المنتفخة و ... و ضرب غورو كفا بكف وصرخ مفجعا : « لقد فقدت وزارتي .. وضاع الذهب » .

وعلى الاثر سارت الحملات العسكرية الى حوران ، فأحرقت الزرع والنسل ، ودمرت القرى ، ونهبت المحاصيل ، وشردت النساء والاطفال . وفي ايلول ١٩٢٢ اعدمت كلا من الفلاحين صلاح الدين المصري وحسين الحاج ويوسف عيسى وزعل اليوسف بتهمة اغتيال الوزراء ..

أما الحادثة الثانية ، فقد انصبت على رأس الجنرال غورو بالذات ، وكانت في ٢٣ حزيران ١٩٢١ . كان الجنرال المندوب السامي لسورية وكيليكيا متوجها بسيارته الى القنيطرة لاسترضاء الامير محمود الفاعور قائد ثورة الفاعور . وكان في صحبته حقي باشا العظم حاكم دولة دمشق

ومرافقان عسكريان • وما ان وصلت السيارة الى احد المنعطفات الخطرة ، المحصورة بين اكوام من الحجارة السوداء ، حتى توقفت فجأة • وصرخ غورو بعصبية « ماهذا ••؟ » فأجاب السائق « ان الطريق مسدود بالاحجار يا سيدي و •• » وما كاد السائق يتم عبارته حتى انهال الرصاص على السيارة من كل جانب • وفي تلك اللحظة وصلت سيارة الحرس المرافقة ، فتوقفت قبل الوصول الى المنعطف ، وهبط منها رجال الحرس وبدأوا باطلاق النار على الثائرين وتراجع الثائرون بعد ان تركوا السيارة مثقبة كالمصفاة ، معتقدين بأن ركابها بما فيهم الهدف الحقيقي قد اصبحوا كومة من الجثث •

ومن سوء الحظ ان غورو كان نصفه من خشب وكان عسكريا بارعا، فقد قذف بنفسه من السيارة بعد أن أصيبت اعضاؤه المستعارة بسيل من الرصاص • أما حقي العظم فكان نصيبه خمس رصاصات في فخذه وذراعه وشفته • وابى احد المرافقين الا ان يكون شهيد الواجب في حين اغمي على المرافق الآخر ثم أفاق فاقد الرشد •

وبعد يومين من هذا الحادث اذاعت القيادة الفرنسية البلاغ التالي :

« في يوم ٢٣ حزيران ظهرت على طريق القنيطرة عصابة خطيرة ، تبين ان احد افرادها اسمه ادهم خنجر يطلب رأسه حيا او ميتا بجائزة كبيرة • وبعد ان قضت هذه العصابة مآربها الاجرامية ، انسحبت الى الخلف دون ان تخلف اثرا •• »

وكان من نتائج هذا الحادث ، ان زحفت الى القنيطرة حملة كبيرة بقيادة الكولونيل روكرو فدمرت بأمر المندوب السامي قرى : جباتا الخشب ، المنشية ، العوفاني ، الطرنجة ، الاحمر ، تل الشيخة • وحجزت أموال وممتلكات أهاليها • وحكمت على سكان كل قرية بغرامة من ٥٠ الى ١٠٠ ليرة ذهبية • ودمرت الطائرات واحرقت ١٧ مزرعة في مجدل

شمس وجباثا الزيت • وفي ٣٠ من الشهر عادت الحملة « المظفرة » الى دمشق وباعت الممتلكات والمواشي بالمزاد العلني لتملء خزانة وزارة المالية الفرنسية •

وفي الثامن والعشرين من ايلول **١٩٢١** زحفت من حلب حملة كبيرة بقيادة الجنرال دو بيوفر نفسه لتطفيء الثورة التي اشتعلت في دير الزور •

وفي الوقت ذاته اشتعلت في بعلبك ثورة عارمة بقيادة الثائر ملحم قاسم

وفي نيسان **١٩٢٢** سارت مظاهرات هائلة ، فرقت برصاص الجنود وحرابهم نتيجة اعتقال الوطنيين الذين احتفوا باستقبال وتوديع رئيس لجنة الاستفتاء بشكل جماهيري ، أدى الى فضح الاستعمار الفرنسي ، واربك ادارته •

وفي **١٧** تموز **١٩٢٢** وصلت الى جبل الدروز حملة كبيرة لاعتقال ادهم خنجر الذي كان ملتجئا الى سلطان باشا الاطرش ومحتميا في كنفه ، فتمكنت من اعتقاله وسوقه الى السويداء • وفي ذلك الحين كان سلطان باشا غائبا عن الجبل ، فما ان علم بهذه الحادثة الرهيبة ـ بالنسبة للتقاليد والاعراف العربية ـ حتى عاد على الفور ، وارسل وفدا من ابناء الجبل الى القائد الفرنسي في السويداء يلفت نظره الى خطورة هذا الحادث ، ويطلب اليه الافراج عن الرجل • ولكن القائد رفض السماع للوفد واصر على اعتقال الثائر • مما حدا بسلطان باشا ان يرسل الى السلطات الفرنسية في دمشق الانذار التالي :

« مع الاسف انكم لم تراعوا البند القائل ان فرنسا ستحافظ على اعرافنا وتقاليدنا العربية • ومعروف ان الضيف والقاصد الينا هما واحد في نظر عشائرنا • فرجال حكومتكم لم يراعوا هذا البند ، لذا اطلب من حكمتكم الا تجعلوني مضغة في افواه

العرب ، فاتخصص بالاهانة من امثالي في سورية العربية. وانا ارى أن موتي خير من اهانة ضيفي .. لذا فاني اتوسط للرجل الذي اعتقلتموه من مضافتي وان تفرجوا عنه وتعيدوه اليها سليما معافى انقاذا لشرفي ووطني..»

سلطان الاطرش (١)

ولكن السلطات الفرنسية لم تستجب لهذا النداء الحكيم . مما دعا سلطان باشا ان يعلن عن استيائه على شكل حركة تمرد ، فجمع رجاله محاولا ان يخلص الاسير بالقوة . وحاصر دار المستشار الفرنسي في السويداء مطالبا بالافراج عن الثائر . ولكن المستشار تمادى في غيه ، وابى الا الدفاع وطلب لهذه الغاية قوة من دمشق ، فحضرت على الفور كوكبة من الدبابات والمصفحات لحراسة دار المستشار وتفريق المحاصرين . وما ان وصلت تلك القوة الى تل الحديد حتى تصدى لها افراد الشعب بالرصاص وزجاجات البترول المحترقة ، مما ادى الى تعطيل ثلاث دبابات وفرار الباقي ، في حين قتل قائد الكوكبه مع اربعة من الجنود واسر خمسة . وعلى الاثر توجه الى الجبل سرب من طائرات القتال وبدأ القصف والحرق والتدمير . وبما أن الاهالي لم يكونوا في ذلك الحين مستعدين لمواصلة القتال واعلان الثورة ، فقد تواروا عن الانظار ليهيئوا انفسهم لهذا العمل العظيم . في حين نقل الثائر ادهم خنجر الى دمشق حيث جرى استجوابه بطريقة خالية من العرف الانساني . ثم حمل الى بيروت وأعدم .

ان خير عبارة يمكن فيها ايجاز ردود الفعل لسياسة الاحتلال الفرنسي في سورية ، هي الكلمة التي قالها الجنرال ساراي ــ ثالث مندوب سامي لسورية ولبنان ــ .

ان بعض الكتاب الفرنسيين يجهلون كل شيء عن سورية ، فيجب ان لا يلوموا اذا اضطررنا ان نتخذ

---

(١) ..... السفرجلاني : تاريخ الثورة السورية ص ١١٠

هناك بعض الاجراءات العنيفة . يكفي ان يعرفوا انه في عام ١٩٢٢ وحده نشبت في سورية خمس وثلاثون ثورة ، كان طعمها خمسة آلاف بين جندي وضابط من ابنـــاء فرنسا .. » (١)



(١) دروزه : حول الحركة العربية ص ٢٧

الفصل الثامن

١ ـ مقدمات ثورة ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧

فشلت حكومة الاستعمار الفرنسي وأعيتها الحيل في تثبيت أقدامها في سورية خلال خمسة اعوام من الاحتلال • وكان من جملة التدابير التي كانت تتخذها لتغيير وسائل الحكم هو تبديل المندوبين السامين • ففي الخامس والعشرين من تشرين الثاني ١٩٢٢ استدعت مندوبها الاول ـ الجنرال غورو ـ ليقدم الحساب • وهناك تبين للجمعية الوطنية ان « موظفها » لم ينجح في مهمته ، فأجبرته على الاستقالة • وظلت الحكومة حتى شهر نيسان ١٩٢٣ تبحث عن الرجل الكفء ليقوم بالمهمة المطلوبة ، حتى عثرت عليه بشخص الجنرال ويغاند • فعينته مندوبا ساميا جديدا لسورية ولبنان • وكان هذا الجنرال من فصيلة سلفه ، رجلا عسكريا وقائدا حربيا ، ورئيسا لاركان حرب المارشال فوش • وقد وصل الى سورية في ٩ ايار ١٩٢٣ فسار على الطريقة المرسومة له ، وهو تثبيت الاحتلال وقمع المظاهرات والثورات السورية •

وفي عهد هذا الجنرال ـ المندوب السامي ـ تمدد امتياز البنك السوري الذي كان شوكة في حلق البلاد الاقتصادي ، هذا المصرف الذي قال عنه النائب الفرنسي فيكتور بيرار •

« ان ميزانية هذا البنك تدل على ان معدل

ربحه الصافي يساوي ٢٨ مليونا من الفرنكات سنويا ، فمرحى لهذا البنك الذي يتناول ٦٪ ناحية الفوائد ، و ٢٨ مليونا من الفرنكات من ناحية الاوراق النقدية . »

وفي عهد الجنرال ويغاند ، انشئت المحاكم المختلطة التي كانت مهمتها قتل وابعاد الوطنيين بصورة شرعية . وفي عهده ايضا ، اشتدت قبضة الاستعمار ضغطا على الافواه ، فأخرست الالسن وحطمت الاقلام ، وضيقت على ابسط تعريف لمفهوم الحرية ، ولكن الثورات الخمس والثلاثين التي تحدث عنها خلفه ظلت مشتعلة في انحاء متفرقة من البلاد ، مما اضطر الحكومة الاستعمارية ان تسحب مندوبها الثاني ، وتجبره على المثول امام اللجنة الوطنية ثم تقدم له الجزاء .

وبتاريخ ٢٨ تشرين الثاني ١٩٢٤ قدم الى سورية مندوب جديد ، يختلف عن فصيلة المندوبين السابقين بعقليته التحررية ـ رغم كونه احد الجنرالات اللامعين في وزارة الحرب الفرنسية ـ والجنرال التحرري الجديد كان المدعو ساراي . وكان اول ما فعله هذا المندوب السامي ساراي عند وصوله ، هو دعوة المجلس اللبناني لانتخاب ثلاثة من اعضائه ، يختار هو واحدا منهم ليكون حاكما لدولة لبنان بدلا عن الحاكم الفرنسي . وبما ان الشعب لا يريد انصاف الحلول ، فقد رفض المجلس تحت ضغط ممثليه ان يوافق على هذا الاجراء . فأصدر ساراي امرا بحل المجلس . وبما انه قدم الى لبلاد حاملا فكرة الاصلاح النسبي ، فقد الغى الاحكام العرفية التي كانت ما تزال سارية المفعول منذ تموز ١٩٢٠ ، ثم اصدر امره بالعفو عن خمسين محكوما من قبل المحاكم العسكرية الفرنسية . وأصدر بلاغا جاء فيه : انه مستعد لسماع الشكاوي من أي جهة كانت ، والاجابة على مطاليب الشعب . وعلى الاثر تألف وفد من رجال سورية العاملين الوطنيين ، وسافر الى بيروت بتاريخ ١٧ كانون الثاني ١٩٢٥ ، رافعا الى المندوب السامي

عريضة تحمل عشرات الالوف من التواقيع من مختلف فئات الشعب وطبقاته • وقد جاء في العريضة •

« نحن الموقعين والباصمين ادناه قد انبنا عنا الوفد الحامل لهذه المطالب ليبلغها الى الجنرال سراي المفوض السامي للحكومة الفرنسية ، وليعرب له عن اماني الشعب السوري التي يريد تحقيقها وهي :

١ ـ نطلب ان ترجع البلاد الى حدودها الطبيعية ، وترجع الى ما كانت عليه قبل الاحتلال دولة واحدة دون تجزئة او تقسيم •

٢ ـ دعوة الجمعية التأسيسية وان تنتخب انتخابا حرا لتضع للبلاد قانونها الاساسي وحل المجالس التمثيلية الحالية لانها لا تنطبق على القواعد النيابية ، وحصر حق التشريع بالمجلس النيابي المنتخب والغاء القوانين الاستثنائية الصادرة بشكل قرارات فردية •

٣ ـ لما كانت سورية معترفا باستقلالها في المحافل الدولية ، فنطلب تأييد قاعدة مسئولية الحكومة امام البرلمان المنتخب ، والغاء الادارة العسكرية ، ومنع تدخل المستشارين الفرنسيين حتى في الامور الجزئية •

٤ ـ ان الحرية الشخصية حق طبيعي لكل فرد من افراد العالم ، وهي مقدسة في نظر الشرائع العامة في جميع البلاد المتمدنة ، فليس ما يبرر عمل السلطة في تضييق نطاق هذه الحرية • ولذلك نطلب احترام الحرية الشخصية بجميع انواعها •

٥ ـ بما أن السلطات السابقة اعتقلت كثيرا من الوطنين وأبعدت الكثيرين غيرهم ، بلا محاكمة او اثبات استنادا الى وشاية الجواسيس والاستخبارات فاننا نطلب وضع حد لهذه الاعمال المنافية للقوانين الدولية ، واصدار عفو عام عن جميع الموقوفين والمبعدين السياسيين •

٦ ـ توحيد القضاء بالغاء المحاكم الاجنبية واحترام مهنة

القضاء واستقلال المحاكم وجعل اللغة العربية هي لغتها الرسمية •

٧ ـ لما كانت الاوقاف والمؤسسات الخيرية الدينية قد وجدت للاعمال الخيرية والشعائر الدينية ، ولما كان الخط الحديدي الحجازي هو جزء من هذه الاوقاف ، فاننا نطلب ارجاع هذه المؤسسات الى رجالها الوطنيين من ابناء البلاد ، وارجاع الخط الحجازي الى استقلاله السابق •

٨ ـ منع هجرة الفرنسيين الى البلاد السورية •

٩ ـ توحيد اسعار النقد وجعل الذهب اساسا لجميع المعاملات الرسمية وغير الرسمية •

١٠ ـ الغاء الزيادة الجمركية واتباع قاعدة الحماية تبعا للحالة الاقتصادية ، والاسراع في عقد اتفاقات جمركية مع الحكومات المجاورة بالاشتراك مع الحكومة المحلية والغرف التجارية •

١١ ـ جعل الشركات ذات الامتيازات تابعة للحكومة المحلية ومراقبتها ، وحصر اعطاء الامتيازات بالحكومة الوطنية ، والغاء مصلحتي الدخان والديون العامة •

١٢ ـ توحيد الانظمة الادارية والغاء قانون العشائر الاستئنافي •

١٣ ـ الاقتصار على اهل البلاد بالوظائف الرسمية • »[١]

ويبدو ان هذه المطاليب قد فتحت عيني ساراي على حقيقة عجيبة ، كان لا ينتظر لها وجودا في بلد قررت فرنسا وانكلترا وجوب الانتداب عليه • وكانت هذه الحقيقة ، هي أن الشعب العربي في سورية على مستوى من الوعي والنضوج بحيث يعرف ما يريد ، وكيف يطالب به • غير أنه لاحظ ـ وهو منتدب حكومة استعمارية ـ ان تحقيق هذه المطالب يعني

---

(١) السفرجلاني تاريخ الثورة السورية

تقلص نفوذ فرنسا في سورية الى درجة الصفر ، من أجل هذا اراد ان يستعمل لغة السياسة المطاطة في الرد على الوفد حامل العريضة ، ريثما يجد وسيلة اخرى لاسكات الشعب • وقد جاء في كلمته التي رد فيها على رجال الوفد :

« يظهر لي انكم تمثلون طبقات الشعب المختلفة ، واراني سعيدا جدا بالتحدث اليكم ، واعتقد أن لكم ثقة بي فآمل ان نتحد معا على العمل لتحقيق المطاليب التي تريدونها ، واذا كان صحيحا ما اتصل بي من المعلومات ، فانكم تمثلون الفكر النير والعقيدة الحرة ، واعتقد انكم ستتعاونون لمساعدتي على جعل الثمرة ناضجة في بلادكم •• »

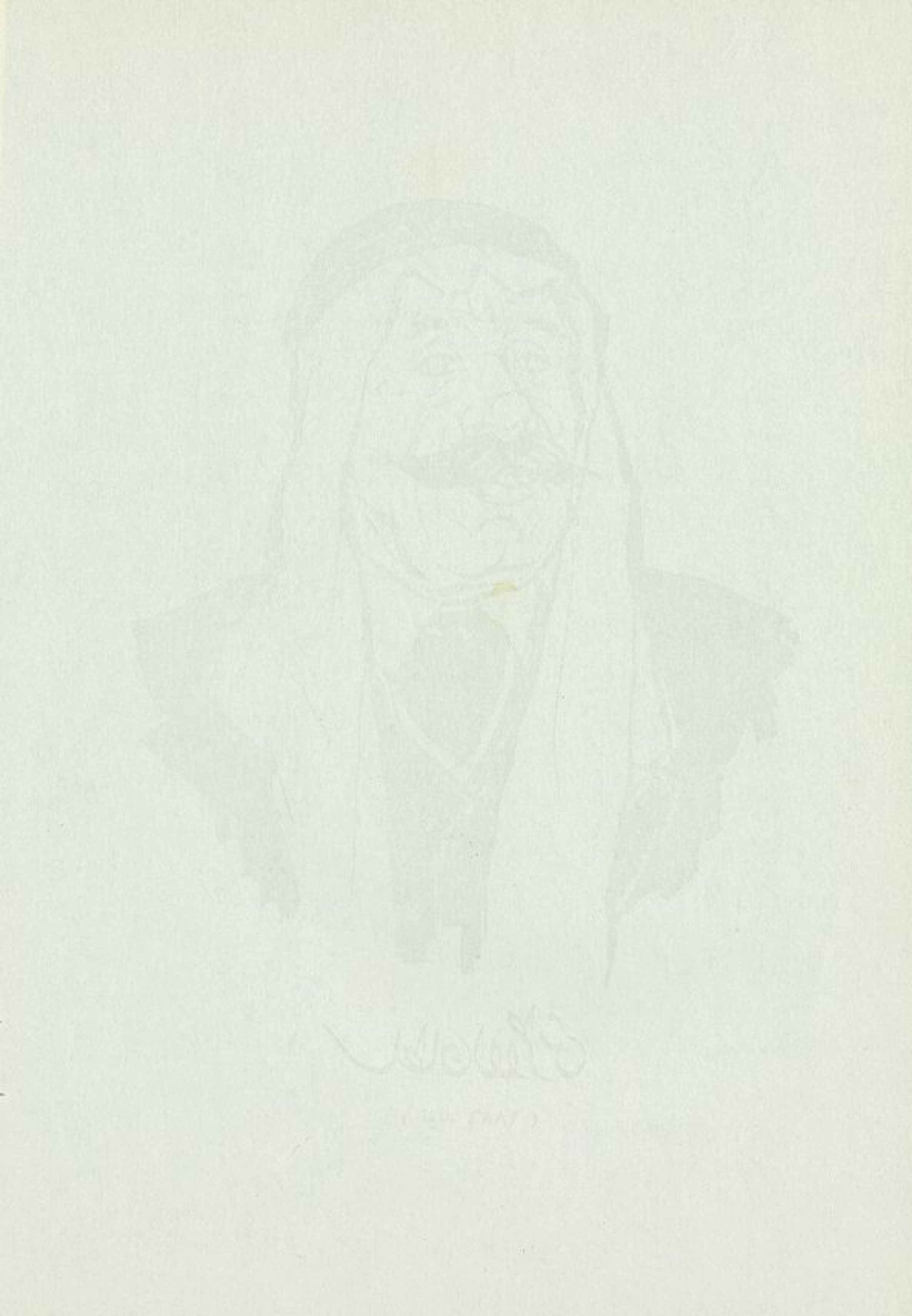
وعندما اتصل ساراي بحكومته للتشاور ، ارسلت اليه مستشارا بالقانون ليشترك معه في وضع دستور لسورية المنتدبة • فكان هذا العمل بداية اليأس من المندوب السامي الجديد واصلاحاته • فثار الرأي العام مطالبا بدستور وطني منبثق عن مجلس نيابي وطني ، في حين كانت تحضيرات الثورة الكبرى قد اشرفت على الانتهاء ، بعد ان امتلأت مراجل الصدور بالحقد والالم ، وراحت تبحث عن المنفذ الذي تنطلق منه بدوي يهز الارض والجبال •

وقدر للشرارة الاولى ان تنبعث من جبل الدروز • وكان زعماء الجبل قد اتصلوا منذ ايار ١٩٢٥ ببعض الوطنيين في دمشق واتفقوا على العمل متعاهدين مقسمين على الحرية الكاملة او الموت •



سلطان الأطرش

(تولد ١٨٨٦)



٢ ـ بواعث الشرارة الاولى وامتدادها

كان من أهم بواعث انطلاق شرارة الثورة السورية ، تعسف واستهتار حاكم الجبل الفرنسي الكابتن كاربيه • كان هذا الحاكم قد أخذ يستعمل سياسة شاذة من القسوة التي ليس لها مبرر ، ونشر جوا من الجاسوسية والوشاية والارهاب • فكان لا يتورع عن ضرب وصفع واهانة البارزين والشيوخ من سكان الجبل على مرأى من الناس • حتى بلغت تصرفاته حدا لا يمكن احتماله • ويروى أنه من اجل قطة ضائعة استعمل قواته العسكرية وسلطاته الواسعة لكي يعثر عليها ، واعتبر ضياعها مؤامرة يقصد بها النيل من فرنسا ومن ضباطها وشرفها •• الخ •

وأخذ الناس يرفعون عقيرتهم بالشكوى والتذمر • ثم ألفوا لجنة وطنية برئاسة سلطان باشا وارسلوا وفدا الى المندوب السامي الجنرال ساراي يطالب بسحب كاربيه واعطاء منصب الحاكم الى رجل من ابناء الجبل ، وذلك تنفيذا للاتفاقات السابقة بينهم وبين السلطات الفرنسية التي وعدتهم بذلك • ولكن ساراي لم يستقبل الوفد استقبالا جديرا برجال وطنيين ، بل قابلهم بفظاظة واحتقار ، وهددهم ان عادوا اليه بالنفي والتنكيل والسجون • وكانت هذه البادرة السيئة من قبل المندوب السامي بالنسبة لاهالي الجبل بمثابة « طفوح الكيل » فبدأوا بحركات شبيهة بالعصيان ، قوبلت من جانب السلطات الفرنسية بالقمع والاعتقالات وفرض الغرامات والاعتداءات المختلفة الاخرى •

ثم احتالت السلطات على جلب بعض زعماء وشيوخ الجبل الى دمشق

بصفة وفد جديد ، فاعتقلتهم ونفتهم الى تدمر والحسكة ، واعتبرتهم رهائن بيدها ، حتى يتم خضوع السكان واستسلامهم • ولكن هذا العمل لم يحقق الغاية المطلوبة ، مما جعل الفرنسيين يحتالون على سلطان الاطرش رئيس اللجنة الوطنية محاولين اعتقاله ، ولكنهم اخفقوا في هذه المرة لسبب بسيط ، وهو ان الرجل لم يكن لديه الوقت للمثول الى دمشق ، فقد كان في شغل شاغل في جمع السكان واطلاعهم على مدى تسلط الفرنسيين ، ونفخ نار الثورة في نفوسهم •

وحاول الفرنسيون ان يقمعوا حركة الثورة في مهدها ، فارسلوا قوة تعادل سرية من المشاة والخيالة لاعتقال سلطان الاطرش وحمله موجودا الى دمشق ، ولكن هذه القوة التي كانت بقيادة الكابتن نورمان ابيدت عن آخرها في معركة قصيرة سميت بموقعة الكفر • وكان من نتيجتها ان زحف المجاهدون الى صلخد لحماية سلطان الاطرش الذي كان موجودا فيها • وهناك احرقوا دار البعثة الانتدابية وقضوا على القوة الفرنسية التي تحرسها وقد تم ذلك في ٢٢ تموز ١٩٢٥ •

وكان الفرنسيون قد ارسلوا طائرتين لاستطلاع الموقف والتمهيد لحملة كبيرة سميت فيما بعد ب « حملة ميشو » • وكان المجاهدون قد اخذوا استعدادهم ووقفوا لكل حركة عدوة بالمرصاد ، فما ان شوهدت الطائرتان تحومان في سماء الجبل ، حتى تصاعد اليهما رصاص البنادق من تخوم قرية ام الرمان ومن مشارف نبع البحصاص ، فسقطت احدى الطائرتين وأسر طياراها •

أما حملة ميشو ـ المؤلفة من ٣٠٠٠ مقاتل والمدعومة بكوكبة دبابات وبطاريتي مدفعية وسربي طائرات قاصفة ـ فقد لقيت في المزرعة اكبر هزيمة عرفتها العسكرية الفرنسية منذ احتلالها لسورية ، فقد قضي على معظم افرادها واستولي على اثقالها واحمالها وعتادها ومؤنها •

وهنا عاد ساراي يجنح نحو الملاينة والمراوغة ، فطلب المفاوضة واعلن استعداده لاستجابة المطالب ، ولكن الوطنيين في دمشق حملوا سلاحهم وارتقوا الى الجبل لتوكيد التوائق مع الثوار ، وتعاهدوا من جديد على عدم عقد صلح منفرد مع الفرنسيين ، والاستمرار في الثورة حتى تتحقق للبلاد مطاليبها الشرعية • ووعدت دمشق بتهيئة قواها الثورية للاشتراك في العمل وتخفيف العبء عن ثوار الجبل •

وأحس الفرنسيون بهذه البادرة الخطيرة ، فقاموا بحركة اعتقالات واسعة النطاق بين الوطنيين الدمشقيين ، ونفوا بعضهم الى ارواد وبعضهم الآخر الى الحسكة ، وقد نجح آخرون بالهرب والالتحاق بثوار الجبل • وهنا تقررت الخطوات الحاسمة • تسلم سلطان الاطرش قيادة الثورة السورية في كل انحاء البلاد ، والتف الوطنيون حوله يسندونه ويشدون من ازره • وصدر اول منشور يحمل لقب القائد العام للثورة السورية الكبرى بتاريخ ٢٣ آب ١٩٢٥ (١) •

---

(١) اول منشور اصدره القائد العام للثورة السورية الكبرى :

« الى السلاح الى السلاح »

يا احفاد العرب الامجاد •• هذا يوم ينفع المجاهدين جهادهم والعاملين في سبيل الحرية والاستقلال عملهم • هذا يوم انتباه الامم والشعوب ، فلننهض من رقادنا ولنبدد ظلام التحكم الاجنبي عن سماء بلادنا ، لقد مضى علينا عشرات السنين ونحن نجاهد في سبيل الحرية والاستقلال ، فلنستأنف جهادنا المشروع بالسيف بعد ان سكت القلم ، ولا يضيع حق وراءه مطالب •

ايها السوريون •• لقد اثبتت التجارب ان الحق يؤخذ ولا يعطى ، فلنأخذ حقنا بحد السيوف ولنطلب الموت توهب لنا الحياة •

وأخذت الثورة السورية تشتد وتتسع ويمتد لهيبها الى كل الاطراف ،

ايها العرب السوريون :

تذكروا اجدادكم وتاريخكم وشهداءكم وشرفكم القومي ..
تذكروا ان يد الله مع الجاعة وان ارادة الشعب من ارادة الله ، وان الامم المتحدة الناهضة لن تنالها يد البغي . لقد نهب المستعمرون اموالنا واستأثروا بمنافع بلادنا وأقاموا الحواجز الضارة بين وطننا الواحد ، وقسمونا الى شعوب وطوائف ودويلات ، وحالوا بيننا وبين حرية الدين والفكر والضمير ، وحرية التجارة والسفر حتى في بلادنا واقاليمنا .

الى السلاح ايها الوطنيون الى السلاح .. تحقيقا لاماني البلاد المقدسة .

الى السلاح تأييدا لسيادة الشعب وحرية الامة .

الى السلاح بعدما سلب الاجنبي حقوقكم واستعبد بلادكم ونقض عهودكم ، ولم يحافظ على شرف الوعود الرسمية وتناسى الاماني القومية .

نحن نبرأ الى الله من مسؤولية سفك الدماء ، ونعتبر المستعمرين مسؤولين مباشرة عن الفتنة . يا ويح الظلم . لقد وصلنا من الظلم الى ان نهان في عقر دارنا ، فنطلب استبدال حاكم اجنبي محروم من مزايا الانسانية بآخر من بني جلدته الغاصبين فلا يجاب طلبنا بل يطرد وفدنا كما تطرد النعاج .

الى السلاح ايها الوطنيون ، ولنغسل اهانة الامة بدم النجدة والبطولة . ان حربنا اليوم هي حرب مقدسة ، ومطالبنا هي :

١ ـ وحدة البلاد السورية ساحلها وداخلها والاعتراف بدولة سورية عربية واحدة مستقلة استقلالا تاما .

٢ ـ قيام حكومة شعبية تجمع المجلس التاسيسي لوضع قانون اساسي على مبدأ سيادة الامة سيادة مطلقة .

فكانت المعارك الهائلة والتي عرفت بمعارك المسيفرة والسويداء وعرى ورساس حيث كان يأتي الثوار ببطولات خارقة ينبو القلم عن تصويرها ، وحيث راحوا يكبدون العدو الخسئر البليغة في العدد والعدة والشرف العسكري ، رغم توالي النجدات وضخامتها وتنوع صنوفها وعدم التكافؤ بينها وبين قوات الثورة البسيطة الخام باسلحتها الفردية المختلفة الانواع ، المشتراة بثمن البقرة والبعير وقطعة الارض ، واحيانا كثيرة تكون مشتراة بالدم الغالي .. بالحياة نفسها .

وبعد حين قصير ، تعدت الثورة ربوع الجبل ، وانتشر لهيبها في حماة بقيادة ضباط سوريين ـ كما سيأتي ذكر ذلك في الفصل الاخير ـ ثم انتقلت الشعلة المقدسة الى اقليم البلان ووادي التيم . وكانت دمشق وغوطتها مسرحا من مسارحها الفسيحة ، حتى جاء وقت كانت أحياؤها ومخافرها الداخلية وثكناتها العسكرية تحت سيطرة الثوار ، وحتى كاد المندوب السامي نفسه الجنرال ساراي ان يعتقل او يموت فيها .

وجن جنون الاستعمار الفرنسي ، وفقد جيوشه سيطرتها على نفسها ،

---

٣ ـ سحب القوى المحتلة من البلاد السورية وتاليف جيش وطني لصيانة الامن .

٤ ـ تأييد مبدأ الثورة الفرنسية ، وحقوق الانسان في الحرية والمساواة والاخاء .

الى السلاح .. ولنكتب مطالبنا هذه بدمائنا الطاهرة كما كتبها اجدادنا من قبلنا ..

الى السلاح والله معنا ، ولتحيا سورية العربية حرة مستقلة .

سلطان الاطرش
قائد عام جيوش الثورة الوطنية السورية
نقلا عن تاريخ الثورة السورية للسفرجلاني

فسلط جنوده وجنود مستعمراته ، ولصوص وقتلة وسفاكي الفرقة الأجنبية ، والمرتزقين فاقدي الصلة بالآدمية ، ليعملوا النهب والسلب والتحريق والتدمير وقتل الناس ـ الضعفاء منهم ـ ، وتشهير المقتولين والتمثيل بهم وجرجرتهم في الازقة والشوارع والساحات العامة . وقصف المدن والبيوت الآمنة بالقنابل والمتفجرات ، التي أعدت لقهر الشعوب .

ولكن هذا كله لم يكن ليزيد النار الا اشتعالا ، والثورة الا عنفا واضطراما ، وقد اظهر ابطال الثورة في كل الوقعات التي خاضوها ضروبا من الجرأة والشجاعة وقوة الشكيمة والتصميم ، واستشهد منهم عدد كبير ، وحمل عدد كبير ايضا جراحات بالغة وظلوا يواصلون الثورة .

وما لبثت اخبار الثورة وفجائعها ان وصلت الى فرنسا ، فاثارت البلبلة والقلق . واضطرت الحكومة الى سحب مندوبها السامي ساراي وعينت مندوبا سياسيا خلفا له . ووصل ده جوفنيل المندوب الجديد الى دمشق في كانون الاول ١٩٢٥ . كان ده جوفنيل سياسيا محنكا ، أمل الفرنسيون فيه القدرة على تهدئة الامور ، وارضاء الشعب السوري وحمله على انهاء الثورة . ولسبب ما اعتقد المندوب السامي انه لا يستطيع النجاح في عمله الا اذا تشاور مع الحكومة الانكليزية . وعلى هذا فقد سافر الى لندن للقيام بهذه المهمة . وهناك وجد ده جوفنيل ، ان الانكليز مستعدين ومرحبين بالتعاون مع الفرنسيين لقمع الثورة السورية على اساس تحقيق مطالبهم المتعلقة بالحدود السورية الفلسطينية والعراقية . وقد تم التفاهم بين الفريقين على تحديد جديد يرضي الفرنسيين والانكليز على حساب الشعب العربي في البلدان الثلاثة .

ثم اجتمع ده جوفنيل باعضاء المؤتمر السوري الفلسطيني خارج البلاد ، واظهر استعداده لتحقيق المطالب السورية ، على شكل معاهدة (١)

---

(١) معاهدة ده جوفنيل مع ملاحظاته عليها :

ولكنه رفض الدخول بأي مفاوضة قبل القاء السلاح واستسلام

---

١ ـ الاعتراف باستقلال سورية . (ملاحظة) بنفس الشروط التي يتمتع بها العراق .

٢ ـ ان فرنسا بالنظر للتحالف والصداقة اللذين يربطانها بسورية تتعهد باقتراح قبولها في عصبة الامم . (ملاحظة) يكون هذا التعهد من نوع تعهد بريطانيا للعراق .

٣ ـ ان دولة سورية يجب ان تشكل منها دولة واحدة . (ملاحظة) اذا وافق العلويون على ذلك بطريق المفاوضة .

٤ ـ يجري استفتاء في الاراضي الملحقة بلبنان ، ويكون لسكان تلك المناطق الحق في اختيار الدولة التي يتبعون لها وختيارا حرا (ملاحظة) ولكن بعد انتهاء الاضطرابات .

٦ ـ ينسحب الجيش الفرنسي من الاراضي السورية تدريجيا عندما تشكل نواة الجيش الوطني .
(ملاحظة) بمساعدة مدربين فرنسيين ويكون للجيش الفرنسي الخيار في اقامة حامية في لبنان .

٧ ـ تتفضل فرنسا بتخصيص مبلغ من المال في سبيل اعادة بناء المناطق التي خربتها قنابل المدافع والطائرات .

٨ ـ تعلن الحكومة عفوا عاما ـ بلا قيد ولا شرط ـ ولا يكون للحكومة الفرنسية أي اعتراض او طلب في هذا الموضوع .
(ملاحظة) بعد انتهاء الاضطرابات .

٩ ـ يحق لسورية تعيين ممثلين دبلوماسيين لها في الخارج .
(ملاحظة) بعد قبولها عضوا في عصبة الامم .

١٠ ـ (ملاحظات) : تقبل سورية في حكومتها وفي دوائرها مستشارين وفنيين فرنسيين . يكون للصناعة ورؤوس الاموال الفرنسية حق الرجحان في جميع المشاريع . تعقد القروض العامة معفرنسا أو بواسطتها . تعقدمحالفةبينفرنساوسورية يكون فيها الحق للاولى في الدفاع عن الثانية ... الخ . تضع سورية جيشها تحت تصرف فرنسا عند نشوب الحرب ..

الثوار ـ رغم ما في بنود المعاهدة وملاحظاته عليها من استعمار مفضوح ـ • وقد حاول ده جوفنيل ـ اعتمادا على العدالة الفرنسية والكلمات الطنانة الاخرى ـ ان يلعب دورا بهلوانيا بثرثرته وتصريحاته ووعده ووعيده ، غير انه لم يكشف عن أي نية صادقة في الاستجابة لمطاليب ثورة الشعب السوري • وبعد قليل ظهر انه كان يستعمل الدعاية والتخدير كسبا للوقت ، والى ان تصل الحملات الكبرى والاسلحة الجديدة المدمرة التي تخرجها مصانع الحرب في نصف الكرة الغربي من الارض •

على أن رجال الثورة لم ينخدعوا بالدعايات ولم يتوقفوا لحظة واحدة عن استلال السيوف واطلاق النار • في حين كانت النجدات الفرنسية المنتظرة قد وصلت ، فاغتنم ده جوفنيل هذه الفرصة ليفرض حلوله النصفية ، فاتصل بـ « الداماد احمد نامي » التركي الاصل ، وفاوضه على تأليف الوزارة واتصل هذا برجال الحركة الوطنية ، فاشترطوا كي يتم التعاون بينهم وبينه ان يوافق المندوب السامي على منهج وطني للوزارة • وقد كان هذا المنهج مستمدا من لائحة الشام(١) • وازاء هذا العناد القومي ، الذي لم يلن اثناء اشتداد الثورة وخفوتها ، وبالرغم من انواع الاساليب والمحاولات التي عمد اليها ده جوفنيل ، فانه وجد نفسه مضطرا الى المسايرة ، انقاذا لسمعته كمندوب دولة « محترمة » كانت باريس تعول عليه في تهدئة الاحوال وتسيير الامور • فتبادل مع احمد نامي الرسائل حول المنهج والموافقة عليه ، وهكذا تألفت الوزارة في ايار ١٩٢٦ واشترك بها بعض الوطنيين •

ولكن الروح الاستعمارية لا يمكن ان تتحالف ، فمع أن الوزارة تألفت على اساس منهج معين متفق عليه ، تناول توحيد البلاد وتسكين الاضطرابات بايقاف الحملات واصدار العفو عن المطلوبين والمحكومين ، فان جوفنيل ومعاونيه من جهة ، وجنرالات القوى العسكرية من جهة

---

(١) دروزه في كتابه : حول الحركة العربية

اخرى ، لم يلبثوا ان تجاهلوا كل شيء ، واخذوا يسيرون في اتجاه معاكس تماما لروح الاتفاق •

فقد تذرعت السلطات العسكرية بحجج واهية وقصفت احياء الميدان في مدينة دمشق بالمدافع والطائرات ودمرت فيه نحو الف منزل على رؤوس سكانها الابرياء ، وأخذت تضيق الخناق على مراكز الثورة الرئيسية ، وتعيد تمثيل ادوار التنكيل والتحريق والتدمير ودفع الغرامات • وصدق حدس الثوار حاملي السلاح ، وهزوا رؤوسهم في وجوه السياسيين قائلين : ان الثورة هي خير طريق الى الحرية والاستقلال •

وفي صيف ١٩٢٦ انسحب المندوب السامي ده جوفنيل ليمثل امام الجمعية الوطنية الفرنسية ويقدم حسابا عن نتائج اعماله • في حين جاء بونسو ليجد نفسه يعيش في جو شبيه بالنواة المركزية للكرة الارضية ، بحيث آثر ان يقوم بمهمته بعيدا عن جو النار والبارود • فقد كانت الثورة السورية في ريعان شبابها وفتوتها القاهرة •

٣ ـ اشهر معارك ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ في جبل العرب

من الضروري ان نفتتح سرد وشرح اشهر معارك ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ بهذا البيان الذي اذاعه القائد العام للثورة السورية ردا على منشور القته الطائرات الفرنسية على مناطق الثورة في ٢١ ايلول ١٩٢٥ :

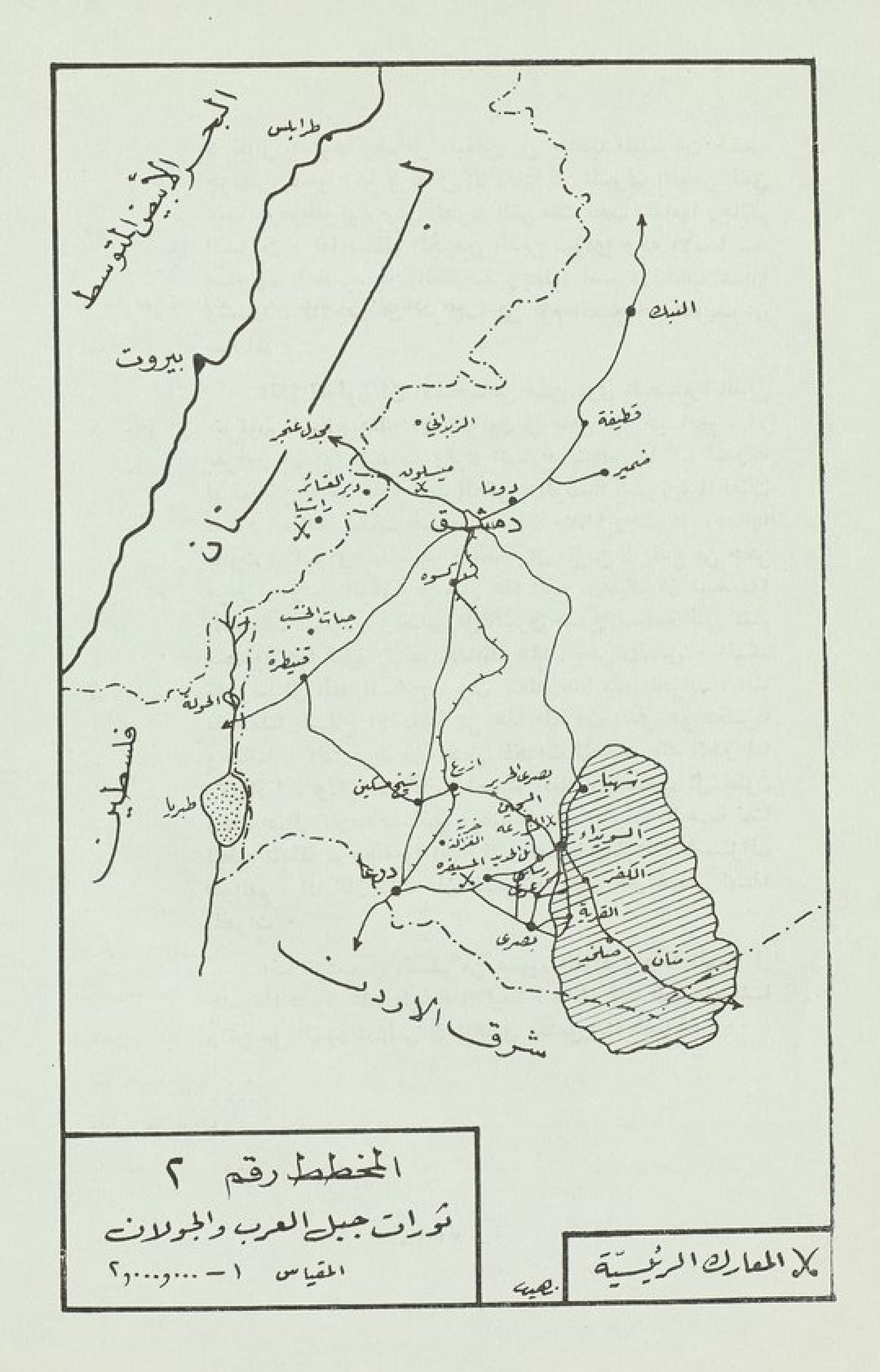
« تناولنا اليوم دعوتكم الكريمة الى السلم مع القنابل المتفجرة المنصبة علينا من الطائرات ، فلم يزدنا هذا التناقض الغريب الا معرفة بنواياكم الصادقة • ان ما جاء في منشوركم من التهديد المشرب بروح العطف يلفت الانظار الى أن جيوشكم التي اقتحمتم بها سورية العربية هي كطائراتكم من عادتها ـ عند سنوح الفرصة ـ ان تنفذ بصمت خطط الفتح من غير ان تلتفت الى عويل الاطفال وصراخ الامهات ••

تقولون قد اقتربت الساعة التي نعرف فيها قوى جيشكم ونتحمل فيها نتائج الثورة ، ونحن نقول ان انكار هدف الجيش الفرنسي عندما كان يدافع ـ في الحرب العامة عن بلاده ـ هو انكار الشمس في وضوح النهار • ولكن الجيش القادم لاستعمارنا ولتأمير امثال الكابتين كاربيه علينا ، ولتنفيذ مشاريع الضغط والارهاب وسلب الحريات في أمة آمنة مطمئنة ، هو غير الجيش الفرنسي الذي رأينا شجاعته في الكفر والمزرعة والمسيفرة ، وان الرجال الذين قهروا جيوشكم في هذه المواقع لايأبون ان يتحملوا نتائج الثورة • انكم تذكرون مضاء سلاحكم في معركة المسيفرة ، ولا تذكرون مضاء العزائم التي اغتنمت هذا السلاح في عقر استحكاماتكم وسحبت الخيول من ايدي فرسانها • واذا كانت فرنسا ـ كما تقولون ـ

لا تقاتل مدفوعة بعامل البغض بل تعاقب المجرمين حسب جرمهم ، فثقوا اننا لا نقاتل الا دفاعا عن الشرف القومي الذي عبث به موظفوكم ، وعن الحرية التي مات تحت اقدامها رجالكم المساكين • اما مسألة المجرمين الذين سودوا وجه الانسانية بسيرتهم الخصوصية والعمومية وجعلوا اسم الانتداب عارا وشنارا ، فالاجدر ان نتركها الى يوم الحساب القريب ان شاء الله •

انكم تقولون ان الاشخاص من ذوي البصيرة الذين يتركون السلاح منذ الآن يكونون في مأمن على حياتهم ، الا تعرفون أن بين البصيرة وترك السلاح تناقض ما كنا لندركه لو لم يكن له سابقة في عهد الحكومة الوطنية السورية لما آمنت بوعود اسلافكم فحلت جيشها في تموز ١٩٢٠ وحكم على زعمائها بالموت في آب اي بعد شهر واحد • ان المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين • وقبل الوقوع في مثل هذا الفخ ، عليكم ان تبيضوا الصفحات السود ، وتعيدوا الى الشرق حسن السمعة التي كنتم تتمتعون بها قبل ان تطأ اقدامكم هذا الوطن المقدس • انكم تدعوننا الى القاء السلاح ، وان نتقلد بدلا منه المحراث ، اننا ما حملنا السلاح الا دفاعا عن هذا المحراث الذي هو فخرنا وحياتنا • اننا نريد ان نحمل المحراث لنحصد منه الخير لنا ولاولادنا ، ولكن اذا كانت ثمرة اتعابنا ستذهب الى بطون رجال امثال كاربيه ـ الذي غرمنا عشرات الليرات الذهبية ثمنا لقطته المدللة ـ وصفعوا اخيارنا واجدادنا واشرافنا لاستنزاف اموالهم ، اذا كان ذلك فان السلاح يكون خير ضمان لهذا المحراث •

اننا نرغب في السلم من صميم الفؤاد ، واذا انسنا في خصومنا اليوم هذه الرغبة الاكيدة ، فاننا نمد اليهم ايدينا ولكن على الشروط التي اذعناها في منشوراتنا السابقة ••• »



المخطط رقم ٢

ثورات جبل العرب والجولان

المقياس ١ — ٢،٠٠٠،٠٠٠

١ ـ معركة الكفر ، مستقاة من المصادر الفرنسية باسم « حملة نورمان » :

بتاريخ ٢٠ تموز ١٩٢٥ خرج الكابتن نورمان على رأس ١٦٦ جنديا و٦ ضباط • وكان لهذا الجيش ثلاث مهمات : أولا ان يشعر بوجود القوات في المنطقة الجنوبية • والثانية ان يعمل على انقاذ الطيارين اللذين سقطا بطائرتهما في الليلة السابقة • ثالثا القبض على سلطان باشا الاطرش •

وصلت القوة الى قرية الكفر في صباح ذلك اليوم ثم لحقها آمر اللواء تومي مارتان رئيس مصلحة الاستخبارات في دولتي سورية وجبل الدروز وحاكم الجبل بالوكالة • وهناك علم مارتان ان سلطان باشا هبط صلخد في الصباح نفسه •

وكان نورمان قد اقام مضارب الجنود ـ على مقربة من القرية • ثم نقلها في الظهيرة الى مرتفع قريب يفضل الموقع الاول ويشارف السهل قليلا •

ويقول المصدر الفرنسي : ويشاء نكد الطالع ان يخطىء نورمان ، فبدلا من ان يحصر قوته على شكل مربع حصين ، فقد بثها على ثلاثة او اربعة اماكن ، تفصلها جدران من الحجارة مختلفة الارتفاعات • فكان هناك تحصين جيد لكل القوى مع اماكن للامدادات والبغال • وكان دخول سلطان باشا الى صلخد ، دافعا للقومندان مارتان ان يطلب النجدات برقيا وقد تحدد وصول هذه النجدات في السادس والعشرين من الشهر ، على أن القائد ألح بوجوب ارسالها في القطار عن طريق درعا على جناح السرعة ، كما طلب ان ينطلق سرب من طائرات القصف وقرر ان يتوقف جيش

نورمان عن الزحف ويلبث في مكانه الى اليوم الثاني والعشرين من الشهر ، ريثما تصل النجدات المطلوبة •

وفي اليوم التالي ، حلقت طائرة حربية فوق قرى الجنوب واشرفت على الكفر ، فلم يستوقفها ما يسترعي الانتباه ، ثم هبطت في السويداء في الساعة ١٠،٣٠ وفي الساعة ١٤،٣٠ ترامى الى السويداء أن بعض فرسان العدو قد هاجمت جيش نورمان مهاجمة عنيفة • فوجه مارتان على الفور ثلاث مصفحات رشاشة ومفرزة من الصباحين لحماية نورمان عند انسحابه اذا اقتضت الضرورة ، كما امر ربان الطائرة ان يحلق فوق الكفر مرة ثانية •

ويستطرد المصدر الفرنسي قائلا : وكان جل ما استطاعته تلك القوات ان رجعت ببعض الاحياء الذين سردوا المأساة ومكنتنا روايتهم من اعادة تمثيلها :

عند الساعة الثانية والدقيقة الثلاثين ، بينما كانت الخيول منزوعة الاسرجة ، هب الجنود على اصوات تنطلق من جوانبهم ، فهرعوا الى اسلحتهم واستحكاماتهم فيما اخذت نار العدو تحاصرهم من كل جانب ، منطلقة من وراء الاحجار القريبة • ومنذ بدء القتال ، بينما كان بعض فرسان العدو يحدقون بالمعسكر ، كان اربعون من المترجلين والخيالة يهاجمون الجانب الجنوبي الغربي من الموقع ، وجماعة اخرى تندفع نحو الجانب الشمالي الشرقي منه • فاحاطوا برشاشة منصوبة على احدى الزوايا وانتزعوها بلحظة قصيرة ، ثم استولوا على الرشاشة الثانية بالسرعة نفسها • وفي بلبلة ذلك الهجوم المفاجىء ، اختلط المهاجمون بالمدافعين فوقعت في هؤلاء خسارة ذريعة دون ان يتمكنوا من الانتظام في خط القتال ، ونفدت ذخائرهم سريعا ثم فترت نارهم في اقل من نصف ساعة لاستحالة وصولهم الى صناديق الذخيرة • وجرح الطبيبان فوربيه وفريبزيه جراحا خطرة بالرصاص ، وشوهد الضابط المترجم يدافع عن نفسه بالمسدس و •• »

وموجز القول ، لم يرجع من الضباط السبعة ، والمائة وسبعة وستين جنديا غير : جنديين برتبة عريف و ٤٧ بينهم ثلاثون جريحا • معاون ضابط خيال ، جندي جريح من الرماة •

٢ ـ معركة المزرعة ، مستقاة من المصادر الفرنسية باسم « تجريدة ميشو »

ان هذه التجريدة التي كلفت بقمع الثورة المنتشرة حول السويداء وانقاذ هذا الموقع المحاصر ، باءت بفشل دام في يومي الثاني والثالث من آب واضطرت ان تلتوي الى ازرع ، تاركة وراءها الخسائر الذريعة • بيد أن تلك الايام الفاجعة قد انطوت على كثير من أعمال الحمية والبسالة • (هذا ما تقوله المصادر ••) • ويقسم الفرنسيون معركة المزرعة الى ثلاث مراحل اسموها كما يلي :

ـ معركة بصرى الحرير ٣٠ ـ ٣١ تموز

ـ عراك المصفحات ٢ ـ ٣ آب

ـ موت السرجان كازانوفا •

ومن المعلوم ان الفرنسيين قد وضعوا كتابهم « الكتاب الذهبي لجيوش الشرق » ليؤرخوا حوادث الواجب والشرف التي قام بها جنودهم • فليس غريبا اذن ان يفردوا فصلا خاصا لموت السرجان كازانوفا في معركة المزرعة • وقبل سرد وقائع المعركة سنبدأ بهذا الفصل الاخير لانه ـ في الحقيقة يسترعي القراءة والانتباه :

« ان السرجان كازانوفا التابع للواء الرشاشات الاستعماري (صفة الاستعماري موجودة في الاصل) الثاني والاربعين قد برهن في معركة الثاني من الشهر عن بسالة تستوقف الاعجاب • لقد كان في صفوف المؤخرة عصر ذلك النهار فجرح في ساقه ، وتولى الكابتين بريو والادجودان هورس

تضميد جراحه . ولكنه ما لبث ان انتصب متثاقلا ، فحيا الكابتين وصافح معاون الضابط قائلا لهما : للمرة السابعة اجرح في الحرب ، الى اللقاء ايها الصحب . وما ان ابتعد عنهما مندفعا نحو الثوار حتى صعقته رصاصة في جبينه فهوى ... » .

ومن سرد الوقائع من مصدرها الفرنسي ، يستطيع القاريء ان يلحظ الدور الذي كان يلعبه الثوار خلال المعارك ، والتكتيك الذي يستخدمونه لمنع الحملة من الوصول الى اهدافها . وقد انطلقت حملة الجنرال ميشو من ازرع متوجهة الى السويداء ، وما ان علم بأمرها الثوار ، حتى خرجوا لملاقاتها ، منتشرين من السويداء حتى بصرى الحرير ـ الحد الفاصل بين محافظة حوران وجبل الدروز ـ وقد وضعوا في طريق المصفحات كثيرا من العوائق ، بينما كمن أكثرهم على جوانب الطريق . ويحاول الفرنسيون ان يوهموا القاريء انهم كانوا امام قوى كبيرة ، وذلك ليبرروا هزائمهم ، والواقع ان عدد الثوار لم يزد في معركة من المعارك عن خمسمائة من الافراد اكثرهم من المشاة وحملة السيوف ، أما سعيد الحظ منهم من كان يملك دابة وبندقية عتيقة من صنع ألماني أو عثماني طراز ١٨٧٠ . يقول « الكتاب الذهبي » في تفصيل المعركة :

« كان لواء المشاة بقيادة لوينه مشتملا على كتيبة غابل وكتيبة سنغالية وكتيبة لوغا وكتيبة الرشاشات الثانية ومفرزة سيارات مصفحة . وقد انطلق اللواء الى بصرى الحرير ليحتل جسرا قائما في تلك المحلة ليضمن الرجوع بعد تنفيذ خطته . وانتهى الجيش الى الجسر عند هبوط الليل ، وانتظمت الكتائب في مداره على شكل مربع ، بيد انها لم تتمكن من الاحتياط لكل اسباب الدفاع قبل حلول الظلام . وما أزف منتصف الساعة الثانية والعشرين حتى هاجمتها عصابة من الثوار واحاطت بمضاربها ، واستمر القتال طوال الليل ، وكان شديد

الوطأة امام كتيبة غابل ، فساندتها المصفحات مساندة قوية ودعمتها ايضا سريتا الرشاشات ٠

فلما انبثق الفجر زادت هجمات الثوار احتداما ، وكانت احدى الاكمات تشارف سرية الرشاشات الثالثة وتنهال عليها منها نيران عظيمة ٠ فتهاوى جميع العاملين على اطلاق الرشاشات فانبرى قائد السرية يتولى اطلاقها بنفسه حتى صرعه جرح مميت ٠ واستطاع السرجان ان يعالج وحده مدفعا من عيار ٣٧ تحت السيل المنهمر من الرصاص ٠ وما لبث ان اسكت النار المنبعثة من الاكمة بفضل تصويبه المحكم ٠

وفي الساعة الحادية عشرة طلع مائة فارس من الثوار مندفعين بمقابض السيوف ولما اصبحوا على بعد مئات من الامتار منا ، هب رماتنا وصوبوا الحراب الى المهاجمين ، فاستعرت اعظم معركة بالسلاح الابيض ٠ وفي تلك الساعات السوداء التي تخللت يومي الثاني والثالث من شهر آب ، يجدر التنويه بمفرزات السيارات المصفحة وبما كان من مسلكها الرائع ٠ فقد قامت بدور على جانب عظيم من الخطورة ، وساهمت في جميع المهام في دعم الهجوم وحماية المؤخرات ومواكبة قوافل الذخيرة وتامين الارتباط بين كواكب الجيش ، وما برحت تخترق العقبات بعزم نافذ وتتجاوز السدود المقامة مجتاحة جلاميد الصخور وما يعترضها من السيارات المتشابكة التي يقيمها الثوار حاجزا في طريقها ٠ وقد عضدت الجيش بنيرانها الفعالة الرهيبة ، وما انفكت تنقل الاوامر تارة والجرحى تارة اخرى ٠ بيد انها تكبدت افدح الخسائر لان نار الثوار كانت تتناولها عن مسافة قريبة ٠ فاذا حدث ان توقفت أمام احد السدود المقامة ، انسل المهاجمون الى كنف زواياها ، حيث لا تتناولهم النار وسددوا الرصاص الى داخلها من فوهات الرماية والمنافذ الاخرى ، وكان من جراء ذلك ان عددا من المصفحات قد خرجت جميعها من صف القتال وذبح ربابنتها ٠

وقد واجهت المفرزة الاولى التابعة لكوكبة المصفحات الثامنة والعشرين اروع ما حدث في نهار الثالث من الشهر فانها تركت وشأنها لحماية المؤخرة وقامت بمهمتها بمهارة قصوى في أصعب الظروف واحرجها . ولما تراجع الجيش ـ عند وصوله الى المزرعة بتأثير انقضاض الثوار ـ عمدت هذه المفرزة الى الهجوم تخديعا للمهاجمين ، ثم جدت للالتحاق بفلول المؤخرة التي سحقها الثوار وفككوا اوصالها ، فاعترض طريقها حاجز من العربات المتفككة فاضطر القائد ان يستعمل مصفحته كآلة لازالة السدود وفتح منفذ فيها ليتمكن من قيادتها قيادة قويمة ، ثم صرع بمسدسه احد الثوار الذين نصبوا الكمين ، وهجم قسم من هؤلاء على المصفحة بينما كان قسم منهم يحاول نزع غطائها الخلفي وقد استطاع احدهم ان يطلق النار الى داخل المصفحة من احد مفاصلها فجرحت شظايا رصاصته افراد المصفحة جميعا فانبرى له القائد وقتله بمسدسه . وانبرى الجيش في تراجعه يطلق النار على العصاة رصاصة رصاصة لان الرشاشة الوحيدة التي ما برحت صالحة للاستعمال قد اضاعت سدادتها الضابطة . على ان المصفحة ذات الرقم ... توقفت لنفاذ البنزين ولم تكن المصفحة الاولى بحالة تمكنها من جر الثانية ، فحاول القائد ان يستقدم افراد الركب المتوقف ، ولكن هؤلاء ما كادوا يغادرون المصفحة حتى انحدر عليهم الثوار فقتلوا القائد والسائق..»

« وثمل الثوار بما احرزوه من نصر ، فبدا لهم ان يستثمروه في دمشق ... »

٣ ـ **معركة المسيفرة :**

على أثر الفشل الذريع الذي لاقاه الفرنسيون في معركة المزرعة ، استدعي الجنرال ميشو الى باريس ليمثل أمام لجنة من القضاء العسكري . وكان حظه مثل حظ رفيقيه السابقين بولانجيه وغوبو . ومن جملة كلمات الاتهام التي وجهت اليـــه : « لقد ارتكبت اخطاء فادحـة وانت مثقـل بالمسئوليات » . وكان رده باختصار : « لو كان لدي ثلاث فرق كالتي يرأسها المارشال ليوتيه في المغرب الاقصى لاستطعت ان ابدل وجه الثورة السورية .. » وعزل ميشو وارسل بدلا عنه جنرال اسمه غاملان .

وصل غاملان الى دمشق في الثالث عشر من ايلول **١٩٢٥** ، مصطحبا معه قوى ومعدات وأثقالا جديدة ليستأنف الزحف على السويداء ويقود الحملة بنفسه .

والمسيفرة ، عبارة عن قرية كبيرة تقع في منتصف الطريق بين درعا والسويداء ويقطنها حوالي الف وخمسمائة من الحوارنة ، وهي قائمة على تل يكاد لا يعلو السهل الممتد حولها . وهي كسائر قرى تلك المناطق ، عبارة عن جدران متراكمة مشادة بالحجارة البركانيـة القاتمة اللون . وحول الدور الواسعة توجد أراض مجزأة الى زرائب للماشية ، ومقالع مهملة وركام من الصخور والحجارة السوداء . وكل هذا يمتد على مسافة واسعة بحيث تخفي بينها فرقة كاملة من الجيش . وباعتبارها تسيطر عـلى السهول الفسيحة من حولها ، فانها تعتبر مكانا صالحا للدفاع ، ويصعب

مهاجمته نظرا لانصباب الرمي المجدي على مناطق الهجوم الظاهرة للعين المجردة .

وفي اليوم الرابع عشر من ايلول انشأ الفرنسيون في هذه القرية قاعدة عسكرية تمهيدا للزحف على السويداء . ووكلت حراسة هذه القاعدة الى رجال الفرقة الاجنبية المشتملة على : اللواء الخامس من الفيلق الاجنبي الرابع ، وكوكبة الفرسان الاجنبية الرابعة . وثلاث بطاريات مدفعية ١٠٥ ـ ٧٥ ـ ٦٥ وكوكبة مصفحات رشاشة ، وكانت القيادة على اتصال دائم بأسراب الطائرات من مطار ازرع . وقد باشرت هذه القوى لفورها في اقامة السدود والتحصينات وبث المخافر على كل جوانب القرية .

وما بزغ فجر الخامس عشر من الشهر حتى كان الثوار يهبطون المرتفعات المتسلطة على طريق السويداء ـ خمسة اميال من المسيفرة شرقا . فانطلقت لملاقاتهم كوكبة من الفرسان ونصف كتيبة من الرماة ، غير ان هذه القوة ما لبثت ان تراجعت دون نظام مخلفة وراءها عددا كبيرا من القتلى والمستسلمين .

وفي اليوم السادس عشر احتشد الثوار في شرق القرية يرتبون صفوفهم للهجوم والانقضاض . في حين ركنت القوى الفرنسية الى التربص وحشد الاسلحة جميعا لاطلاق النار على اقرب مسافة ممكنة . وعندما أرخى الليل سدوله ـ وكانت الليلة حالكة الظلام ـ باشر الثوار تسللهم نحو المواقع الفرنسية .، وفي تلك اللحظة خالف احد الثوار الامر المعطى له بعدم اطلاق النار الا عند الايعاز ، واطلق رصاصة في الهواء (١) . وعندها تنبه الفرنسيون واطلقوا في السماء سهما ناريا مضيئا كشف لهم السهل بأجمعه ، وعلى ضوء الاسهم النارية استطاع الفرنسيون ان يلمحوا

---

(١) اتهم هذا الرجل بالخيانة وأعدم من قبل رفاقه رميا بالرصاص .

الثوار وهم ينقضون على ظهور الجياد ، ففتحوا نيران مدافعهم ورشاشاتهم على أوسع نطاق .

ولأول وهلة وجد الثوار انفسهم يسقطون عن ظهور الخيل المصابة بالشظايا والرصاص فتماسكوا على الفور واستأنفوا انقضاضهم مترجلين ، وبما أنهم كانوا على مسافة قصيرة من المواقع والتحكيمات العدوة ، فقد أصبح لديهم الهجوم أكثر سلامة من التراجع ، ولم يخطر لهم هذا الخاطر « التكتيكي » الا انهم واصلوا الانقضاض ، وحدثت أروع واعنف ما يسمى بـ « معركة المتاريس » التحم بها الفريقان ـ اشقياء الفرقة الاجنبية المحصنين بمدافعهم ورشاشاتهم والثوار بسيوفهم وبنادقهم مشهرة الحراب ـ واستمرت هذه المعركة الرهيبة حتى مطلع النهار .

في الصباح انجلى الوضع عن نتيجة غريبة للطرفين . فقد وجد الثوار أنفسهم يحتلون قلب القرية ظانين ان العدو قد ابيد عن آخره ، والواقع ان حلوك الظلام جعلهم لا يتبينون بالدقة الصخرة عن جسد الجندي العدو ، في حين وجد من بقي حيا من افراد القوى الفرنسية انه محاصر في موضعه ، وكاد يتم الاستسلام الكامل لولا ان ظهرت في السهل كتائب السيارات المصفحة التي غادرت درعا وخربة الغزالة في الليل لنجدة القوات المحاصرة . وكان الموقف عصيبا بالنسبة للمصفحات ، فقد خشيت ان تطلق مدافعها على القرية فتصيب رجالها المحاصرين . وفي الوقت نفسه قدم سرب من الطائرات حام فوق القرية فلم يستطع ان يقوم بدوره بأي عمل من اعمال القصف ، الا انه أرشد المصفحات لاسلكيا ان تضرب قلب القرية حيث ربض الثوار استعدادا لـ « عملية التنظيف » .

وبدأت المصفحات بفتح نيران مدافعها من عيار ٣٧ مم على الجوانب الداخلية مما اجبر الثوار الى الانتقال الى الخارج ، وعاد الاشتباك القريب بالسيوف والحراب والمسدسات .، واستطاع الثوار الاستيلاء على بعض

المدافع والرشاشات وعلى مركز التموين ، وعند الظهيرة انقلبت معركة المتاريس الى معركة الشوارع والمحلات ، اذ لم يستطع الثوار الخروج من القرية ، لان الجنود المدافعين نقلوا تصويب اسلحتهم من الخارج الى الداخل • وتوالت هجمات الثوار حتى الساعة السادسة عشرة من بعد الظهيرة ، وقد حصروا جهدهم بالاستيلاء على معقل آمر اللواء • واستمرت معركة المتاريس والشوارع حتى حلول ظلام الليلة الثانية ، وهنا توقف اطلاق النار ، وظلت العيون وحدها تحملق في السكون ، وانين الجرحى والمصابين وحده يطغي على كل شيء •

وفي منتصف الليل كان الوضع كالآتي :

الثوار يحتلون سطوح الدور • القوات الفرنسية المدافعة تحتل التخوم الداخلية • المصفحات تحتل التخوم الخارجية • وفي الطريق من ازرع كان فيلق من الرماة الافريقيين في طريقه الى المسيفرة بقيادة الجنرال غاملان نفسه • كان موقف الثوار عصيبا ، عليهم ان يخرقوا هذه الاطواق الثلاثة ليتمكنوا من النجاة بعد ان أصبح الفرنسيون أنفسهم عاجزين عن الهرب لوقوعهم بين نارين : نار الثوار ونار المصفحات وفيلق الرماة الافريقيين •

وفي ساعة من ساعات الصباح سمعت أصوات الرصاص تنفجر من الغرب ، لقد اصطدم الفيلق الافريقي بنجدة من الثوار أتت من السويداء • واغتنم ثوار المسيفرة هذه الفرصة ، فجمعوا صفوفهم وشنوا اغارة عنيفة للخروج من الطوق الاول ، وكانت عمليتهم هذه شبيهة بقفزة رجل السيرك من الدائرة النارية • وتمكنوا من الخروج • وفي الصباح انتقلت المعارك الجنونية من داخل المسيفرة الى خارجها • وفي ذلك الوقت اطلت ثلاث طائرات في سماء المعركة ، واخذت تنتقي أهدافها بدقة واحتراس ، ووجد الثوار انفسهم محاصرين من كل الجهات وبكل أنواع الاسلحة ،

من جوية وثقيلة وثابتة ومتحركة ، فوجدوا ان تخلصهم من الابادة يعتبر نصرا رائعا • خاصة وانهم يعلمون ان السويداء هي الهدف الرئيسي للقوات الفرنسية ، من أجل ذلك استعملوا في تراجعهم خطة الدفاع المتحرك ، وتمكنوا من الرجوع الى السويداء يحملون ما تمكنوا من حمله من اسلحة ومعدات وذخائر •

واذا أراد تاريخ المعارك الثورية ان يجلل صفحاته البطولية على مر العصور ، فيمكنه ـ دون تحفظ ـ ان يضع معارك الكفر والمزرعة والمسيفرة أكليل الغار على رأس هذه المعارك •



٤ ـ معركة السويداء :

ظلت القوات الفرنسية في السويداء محاصرة منذ ٢١ تموز ١٩٢٥ . وكانت هذه القوات معرضة على الدوام لاطلاق النار والهجمات الثورية المتقطعة بين يوم وآخر . ولم تستطع أية نجدة ان تصل اليها لتنقل اليها الذخائر والمؤن طوال أربعة أشهر ، بل كانت تلقى ما يسد رمق افرادها وما يروي ظمأهم وما يسمح لهم بعدم الاستسلام من الذخائر والمعدات ، كانت تلقى ذلك بواسطة الطائرات التي كانت تلقي المئونة من الجو . وقد اسقط الثوار برصاص بنادقهم بعضا من هذه الطائرات واجبروا الكثيرات منها على القاء حمولتها خارج منطقة الحامية المحاصرة قبل ان تصل اليها . وقد اسقطوا طائرة في ٣١ تموز واستطاعت الحامية أن تنقذ ربابنتها ، واسقطوا طائرة اخرى في ٢١ آب مات ربابنتها محترقين .

وفي أواخر ايلول كانت الحامية قد اصبحت في موقف مؤس من حيث نفاذ الماء والطعام والذخائر ، وقد فكر قائدها جديا بالاستسلام اذا لم تصل اليه النجدات اللازمة ، خاصة وان الثوار بدأوا يقصفون مراكزها بالمدافع الاربعة التي غنموها في معركة المزرعة وهي من عيار ١٥٠ ـ ٧٥ ـ ٦٥ (١) ولو لم يتهيأ للجنرال غاملان انقاذ الوضع في معركة السويداء ، المزرعة . غير انهم اعترفوا بذلك في معركة السويداء (صفحة ١٥١) من لكانت معركة ديان بيان فو الشهيرة عملا له سابقة في حروب التحرير .

---

(١) لم يذكر الفرنسيون شيئا عن المدافع اثناء تعداد قوتهم في معركة الكتاب الذهبي .

وقد وجد الفرنسيون انفسهم مكرهين على خوض هذه المعركة لانقاذ سمعتهم بالدرجة الاولى ، ولرفع معنويات جنودهم بالدرجة الثانية . أما مسألة الاستيلاء على مواقع الثورة فأصبحوا يتركونها الى النهاية بعد أن وجدوا أن دونها خرق القتاد .

حشد غاملان لهذه الغاية القوات التالية :

المشاة : اللواء الخامس من الفيلق الاجنبي الرابع
اللواء الاول من فيلق الرماة الافريقيين الثامن عشر
اللواء الثاني من فيلق الرماة الافريقيين الحادي والعشرين
اللواء الثاني من فيلق الرماة السنغاليين السابع عشر
فيلق الرماة التونسيين (٣ الوية)

الخيالة : اربع كوكبات من الصباحين
كوكبة من الفيلق الثاني عشر
كوكبة « كوليه » (١)

المدفعية : بطاريتان ٧٥ (البطارية اربعة مدافع)
بطاريتان ٦٥

الهندسة : الكتيبة ٣٣ من الشعبة الفنية التاسعة
فصيلة من اللواء التلغرافي الثالث والاربعين

السيارات الرشاشة : ثلاث كوكبات .

قافلة الذخيرة : قافلة عجلات تحمل ١٦ طنا من الخرطوش
قافلة سيارات تحمل ٢٤ طنا من الخرطوش

---

(١) أصبح هذا الضابط فيما بعد الجنرال كوليه الذي لعب دورا سياسيا وعسكريا في احداث ١٩٤٥ التي أدت الى الجلاء . وكان استعماريا عريقا

قافلة سيارات تحمل ٣٠ طنا من القوت (ليومين فقط)
قافلة سيارات تحمل ١٨ طنا من الماء
قافلة سيارات تحمل ٥ اطنان من البنزين

المصلحة الصحية : مستشفى ميدان مع سرية اطباء ومضمدين .

الطيران : كان على ست طائرات كشافة وقاصفة ان تلازم الجيش وتقوم بأعمال الاستكشاف والتدمير فور مشاهدة الثوار .

واتخذ غاملان واركان حربه خطة طويلة ، موقتة بالثواني واجزاء الثواني ، محددين الطريق الرئيسي والطرق الفرعية ، واضعين تشكيلة السير : الطلائع البعيدة ، الطلائع القريبة ، الميمنة وحماتها ، الميسرة وترتيباتها ، المؤخرة وابعادها . الاجراءات المتخذة عند جميع الاحتمالات ، وباختصار كل ما ينبغي لاحتلال ... السويداء .

واذا كانت هذه البلدة الصغيرة لا تبعد عن ازرع اكثر من ٤٠ كيلو مترا ، وصلتها جيوش غاملان بعد يومين ، أمكن معرفة مقدار الجهد والخسائر التي لحقت بها من جراء تكالب الثوار على جيوش الغزاة وملاحقتها وصدها طوال الطريق وخلال هذه المدة . وقدر لجيوش غاملان ان تصل الى السويداء . ولكنها لم تقم هناك طويلا . كانت اقامتها لا تستأهل كل تلك الحشود والترتيبات الهائلة . فقد استرجعها الثوار بعد يومين فقط وكانت الثمانية عشر طنا من الماء قد نفذت . واندحر غاملان عائدا الى حوران تلاحقه فرسان الثورة حتى تخطته وانحرفت نحو الشمال .. الى دمشق ..

استمرت المعارك في الجبل حتى أواخر عام ١٩٢٧ . في الوقت الذي كانت تستعر في دمشق والغوطة والحرمون ومجدل شمس وحماه والضمير ودوما والنبك ، ثم وصل امتدادها الى اقصى الشمال .

٤ ـ اشهر المعارك في الغوطة ودمشق والمناطق الاخرى •

كانت دمشق ، وخاصة الاحياء الجنوبية منها ـ الميدان والشاغور ـ مركزا لتموين وتحضير وصيانة ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ •، وملاذا لابطال الثورة ومستشفى لجرحاها ، وعينا راصدة ساهرة لكل تحركات العدو ومشاريعه ، وقلعة حصينة لاعمال السياسيين الوطنيين الذين كانوا يعملون للثورة ويوفرون لها الدعاية والتموين ، وكانت حلقة الوصل بين ثوار الجبل وثوار الغوطة والمناطق الاخرى • وبالاجمال كانت شوكة قاسية في اعين الاستعماريين الفرنسيين •

ورغم ان الفرنسيين كانوا يعرفون ذلك ، ويكثرون من الاعين والجواسيس ، ويبثون المخافر والدوريات ، الا ان ترتيباتهم لم تكن لتزيد المدينة الا حرصا على استمرار الثورة ، ورفدا لسيلها الجارف ، وينبوعا غزيرا لريها بالمال والسلاح والرجال •

وقد ظلت المخافر الفرنسية المقامة في جنوب الميدان وعلى اطرافه ، عرضة دائمة للاغارات والهجومات ، كما ان الدوريات لم تتمكن في يوم ما ان ترجع الى قواعدها سالمة من الاذى ، وفي احيان كثيرة كانت تعود ـ اذا عادت ـ وقد فقدت بعضا من افرادها او عتادها او معنوياتها • وقد ظلت المدينة تعمل صامتة حتى جاء عصر يوم الثامن عشر من تشرين الاول ١٩٢٥ •

١ ـ معركة قصر العظم :

كان قصر العظم المعروف ـ في حي البزورية ـ يستعمل مسكنا للمندوب السامي • وكانت تحميه قوة كبيرة من المصفحات والجنود عندما يكون المندوب موجودا فيه • وشاء الجنرال ساراي ان يودع القصر بمناسبة رحيله الى باريس في يوم الثامن عشر من تشرين الاول • فجرى له احتفال كبير حضره ضباط القيادة الفرنسية وعائلاتهم ، واصطف الجند في ردهات ودهاليز وعلى سطوح القصر تأهبا للطوارىء •

وفي الساعة الثانية من النهار ترامى الى القيادة أن حركة مريبة تجري في المدينة وخاصة في حي الميدان • وبعد ساعة واحدة تأكدت هذه الانباء بسقوط مخفر باب مصلى وباب مصر بيد الثوار • ورغم أن الجيش الفرنسي كان في حالة الاستنفار ، فقد وجدت القيادة صعوبة كبيرة في السيطرة على نفسها ، وتلافي الوضع قبل ان تسقط المدينة بأسرها بيد الثوار • وكان كل ما فعلته ، ان سلطت مدافعها على أحياء المدينة وأمرت اسراب طائراتها بالتزود بالقنابل الثقيلة المتفجرة والمحرقة • كما اصدرت أمرا الى احدى كواكب المصفحات الرشاشة ان تنتقل الى قصر العظم زيادة في الحماية •

وفيما كانت كوكبة المصفحات في طريقها الى تنفيذ المهمة ، كان الثوار وعلى رأسهم محمد الاشمر وحسن الخراط قد حاصروا القصر واستعدوا لملاقاة أية نجدة تأتيه من الخارج •

ووصلت كوكبة المصفحات الى الدرويشية ، ثم انحرفت الاولى لتدخل سوق مدحت باشا • كان كل شيء هادئا • واستطلعت المصفحة السوق من أوله الى آخره ، فلم يسترع انتباه كشافتها شيء يذكر • الا ان المحلات كانت مغلقة عن آخرها والظلام مخيم على السوق بأسره • وعادت المصفحة الى مدخل السوق وقدمت تقريرها : لا أثر للثوار •••

واقتحمت المصفحات السوق ، وما كادت تصل الى مدخل البزورية حتى انهال عليها الرصاص من كل جانب ، ومن أمكنة خفية لا يمكن معرفتها • وفجأة وجد سدنة المصفحات انفسهم كالعميان ، فقد عطلت مصابيح عرباتهم الاسيتيلينية ، وخرق الرصاص صفائحها المعدنية ، ثم أخذ الرصاص ينفذ الى داخلها ، ورفع السدنة الابراج يريدون الهرب ، ولكن بعد فوات الاوان • كما ان التراجع كان من رابع المستحيلات • وفجأة ، وعلى لهيب النار المنبعثة من المصفحات ، أدرك من بقي حيا من الجنود الفرنسيين انه قد حكم عليه بالاعدام • فقد ابيد افراد الكوكبة واحترقت مصفحاتهم عن آخرها •

أما ما كان يجري في قصر العظم ، فقد استطاع المجاهدون ان ينزعوا احجار الجدران الشرقية وان ينفذوا الى داخله ، وعلى انغام لحن «الفالس» سمع المحتفلون بوداع الجنرال ساراي رحى معركة عنيفة تدور في باحة القصر ، فسقطت الاقداح من الايدي ، وأطفىء النور ، وانبعثت صرخات الرعب من كل جانب • وقد تمكن ساراي من الهرب كما يهرب المغامرون، قبل دقيقة واحدة من وصول احد الثوار اليه • فقد دخل الثائر حسن المقبعة الى الغرفة التي كان المندوب السامي موجودا فيها وهو يشق لنفسه طريقا بين وابل الرصاص ، ويبدو ان المندوب فر من احدى النوافذ •

ولم يستطع حرس القصر الذين ابيد معظمهم من السيطرة على الوضع الا باحراق القصر وقد فعلوا ذلك دون تأخير • وهنا انقلب المجاهدون من رجال ثورة الى رجال اطفاء ، فقد أخذوا يكافحون النار ، لا لانقاذ انفسهم بل لانقاذ آثار القصر من الحريق • وقد استشهد حسن المقبعة بعد اخماد الحريق وهو يخرج من القصر ، وكان استشهاده اغتيالا بيد أحد الجنود المذعورين المختبئين في بحيرة الماء •

وظنت القيادة الفرنسية أن دمشق سقطت بيد الثوار ، فأعطت الامر

مدافعها وطائراتها بدء العمل • وباشرت المدفعية ١٠٥ و ٧٥ باطلاق حممها على الدور الآمنة المطمئنة واستمر القصف طوال الليل • وفي الصباح حلقت الطائرات في سماء المدينة وراحت تلقي بأحمالها فوق المناطق والاحياء التي لم يصلها الحريق • ودام القصف مدة ثمان واربين ساعة ، الى ان خرجت احدى طائرات الاستكشاف وحلقت على علو منخفض ، ثم عادت لتعطي تقريرها :

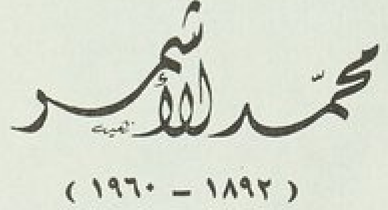
لم يبق جدار في حي الميدان •• ولا اثر لأي مخلوق ••

لم يكتف الفرنسيون بحرق المدينة وتهديم دورها وقتل سكانها بأبشع طريقة عرفتها البشرية ، بل تابعوا اعمالهم التعسفية بفرض الشروط والغرامات • ففي اليوم التالي من ابتداء القصف ، مثلت أمام القيادة الفرنسية بضع نساء من الثكالى والارامل ومهدمات البيوت ، ورحن يتوسلن الى الجنرال غاملان ـ بالآهات والدموع ـ ان يرفع القصف عن المدينة • فأجابهن الجنرال بعنجهية القائد الفرنسي ، وقد أحس بالظفر غير الشريف الذي كان يحن الى الحصول عليه ، أجاب ممليا شروطه :

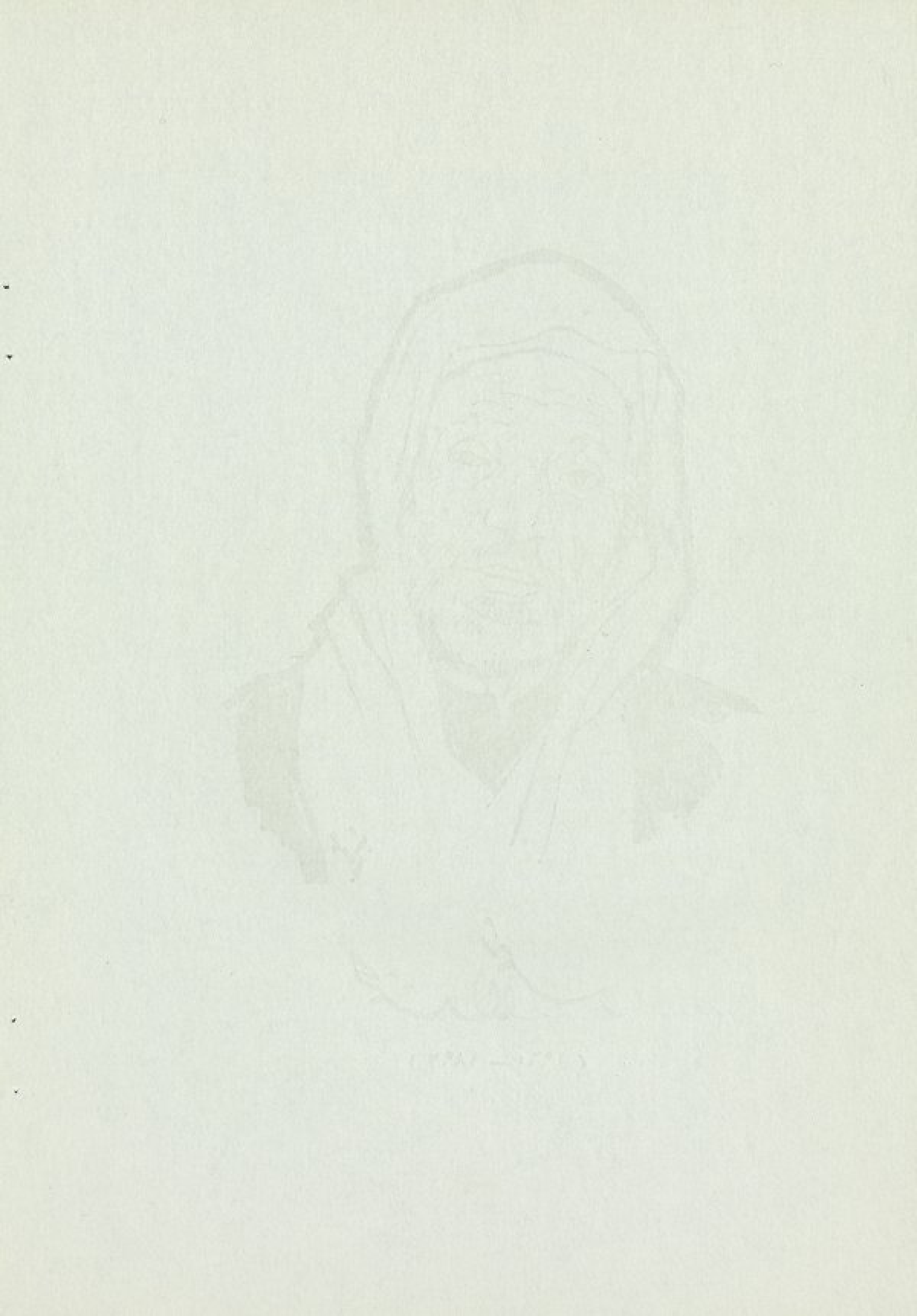
« أولا ليس بالامكان رفع القصف عن المدينة لأن القنابل التي أمرنا باطلاقها لم تستنفذ بعد •• ثانيا : لدينا بعد اطنان من القنابل ، فاذا لم يرضخ الاهالي لمطالبينا بدفع غرامة قدرها مائة الف ليرة ذهبية ، وثلاثة آلاف بندقية حربية ، مع كل بندقية مائة طلقة ، فانني سآمر باستمرار القصف حتى تمحى المدينة عن الخريطة » •

وفتح الجنرال الخريطة مأمام النسوة المذهولات وأراهن مدينة دمشق، ثم أشعل عودا من الثقاب وأحرق القسم الذي تحتله المدينة على الخريطة • فأغمي على امرأتين وهربت الثالثة أما الباقيات فقد صرخن بنبرة واحدة : « الله ينتقم منكم يا اولاد الحرام » ، وقهقه الجنرال واعاد هذه العبارات بلغة ركيكة •





(١٨٩٢ - ١٩٦٠)



وفي المساء اعلن المعتمد البريطاني في دمشق بلاغا الى الرعايا البريطانيين جاء فيه :

« نظرا لتردد الشاميين في اجابة السلطات الفرنسية بدفع الغرامات والاسلحة والذخائر المطلوبة منهم ، فان القيادة الفرنسية ستستانف قصف المدينة من جديد . فعلى رعايا مملكة صاحب الجلالة ان يؤموا دار القنصلية البريطانية صباح السبت ٢٤ تشرين الاول ١٩٢٥ مزودين بما يكفيهم من القوت لمدة اسبوع ومصحوبين بالاوراق الرسمية التي تثبت تبعيتهم لمملكة صاحب الجلالة ملك بريطانيا والهند وكافة المستعمرات ... »

وكان لهذا البيان القطيع أسوأ الوقع في نفوس السكان ، فوقعوا في حيرة رهيبة ، ولم يجدوا طريقة لتنفيذ هذه المطاليب . الا بالالتحاق بقوات الثورة المرابطة في الغوطة الشرقية ، والتي تكمل استعدادها للكرة القادمة. وأيقن الفرنسيون ان مطاليبهم لن تنفذ ، وفي الوقت نفسه كانوا يخشون من اثارة الرأي العام العالمي ـ عدا بريطانيا ـ . مما جعلهم يطلبون الى الحكومة المحلية ان تتعهد بدفع هذه الغرامة ، على أن تستردها من الاهلين فيما بعد على شكل ضرائب . وأما البنادق والذخائر فقد أوعزت السلطات الفرنسية الى المتطوعين في صفوفها ان يسرقوا من القلعة ويبيعوا الاهلين ، ووصلت قيمة البندقية العتيقة طراز ٠ ـ ٧ ـ ١٥ الى عشر ليرات ذهبية كان الاهلون يبيعون انقاض بيوتهم ويشترونها ليسلموها الى السلطات . في حين كان كثير منهم ما ان يحملوا البندقية حتى يطلقوا حياة الخسف ويلتحقوا بالثورة .

٢ ـ معارك الميدان الثانية : ٧ أيار ١٩٢٦

النساء اللواتي ذهبن لاستجداء عطف غاملان اصبحن في صفوف الثورة • الاهالي العزل وجدوا الا فائدة من السكوت • واصبح نشيد الشعب المفضل :

يا ولـد يا ابن المقرودة بع امك واشري بارودة
والبارودة خير من امك يوم الكرب تفرج همك

كانت أطلال دمشق باعثا جبارا لاستمرار الكفاح ••، وبوقا مدويا يدعو للنفير ، ولم تعد الطائرات ترهب الاطفال ، ولا قصف المدافع يصم الآذان ، والحرائق أصبحت ألعابا يلهو بها المتفرجون • واشتد ساعد الثوار، واتخذوا خرائب المدينة حصونا لهم ، وراحت السلطات الفرنسية تحرق الارم ولا تجد مبررا لحرق الحرائق وهدم الانقاض ونبش القبور • غير انها ما برحت تفاجأ كل لحظة بالاغارات والهجومات واحتلال المخافر وقتل الجنود وفقدان الاسلحة والذخائر •

وفي الرابع والعشرين من شباط **١٩٢٦** اعلنت القيادة الفرنسية الحداد على موت احد ابطالها الكولونيل رولان مدعية بأنه قتل بأيد اثيمة • وبعد يومين احتفلت بتشييع جنازة جديدة • وما انفكت وزارة الدفاع الفرنسية تتلقى رسائل وبرقيات من الامهات الفرنسيات « نريد اولادنا •• نريد ازواجنا •• لا نريد ان نفقد احباءنا في سورية •• اتركوا سورية لاصحابها •• تعالوا الى هنا حاربوا المستغلين •• الخ »

وطمأنت الوزارة الشعب الفرنسي قائلة : « سنقضي على العصابات الاجرامية » وصحت عزيمتها في نيسان ١٩٢٦ ان تطهر حي الميدان من جديد • وباشرت أعمالها في السابع من أيار • فأناطت القيادة بالكولونيل كليمان غرانكور ووضعت تحت تصرفـــه لواء معززا بمدفعية ودبابات وسيارات رشاشة مصفحة وساندته كتيبتان من الرماة المتمرنين على حرب الشوارع • وكانت مهمة هذه القوات هي ضرب نطاق حول الحي لكي تمنع تراجع الثوار واختفاءهم •

أما تنفيذ الحركات فقد انيط بثلاث تجريدات من المشاة والسيارات الرشاشة والدبابات وسلاح الجو مهيأ للتحليق والقصف • تقدمت هذه التجريدات على شكل ارتال متوازية من معسكرات القدم ـ قرية على بعد ٧ كم جنوبي دمشق ـ من الجنوب الى الشمال ، وكانت كتيبة من الفدائيين متجهة نحو الشارع المركزي •

توقفت طلائع الاستكشاف عند مدخل الحي على انهمار الرصـــاص عليها من المقابر الكائنة في الجهة الشرقية من الطريق • وارسل قـــائد الطليعة المصفحة رسالة لاسلكية : « النار من المقابر » فرد عليه غرانكور : « اترك المقابر واعمل للمهمة الرئيسية » • واطاع قائد الطليعة الامر ، ولكنه ما كاد يأمر السائق باستئناف السير حتى فوجيء بغطاء البرج ينحسر عن وجه غريب يعصب رأسه بذلك الشعار المرعب : الحطة والعقال • وحملق القائد عينيه وهو يرى قنبلة يدوية مخططة تدلى من السقف •

وجد غرانكور ان الطليعة لم تتقدم ، فأعاد أوامره : اتركوا المقابر واتجهوا الى المهمة الرئيسية • وظل الكولونيل ينتظر الرد او التنفيذ دون جدوى ، الى ان حلقت طائرة فوق المقابر واعطت البرقية التالية : « المقابر تعج بالثوار • ثلاث مصفحات محترقة تسد الطريق • جنود الطليعة يطلقون

النار على المقابر • » وانهى ربان الطائرة رسالته بالقاء قنابله على شـــاهدة بارزة من قبر مرتفع ثم عاد ادراجه الى مطار المزة •

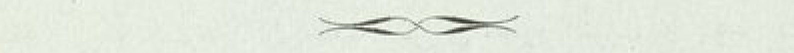
شطر غرانكو قواته الى قسمين : قسم يستدير من خلف المقـــابر والقسم الآخر يلحق بالطليعة • وأعطى أمرا للمدفعية بحرث المقبرة • بعد ساعة كانت المقبرة قد حرثت تماما ، باشرت القوات المستديرة هجومها من الشرق ، ولكنها توقفت عند التخم • وأفاد قائد الفصيلة المكلفة بفتح ثغرة الانقضاض : ان الجثث تفرش الارض ولكن النـار لا تزال تعيقنا عن التقدم • وأعطى غرانكور أوامره : « احرقوا الجثث » •• ربع ساعة قصف بالقنابل المحرقة • والتهبت القنابل المحروثة بقنابل النفط • بعد ربع ساعة استؤنف الهجوم • تحركت الفصائل حوالي مائة من الامتار ثم توقفت • استفسر غرانكور عن سبب التوقف ، فأفاد مساعد آمر الفصيلة : « لم يبق غيري حيا •• لقد سقط القائد مع جميع الافراد في القبور المنبوشة » •

وعاد غرانكور الى اصدار اوامره : « تراجعوا •• استلموا الطريق الرئيسي •• » ووصلت الدبابات الى مصفحات الطليعة المحترقة ، فأزاحتها عن الطريق واستلمت هي مهمة الاستطلاع ، ثم استؤنف الزحف • عند بوابة الميدان الجنوبية عادت الطليعة الجديدة الى التوقف • وصاح غرانكور : « والآن ماذا حدث ••؟ » وأجاب قائد رعيل الدبابات : « الطريق مسدودة بالاحجار وجذوع الشجر • » فتلقى أمرا بازاحتها وفتح الطريق • ولكن الطريق لم تفتح • وعاد غرانكور يصرخ : « ماذا تنتظرون ••؟ فكانت الاجابة : « ان الجنود الذين كلفوا بمهمة ازالة العوائق قد قتلوا قبل تنفيذ المهمة » • واوعز غرانكور الى المدفعيـة باستئناف الحـــرث والقصف والتحريق •

وهكذا راحت تجريدات الكولونيل غرانكور تتقدم خطوة وتتوقف ساعات ، وعلى جانبي الطريق كانت سحب النار والدخان تتصاعـــد حتى

أبواب السماء • وكل جدار كان يهوي بتأثير قذيفة دبابابة أو قنبلة مدفع ، كان يرتمي وراءه رأس متلفع بالشملة والعقال وبيده قنبلة يدوية او زجاجة بترول • وانتظرت القيادة الفرنسية صباح اليوم التالي دون جدوى فقد خجل الصباح ان يرتفع • كانت السماء والارض والدنيا حالكة السواد ، مدلهمة الظلام يخيم عليها جو من البؤس والسخام والدخان ••

وفي مساء ٨ أيار ١٩٢٦ تقدم غرانكور الى قيادته على محفة المستشفى وهو يتمتم بوناء بالغ : « لقد نفذت المهمة يا سادتي •• »



٣ ـ معارك الغوطة :

تشكل غوطة دمشق الشرقية بقعة مستطيلة واسعة الجنبات ، يبلغ طولها (٣٢) كيلو مترا وعرضها (٢٤) كيلو مترا ذات خصب فياض يرويها بعض فروع نهر بردى • والماء فيها محصور بعناية في مئات من أقنية السقاية ، وهي بالاجمال تشبه غابة كثيفة الادغال ، تكسوها الاشجار المثمرة المتشابكة الاغصان ، واشجار الحور المرتفعة البنيان • تنفسح بينها الغياض وتمتد الجدران والسياجات الكثيفة • وتنساب فيها سواعد النهر التي لا يستطاع اجتيازها الا حيث تتيسر المعابر وهي ضيقة ونادرة الوجود • وهذه المسافات مملوءة بالقرى والدساكر والمزارع والطواحين وكلها محاطة بالاعشاب الهائجة • وهناك بقاع فيها ـ خاصة منطقة الزور ـ الواقعة على ضفة النهر ، تكسوها ادغال مظلمة ليس في مقدور الغريب ان يتوغل فيها او يجتازها حتى ولا يمكن تسريح النظر فيها الى ابعد من خطوات قليلة •

وبما أن ارضا هذه طبيعتها تتنافر مع حركات الجيوش النظامية ، باعتبار ان عمل الطائرات جد محدود ، والمدفعية لا حول لها ولا قوة ، والمشاة لا يستطيعون الاستفادة من كل جبروت اسلحتهم ، بل هم مضطرون ان يتجزأووا الى حضائر صغيرة يصعب الارتباط بينها ، والدبابات والآليات المتحركة لن يكون نصيبها النجاح في الرماية او التوغل ، كما أن الخيالة يستحيل عليها ان تقوم بحركاتها الا وهي مكرهة على المعارك سائرة على الارض ، نظرا لجميع هذه العوامل ، اتخذ ثوار الغوطة مراكزهم في قلب الادغال ، واستمروا في هجوماتهم المتكررة على ارتال الفرنسيين ، وفي قطع

الطرق أمام جحافلهم وجعلها في حالة يتعذر فيها مرور الآليات المصفحة ، وفي ضرب الجسور وزرع الالغام المضادة للدبابات • وأقاموا عند تخوم القرى جدرانا ذات فوهات ونوافذ ليمكن الرمي مع الحماية من خلالها ، وكانت لديهم شبكة جيدة من الاتصالات والاستخبارات تنبئهم عن تحركات الفرنسيين وتنذرهم عندما يكون الثوار هدفا لهذه التحركات • وكان حي الميدان هو المصدر الاساسي لتموينهم بالمال والسلاح والذخائر ، أما اسباب المعيشة فهي متوفرة في قلب الغوطة نفسها •

وفي ربيع ١٩٢٦ كان تعداد الثوار الموجودين في الغوطة حوالي الالف ثائر ، منقسمين الى عصابات وتجمعهم قيادة منظمة واحدة • وكان اشهر هذه العصابات ق عصابة الشيخ محمد الاشمر من أهالي الميدان ، وعصابة حسن الخراط من أهالي الشاغور ، وعصابة مسلم وردة من حي الأكراد ، وغيرها • وقد عجزت التجريدات الفرنسية عن النيل من هذه العصابات الثورية ، أو معرفة مكان تمركزها على وجه الدقة • وكانت دمشق وقتئذ في شبه حصار ، والجيوش الفرنسية عاملة على حرقها وتدميرها وحصارها من جميع الانحاء • وعندما عجزت الحملات الفرنسيـــة عن التوغل في الغوطة ، طوقتها بنطاق من التحصينات واحاطت تخومها بشبكة من الالغام « مصائد متفجرة » والاسلاك الشائكة ، ثم راحت تستعد سرا لتجـــريد الجيوش الكبيرة لـ « تطهيرها » من الثوار •

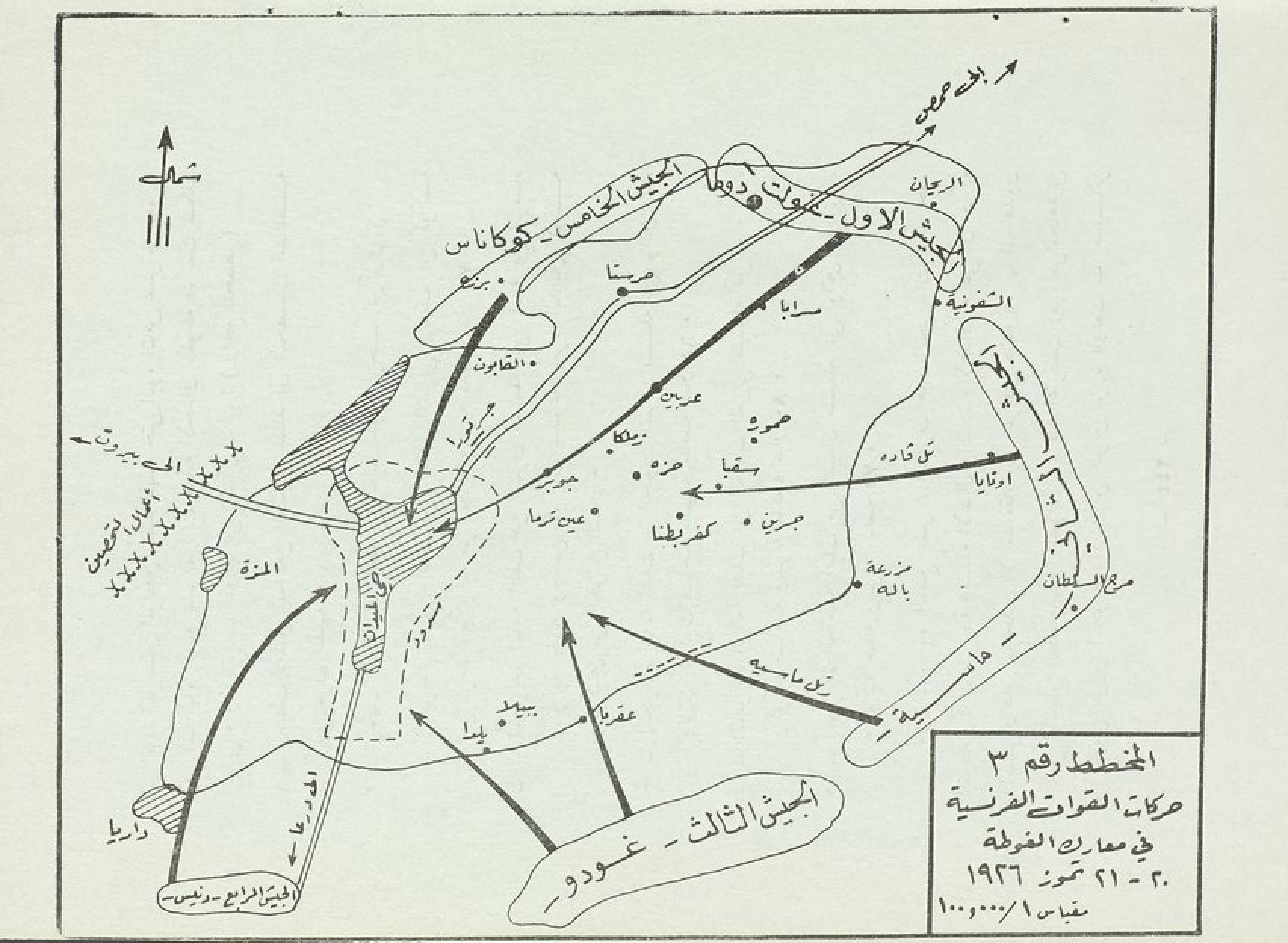
وكانت أول هزيمة احاقت بالفرنسيين عند محاولتهم القضـــاء على ثوار الغوطة قبل ان يستفحل امرهم في صيف ١٩٢٥ • فقد ارسلوا حملة صغيرة لاخضاع الثوار ، وما ان وصلت تلك الحملة الى قرية المليحـة حتى انقض عليها المجاهدون ، وجردوها من خيولها واسلحتها وعتادها ، ثم تركوا افرادها يعودون الى قيادتهم سيرا على الاقدام دون ان يريقوا نقطة من الدم • وسميت هذه الواقعة بـ « واقعة الزور الاولى » •

وفي السابع عشر من تشرين الثاني ١٩٢٥ ، جردوا حملة كبيرة يقدر تعداد افرادها بـ ٨ آلاف مقاتل معززين بالمصفحات والمدفعية ، وترك الثوار هذه الحملة تتورط في منافذ وطرق الغوطة الملتوية ، ثم انقضوا عليها بعد عملية كمين رائعة ، فقضوا على معظم افرادها واستولوا على اسلحتهم وعتادهم وقد غنموا بعضا من الاسلحة الرشاشة ، استعملوها فيما بعد في عملياتهم الحربية • وسميت هذه المعركة بـ « معركة الزور الثانية » •

وغير هاتين المعركتين ، جرت معارك أخرى بين الثوار بأعدادهم ومعداتهم القليلة وبين الجيوش الفرنسية ، بترتيباتها واسلحتها المختلفة والمنظمة ، وأعدادها الكبيرة ، ارتد فيها الفرنسيون وهم يجرون اذيال الخيبة والهزيمة ، متكبدين خسائر لا تحصى بالارواح والعتاد ، واشهر هذه المعارك جرت في وادي برزة وجوبر والقابون ويلدا وببيلا وداريا ••

وفي شهر تموز ١٩٢٦ ، قرر الفرنسيون ، بعد ان استقدموا جيوشا ومعدات جديدة وبعد ان فرغوا من معارك جبل الدروز ، قرروا الانتهاء من مشكلة الغوطة وثوارها المرعبين • وقد عرفوا ــ من تجاربهم المتكررة ــ ان قرارا هذا شأنه لا يمكن ان يكتب له النجاح ولا يصاحبه التوفيق ، الا اذا احيط بالكتمان الشديد وبالحيل المبتكرة ، ريثما تتجمع القوات المعدة للعمل ، وتصبح جاهزة لفورها على الانطلاقة المباشرة وتحتل مراكزها المعدة للانطلاق •

وقد توجب على القوات الفرنسية ان تتخذ في ترتيباتها المعدة لهذه الغاية الكثير من الحيطة والحذر • فقد اخذت تقرب الجيوش الى منطقة الغوطة من نقاطها المتفرقة بحركات يدل ظاهرها على ان الجيوش تتحرك الى أهداف بعيدة عن دمشق ، كالحرمون ولبنان الشرقي وحوران •• الخ حيث كانت تلتهب الثورات الشعبية ــ • وهكذا لم تصدر الاوامر والتعليمات



المخطط رقم ٣
حركات القوات الفرنسية
في معارك الغوطة
٢٠ - ٢١ تموز ١٩٢٦
مقياس ١/١٠٠٫٠٠٠

الى القادة الفرنسيين المولجين بتنفيذ المهمة حتى اليوم الثامن عشر من تموز • وفي مساء يوم التاسع عشر ، كانت عملية الاحداق بالغوطة قد تمت بشكلها النهائي • وجاء ترتيب القوات على الشكل التالي : (راجع المخطط)

١ ـ احيطت دمشق بسد من الجيوش مسند الى التحصينات المتسلطة على غرب المدينة •

٢ ـ وجهت التجريدات الخمس التالية لتقوم بالزحف المركزي :

ا ـ التجريدة الاولى واقبلت من الشمال الشرقي وتتألف من كوكبة من الرماة ، وكوكبة من الخيالة وسرية مدفعية عيار ٧٥ •

ب ـ التجريدة الثانية اقبلت من الشرق مشتملة على كتيبة من الرماة وكوكبة خيالة وخمس كوكبات متطوعة بأمرة الكابتين كوليه وكوكبتين من الحرس السيار •

ج ـ التجريدة الثالثة اقبلت من الجنوب الشرقي مشتملة على لوائين مشاة وثلاث كوكبات صباحية وسرية مدفعية عيار ٦٥ •

د ـ التجريدة الرابعة اقبلت من الجنوب الغربي مشتملة على لواء مشاة وكوكبة صباحية وسرية مدفعية عيار ٨٠ •

هـ ـ التجريدة الخامسة اقبلت من الشمال مشتملة على لوائين من الرماة وكوكبة خيالة وسرية مدفعية ٧٥ •

وفي مساء يوم التاسع عشر ، استقرت هذه التجريدات عند تخوم الغوطة وكانت مترابطة ومنسقة الاعمال والقيادة والاهداف • على أن حركة الاستقرار هذه لم تحدث الا بعد مقاومات وعراقيل هائلة قام بها المجاهدون الذين اكتشفوا الخطة وتهيأوا للطوارىء • فقد اعترضت زمرة من المجاهدين الاشاوس طريق التجريدة الآتية من طريق برزة فأوقعت بها خسائر

فادحة ، وأخرتها عن الوصول الى مكان التجمع • وكذلك حدث للتجريدتين الآتيتين عن طريق الشفونية ودير الحجر • وفي هذه الاثناء كانت جيوش دمشق تقوم باعداد سدود النار للقيام بمهمة تدمير مناطق المقاومة ، وتعمل على ترميم الجسور التي نسفها المجاهدون وأهمها جسر نهر تورا •

وفي اليوم العشرين من الشهر باشرت الجيوش حركاتها على اربع جبهات ، وبتشكيلات تضمن لها حرية الحركة من تقدم وتراجع والتفاف ودعم ، وكل الشروط التي يجب أن تتوفر لجيش يخوض معركة كبرى من معارك الحرب الضروس •

أما قوات المجاهدين ـ وكانت قد استعرضت حركات العدو وتبينت خطته بكل وضوح ـ فقد توزعت على الفور من قلب الغوطة الى اطرافها ، على شكل « اشعة » لتوقف حركة الجيوش وتتصدى لها في المناطق الآتية : دير العصافير ـ مرج سلطان ـ بالا ـ شفونية ، من الشرق • عقربا ـ يلدا ، من الجنوب • جسر تورا ـ قابون ـ حرستا ـ دوما ـ الريحان ، من الغرب والشمال •

وبدأ الالتحام في جميع هذه الجبهات والمناطق ، وقد وضع كل من الفريقين كل طاقته لأحراز النصر • كانت الطلائع الفرنسية تتوقف ريثما تنتهي المدفعية من التمهيد بالقصف المتواصل ، وحرق القرى والبساتين والادغال ، وما ان تستأنف المشاة زحفها حتى تصطدم من جديد بعقبات لم تكن لتحسب لها وجودا او تخطر لها على بال •

وقد استطاعت التجريدة القادمة من الشرق ان تتوصل ـ بعد معارك عنيفة الى جسرين وكفر بطنا في قلب الغوطة ، وفي الوقت الذي ظنت فيه نفسها انها قد حققت غاية ، فاذا بها تقع على حقيقة اليمة ، وهي انهـــا ما تزال في الفراغ • لا أثر للعدو المنسحب الى الغرب ، ولا أثر لمعاقله

وتحصيناته • والواقع أن الخطةالبارعة التي استخدمها المجاهدون لاستجلاب قوات العدو الى « عرين الاسد » كانت موفقة للغاية ، فقد وجدت الحملة نفسها في الخامس والعشرين من الشهر في موقف لا تحسد عليه • اذ انقطع عنها الاتصال بالجوانب ، وقطعت عنها الامدادات من الخلف • وعندما طلبت نجدة أو أدلاء يحددون لها مناطق الخروج ، كان الرد عليها عبثا ، وبوشرت عملية « التنظيف المعاكس » •

ولم تجد القيادة الفرنسية طريقة لسحب حملاتها التي استعصى عليها الخروج من قلب الغوطة ، الا بحرق الغوطة نفسها ، على طريقة « علي وعلى أعدائي يا رب » • وكان قائد الثورة السورية سلطان الاطرش قد علم بأمر هذه الحملات ، فأرسل دون تأخير نجدة ثورية لدعم مجاهدي الغوطة والشد من أزرهم ، فوقعت القوات الفرنسية بين نارين ، وأحيطت بنيران الثوار من الامام والخلف ، مما جعل القيادة ــ وقد غامرت بكل اسهمها في هذه الضربة الفاشلة ــ ان تضحي بجنودها أيضا لتتخلص من الثوار • وكان ان انسحبت « عقبان الغابة » ، بعد أن خربت أعشاشها ، الى منطقة اللجاه جنوبا لتواصل الثورة الى النهاية •

بينما كانت المعارك تدور رحاها في بطاح الغوطة ودمشق ، كانت الثورة في حماة والنبك وقطنا ومناطق الحرمون على أشدها • وفيما ظلت القيادة الفرنسية تستقدم الفيالق والفرق العسكرية ، ومعامل الحرب في مارسيليا وبوردو وسانتاتيين ترسل اكوام الاسلحة ، كانت الثورة السورية تفجر بركانها الهادر وتبتلع الفرق والفيالق وترغم وزارة الحرب في باريس ان تطمئن الامهات بالوعود والاكاذيب :

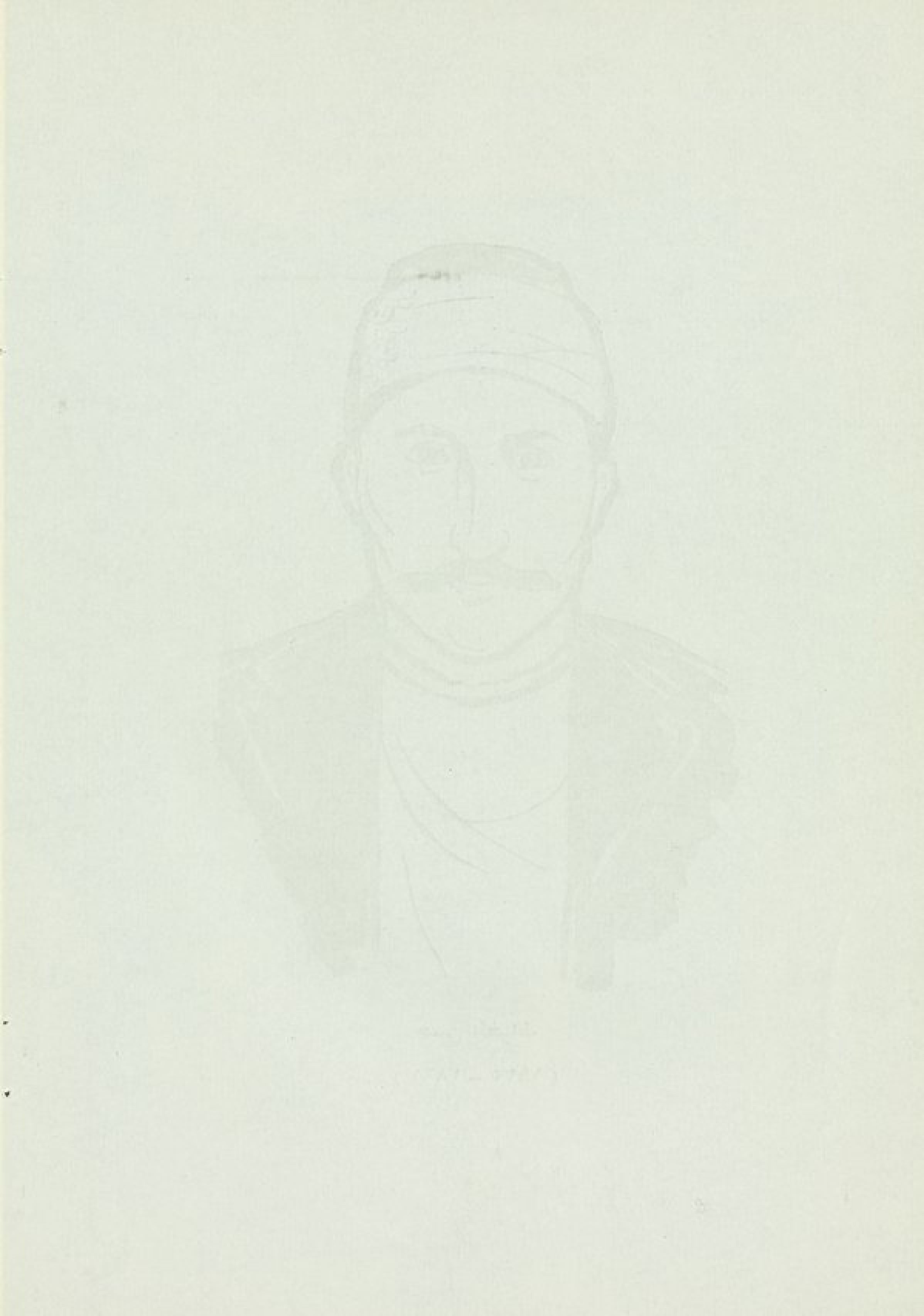
« سننتهي اليوم •• سننتهي غدا •• »

وما انفكت الامهات الفرنسيات ، والامهات في المستعمرات ، ينتظرن رجالهن الى الآن • هؤلاء الرجال المساكين ، الذين ماتوا في سورية دون



حسن الخراط

(١٨٦١ ـ ١٩٢٥)



ان يعرفوا لذلك سببا ، وهذه أعظم فاجعة في التاريخ ، ان يموت الانسان دون أن يدري لماذا يموت •• واذا قدر لاشجار الغوطة ان تنبت من جديد ، ولاغصانها ان تورق وتزدهر على مر السنين ، ولفواكهها ان تعود وتغمر اسواق المدينة ، فلأن دماء الابطال لم تذهب هدرا ، فلا بد لشجرة الحرية ان تثمر ، ولا بد للتراب المصبوغ ان يعانق الجذور ••

الفصل التاسع

١ ـ تحليل ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧

كان من خصائص ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ انها اندلعت من جراء الاسباب التي حاول بها الاستعمار الفرنسي تحاشي اندلاعها : ففرض الغرامات الباهظة ، وعملية جمع الاسلحة والذخائر التي اعقبت معركة ميسلون ، وتقسيم البلاد الى دويلات ، وتفكيك اوصال الشعب الواحد ، وبث العيون والارصاد ، ونشر الارهاب بشتى الطرق والاساليب ، وخنق روح الحرية لدى المواطنين وقتل الاقتصاد الوطني في مهده ، وغير ذلك من التدابير التي اتبعها الفرنسيون ، كانت غايتها هي الهاء الشعب بأمور تجعله ، أولا : غير قادر على اعلان الثورة ، وثانيا : لفت انظاره الى المسائل الآنية المستعجلة ، كتبديل حاكم مستبد ، أو المطالبة بأشياء لا تبدل أو تغير من جوهر القضية الاساسي •

وان حقيقة الثورة المسلحة تبدو دائما واضحة وضوح الشمس • فبقدر ما يتوغل الانسان صعدا في تاريخ الحضارات ، يجد ثورات شعبية تخضع كلها لنواميس دائمة وثابتة ، رغم تشابك الحوادث التاريخية وتعقدها • وما جرى في ثورات التاريخ الشعبية يشبه تماما ما جرى في ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ • وان صيحات المقاتلين الهادرة ، ودماءهم المتفجرة ، وانواع الشقاء المتعدد الالوان ، وأشكال التدمير والتحريق ،

تظل دائما هي نفسها ، كأن القديم يمتزج بالحديث • وأساليب القتال الثوري وأشكاله تتشابه أيضا ، ولكن الوسائل وحدها تتغير حسب تطور الامكانيات الفنية •

وقبل ان يتزعزع صرح المستبد الغاصب في مهب العاصفة الثورية ، تتلبد في سماء البلاد المحتلة غيوم سوداء تنذر بالويل والثبور وعظائم الامور • ويتفاقم القلق الكامن في النفوس حتى يبلغ ذروته ويصبح جاهزا للانفجار المدمر المريع • أما الاسباب فتكون أحيانا بعيدة ، منتشرة في وجوه متعددة الاشكال • فيتجمع بعضها مع بعض ، ويتفاعل بعضها حتى تقع الواقعة الكبرى بصورة تبدو انها حتمية ولا سبيل الى دفعها او اطفاء لهبها المستطير •

ولا شيء يستطيع الوقوف في وجه الارادة الجماعية التي تكون دائما على حق حين تنتصر • ففي كل شيء : يجب ان تكون القوة هي السبيل الى احراز الحق • أما الضغط والتضييق ، وتقليم الاظافر ، ونزع الوسائل ، والاحتيال على طمس الروح الوطنية وغير ذلك من التدابير القمعية فلا تزيد الا في خطر الانفجار وعنف انطلاقه • وهذا ما يؤكده برودون بقوله : « ان اساليب الضغط تحكم على المجتمعات بأن تقفز وتجتاز دفعة واحدة المسافة التي تقضي الظروف العادية باجتيازها على مراحل عديدة • »

وعلى هذا فقد كانت الثورات السورية ضرورة لا لاجلاء الفرنسيين فحسب ، بل لتنقل الوعي الوطني الى المستقبل البعيد ، ليعوض عن النقص الذي عاناه من جراء العهود الماضية في الاحتلال التركي • وفي هذا يقول فوشيه في كتابه « سورية ولبنان » :

« ان في سورية الآن عملية انتقام للماضي الاسود • ففظائع الحرب الوطنية ، وقتل الجماعات واتلاف المواسم واطلاق المدافع على دمشق والقرى المجاورة لها ، واعمال السلب والنهب ، وغير ذلك من الاعمال الرهيبة ، قد اوجدت لدى الشعب السوري تصميما على

اثبات وجوده . ان النـــاس قد تلين قنـــاتهم للقوة العسكرية . ولكن الثورة تظل كامنة في صدورهم . ولا أجد لفظة تعبر عن حالة الدمشقيين النفسية الا لفظة « الحنق » ويدل ذلك على ان خضوعهم المكرهين عليه ، لا يلبث حين تواتيه الظـروف ، ان يتحول الى ثورة عارمة ، وقد نالهم القنوط من وجود أي مخرج ينقـذهم من موقفهم المؤلم » . (١)

ان كلمات فوشيه هذه تدل على أن جانبا من المسئولين الفرنسيين كان يتنبأ بالثورة السورية ، وكان يعلم أن تدابير القمع والشدة لا تجـدي الا بضغط النابض بصورة تجعل الانتفاضة أكثر قوة وابعد دفعا . ولكن ماذا كان بمقدور الفئة الحاكمة ان تفعل غير ان تراجع عن قرارهـــا باحتلال البلاد ..؟ وهذا أمر لا يمكن أن يخطر للاستعماريين على بال . حتى انه ولو خطر لهم ، فانهم يتجاهلونه تجاهل العارفين ، ويحاولون ان يداووه ـ باعتباره مرضا ـ بالدواء غير الشافي ولكنه المسكن . أمـا الشعب فكان يعرف حقيقة العلة ، ويعرف موطنها ودواءها ، وكان دواؤها هو الثورة ، ولا شيء غير الثورة . كانت ردود الفعل الاولى لسياســة الاحتلال هي عبارة عن انذارات دامية وعنيفة . : ذبح وزراء غورو في محطة خربة الغزالة ، محاولة اغتيال المندوب السامي على طريق القنيطرة ، اشتداد المعارك في جبل الزاوية والعلويين ، ثورة الجزيرة ودير الزور ، خمس وثلاثون ثورة في انحاء متفرقة من البلاد ـ كما جاء على لسان ساراي .

ولم تجد عملية تبديل المندوبين الساميين ، ولا ترتيبات هؤلاء المندوبين الحكيمة منها وغير الحكيمة ، وكانت اجراءات الالهاء التي اتخذوها عبارة عن ألعاب سحرية ولكن مكشوفة ، لقد استجاب الشعب لاقتراحـــات

---

(١) المراحل : ج ١ ص ٣١

ساراي : ماهي مطاليبكم ..؟ وأعطوه مطاليبهم ، ولكن ماذا كانت النتيجة..؟ الضرب بهذه المطالب عرض الحائط ، وحضور مستشار فرنسي بالقانون ، لوضع الدستور السوري . وعرف الشعب أن الدستور السوري يجب أن يوضع من قبل السوريين المنتخبين من قبله ، وكانت بوتقة الثورة تغلي بالمواد التحضيرية اللازمة ، ونجحت التجربة .

ولدت ثورات ١٩٢٥ - ١٩٢٧ ولادة طبيعية ، فكانت اشبه بمولود مكتمل النمو بعد ان تكون في جنين الشعور الوطني خلال المدة اللازمة ، وحصل الغذاء وضروريات النمو الكفيلة باعطائه صفة البقاء والاستمرار والديمومة . وكانت معركة الكفر هي الاختبار الفعلي لقوة الثورة وثباتها . والاستعمار دائما لابد وان يقوم بعملية الاختبار هذه ، عندما يحاول ان يقبض على قادة الثورة ، فهو يساهم مساهمة فعلية في نشوئها دون ان يقصد ذلك . وعند عملية الاختبار تتوضح معالم الثورة وتأخذ طريقها الذي رسمته لنفسها مقتحمة كل الصعوبات والعقبات التي تجدها في طريقها .

ونجحت تجربة الثورة السورية لانها حصلت على الشروط التالية :

١ - آمن القائمون بها بعدالة قضيتهم ايمانا عميقا مطلقا ، وصمموا على البذل والنضال مهما تقلبت الظروف والاحوال .

٢ - كان الشعب العربي في سورية يؤيد الثورة ويناصرها بكل ما لديه من امكانيات وقوى وعواطف .

٣ - ألف الشعب وقادته الثوريين حالة الحرب ، ودمجوها بحياتهم اليومية فأصبحوا قادرين على مواصلة القتال حتى ينالوا مطاليبهم .

٤ - عرفوا أن استمرار الحرب التحريرية يزيدهم قوة يوما بعد يوم ، ويرهق العدو ماديا ومعنويا بقدر ما تتسع مجالات القتال .

وفي الواقع ، كانت حالة القلق والبلبلة التي وصلت اليها فرنسا في عهد الثورات السورية تدل على التأثير الكبير الذي احدثته هذه الثورات في نفسية العسكريين ورجال الدولة والشعب الفرنسي وحتى في هيئة الحكومة ومناعتها الاقتصادية • وقد توقع كثير من المراقبين الدوليين ان تنسحب فرنسا من سورية قبل انقضاء مدة الانتداب المقررة ، وهي لا تقل عن خمسين عاما •، وذلك بعد ان تفاقمت أزمتها الاقتصادية والسياسية والدولية ، وبات الشعب الفرنسي يفضل الاستنكاف عن مواصلة القتال في سورية ، لان هذه الحرب أخذت تستنفد قواه ودماء شبابه دون أي فائدة أو أمل قريب أو بعيد •

والتاريخ لا يعرف الكذب أو التدجيل ، انه الحاكم النزيه في دولة القضاء العادل • فتكاثر حركات الجماهير والتفافها حول غاية واحدة تحت قيادة ثورية منظمة ، هو الدليل الذي يتبناه التاريخ ليصدر من بعده حكمه الصحيح • فمتى التف الشعب حول غايته ووضع نفسه تحت تصرف الثورة ، أمكن لرجال الثورة أن يواصلوا حربا بطيئة لا حساب فيها للوقت ، لانها حرب ارهاق وافناء ، ترمي الى القضاء على عدو غاصب ليست له أي صفة شرعية أو قانونية في منطق الحق والتاريخ • ومهما كان هذا العدو قويا ، ذا أجهزة نظامية حديثة ، فان الثورة الشعبية ستحدث في صفوفه تضعضعا في المعنويات ، وترغمه على توزيع قواه ، وعلى الاحتفاظ بحاميات كبيرة في الاماكن الحساسة من البلاد ، وبهذا تضعف قدرته الضاربة ويصبح ميالا الى المهادنة وتلبية مطالب الشعب •

والعنف بهذا الصدد لا يمكنه ان يحل مشكلة ، بل يثير الحقد ، ولا يمكن للمستعمر ان يبني حكما متين البنيان على صخور البغضاء والكراهية • ان جهدا مهما كان متين البنيان الاقتصادي والحربي والاجتماعي ، لا يستطيع وحده ان يقاوم الافكار المنطلقة من ضمير الشعب

التائق الى الحرية والاستقلال . والاستعمار يخسر في قمع الحركات الوطنية اكثر مما يربح ، وذلك اذا قدر له ان يربح ، لانه يقوم بدور المقامر والمغامر بكل رصيده في بورصة غير مضمونة النتائج .

لقد كانت الثورات السورية دليلا صارخا على هذه الحقيقـــة .، لانها نبعت من ضمير الشعب ، ووضع تحت تصرفهـــا كل ما يملك من امكانيات مادية ومعنوية .، وحملها في قلبه مجتازا بها كل الصعاب حتى وصل بها الى شاطىء السلامة .. شاطىء الحرية والاستقلال بعد ان ظل يغذيها من دمائه الحارة طوال خمسة وعشرين عاما .

٢ ـ تنظيمات ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧

لم تعلن ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ عن نفسها بصورة اعتباطية مفاجئة كما حدث في ثورات ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ ، بل اتخذت طريقهـا الى التنظيم والنضوج تبعا للحوادث المتفرقة التي بدأت منذ الاحتلال الفرنسي عقب ميسلون • وقد بدأت هذه التنظيمات في كل منطقة من مناطق الثورة حسب طبيعة الارض والسكان والظروف الاجتماعيـة والموضوعية التي تخص الجماعات القائمة بالثورة •

وقد انبثقت تنظيمات ثوار جبل الدروز من اللجان التي تشكلت عقب حوادث الاستفزاز التي كان يقوم بها حاكم الجبل كاربيه • فقـد ألف سكان الجبل لجانا أولى لتوحيد الصفوف وازالة السخائم والاحقاد وسوء التفاهم ، وكانت اللجنة العليا برئاسة سلطان الاطرش ومركزها السويداء • وتفرع عنها لجان خمس في المجدل والشهباء وثعله وقصما وساله • وكانت أولى أعمال هذه اللجان ، هو تشكيل الوفد المعروف لمقـابلة المفوض السامي ، لينقل اليه مطالب سكان الجبل وتحقيق رغبـاته • وكانت تلك المقابلة السيئة من قبل المفوض السامي التي أدت الى تكهرب الجو واضطرام الغضب في نفوس سكان الجبل ، مما دعاهم الى عقد اجتماع اللجان برئاسة سلطان الاطرش ودرس الاوضاع على ضوء النتائج غير المرضية المترتبة عن تلك المقابلة المشؤومة • وقد خرجت نتائج الاجتماع بالنتائج التالية :

١ ـ بذل كل مرتخص وغال في سبيل الحرية والاستقلال •

٢ ـ مواصلة السعي في عدم قبول كاربيه لحاكمية الجبل •

٣ ـ تذكير كل عضو من الاعضاء بتنفيذ مقررات اللجان •

٤ ـ رجم وضرب كل عضو لا يعمل بهذه المقررات •

٥ ـ بذل كل عضو من الاعضاء دمه وماله في سبيل مساعدة أي فرد من السكان والسير على خطة معتدلة وقانونية •

ووصلت أنباء هذا الاجتماع وهذه المقررات الى المصادر الفرنسية ، فارسلت حملتها المعروفة لاعتقال سلطان باشا ، وكانت معركة الكفر التي أدت الى خذلان الحملة وابادتها • وكان من نتائج هذه المعركة ، ان اصبح اعلان الثورة أمرا واقعيا لا يحتمل التأجيل • فسافر الوطنيون في دمشق الى الجبل واسندوا قيادة الثورة الى سلطان الاطرش الذي اصدر على الأثر بيانه الشهير •

أما التنظيمات التعبوية والحربية ، فقد اتبعت في تشكيلها عوامل العشيرة او العائلة التي تملك كل منها راية تقليدية تحمل اسم وشرف هذه العشيرة أو العائلة • ولهذه الراية من القدسية والحصانة ما لكل المقدسات التي تعارف عليها الناس منذ وجدت الجماعات البشرية • وقد حققت هذه الراية في المعارك التي كانت تتقدمها انتصارات ونجاحات سطرت في سجلات الخلود •

أما تنظيمات ثوار دمشق والغوطة فقد اتخذت تشكيلات ادارية واستراتيجية وتكتيكية تبعا لطبيعة المنطقة التي تشملها الحركات ، ولعلاقة رجال العصابات بالاهالي الذين ينتمون اليهم • وقد عقد رؤساء العصابات اجتماعا خلال شباط من عام ١٩٢٦ قرروا فيه ما يلي :

١ ـ يؤلف من مجموع عصابات الغوطة وضواحي دمشق وحدة

تامة توزع على المناطق الحربيــة حسب العمليات الحربيــة واحوال المنطقة ۰

٢ ـ يؤلف مجلس عام يسمى « المجلس الوطني للجنــة الثورة السورية في الغوطة وضواحي دمشق » ينتخب أعضاؤه من قبل رؤساء الثوار بتفويض خطي ۰

٣ ـ تقوم كل عصابة بأعمالها الحربية في منطقتها برأي مشاورهـا العسكري أما الحركات العامة فتكون بقرار من المجلس ۰

٤ ـ تخصص كل عصابة مفرزة من رجالها لتوطيد الامن في منطقتها وتأمين المواصلات مع المناطق المجاورة لها ۰

٥ ـ يحمل رجال كل عصابة شارة خاصة بهم تميزهم عن سواهم ، ولا يجوز لأي مجــاهد ان يترك عصابتــه المسجل فيهـا ويلتحق بغيرها ۰

٦ ـ الجاسوس الذي يقبض عليه في احدى مناطق الثوار يحــال ـ بعد ان يضبط زعيم تلك المنطقة افادته الاولية ـ الى المجلس الوطني لينظر في أمره ويصدر بحقه الحكم النهائي ۰

٧ ـ يلاحق المجلس الوطني ملاحقة شديدة الذين يعتدون عـلى الاهلين ويدعون انهم من الثوار ، ويعاقبهم أشد العقاب،ويطرد من صفوف المجاهدين المجاهد الذي يأتي عملا يخرج به عن غرض الثورة النبيل ۰

٨ ـ صلاحية المجلس ووظيفته تحــدد في نظام تأليفه ومضبطــة انتخاب اعضائه ۰

وقد قسمت قيادة الثورة مناطق الحركات على الشكل التالي :

المنطقــة الاولى ـ اراضي باب السريجة وقبر عاتكة وما بين المزة وداريا، والحد بينها وبين المنطقة الثانية هو الخط الحديدي۰

المنطقة الثانية ـ تمتد من اراضي حي الميدان والشاغور وقرى ببيلا ويلدا
وعقربا حتى قرية العبادة عبادة ، والحد بينها وبين المنطقة
الثالثة هو نهر بردى .

المنطقة الثالثة ـ تمتد من حدود نهر بردى حتى جسر تورا والحد بينها
وبين المنطقة الرابعة هو الطريق بين دوما ودمشق .

المنطقة الرابعة ـ تمتد من حدود المنطقة الثالثة حتى مركز قضاءدوما.

المنطقة الخامسة ـ تمتد من حي الاكراد حتى عدرا .

المنطقة السادسة ـ من سهل القابون حتى صيدنايا ومن دمر حتى
الزبداني .

المنطقة السابعة ـ من عدرا الى النبك ، حيث تتصل بعصابات الشمال .

وكان المجلس الاعلى لقيادة الثورة مؤلفا من عشرة اعضاء منتخبين من قبل زعماء الثورة . وهو منقسم الى ثلاث لجان : مالية ، وحركات حربية ، ودعاية واستخبارات . وقد حدد نظام الثورة وظيفة كل من هذه اللجان ، وأوكل الى كل لجنة رئيسا مسئولا عن الاعمال وتنفيذها .

أما في المناطق الشمالية ، فقد اتصلت عصابات الشمال بعصابات القلمون ، واوجدوا لانفسهم منهاجا ، ونشروا سلطتهم الفعلية على المنطقة الممتدة من شمالي حمص حتى جبل الدروز ، واتخذوا النبك مركزا لهم . وقد ايدهم سكان تلك المناطق كل التأييد ، واخذوا بالانضمام الى صفوفهم. وهذا نص البيان الثوري الذي أقروه :

« نحن سكان جبل القلمون وأهالي قضاء النبك نتعهد بأن نخضع لاوامر الجيش الوطني ، ونقدم الرجال والمال والعتاد اللازم لاجل انقاذ الوطن من ايدي المستعمرين ، ولتحرير سورية كلها بحدودها الطبيعية واننا نهرق آخر قطرة من دمائنا في سبيل استقلالنا ونحافظ على نص المقررات الاخيرة . واننا نعلن عن

عزمنا على مكافحة العدو حتى النتيجة الحاسمة . ولكي نصل الى هدفنا المقدس فقد قررنا ما يلي :

١ ـ يعتبر كل وطني سوري عربي مجاهدا ، ومن يخالف يعتبر خائنا ويحاكم في المحكمة الثورية .

٢ ـ تؤلف في كل قرية هيئة او لجنة خاصة يعهد اليها بتنفيذ المقررات .

٣ ـ يجند من كل قرية مجاهدون بنسبة عدد نفوسها.
٤ ـ تكفل القرى مؤونة الجيش وعتاده حتى النهاية .
٥ ـ كل من يترك الجيش ويفر يعتبر خائنا ويعدم .
٦ ـ بمناسبة اعلان الجهاد المقدس ، فجميع الثارات والبغضاء القديمة تنسى وترفع من الصدور.»[١]

وقد أتى هذا البيان على ذكر اعمال واجبات الهيئة المشكلة في كل قرية من تدبير شئون الاعاشة والتموين ، والقاء القبض على الخونة والجواسيس وتنفيذ اعمال التجنيد .. الخ .

وبهذا استطاعت ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ ان تصمد في وجه العواصف، وان تقارع التحالف الفرنسي ـ الانكليزي الذي اتفق على قمع الثورة بجميع الوسائل التي تفتقت عنها عبقرية الاستعمار .

---

(١) السفرجلاني : تاريخ الثورة السورية ص ٣٥٣

٣ ـ تكتيك ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧

اتسمت اعمال الثوار بطابع حرب العصابات ، وكان هدفها القريب هو اثارة الرأي العام العالمي ضد اعمال الفرنسيين الوحشية ، والهدف البعيد هو الجلاء وتحقيق الاستقلال . وقد تميزت الاعمال الحربية بالتكتيك التالي :

١ ـ انهاك ارتال العدو قبل وصولها الى اهدافها . الامثلة : معركة المزرعة ، ومعارك الغوطة .

٢ ـ شل حركات العدو واضعافه اينما وجد . الامثلة : معارك المسيفرة والسويداء وبرزة وبعض انحاء الغوطة .

٣ ـ مهاجمة المراكز العسكرية المنعزلة ومحاصرتها لجذب القوات العدوة اليها ليتم تشتيت هذه القوات وتفكيك اوصالها . الامثلة : معارك المسيفرة والكفر وجسرين وكفر بطنا .

٤ ـ مهاجمة ارتال العدو اثناء زحفها وخاصة المؤخرات والجوانب ونقاط الاتصال . الامثلة :
معارك بصرى الحرير ، الميدان ، الغوطة الاخيرة ، اللجاه .

٥ ـ تجنب القتال الفعلي مع قوات عدوة متفوقة في العدد والعدة . امثلة : في كل المعارك تقريبا ، اذ لم يكن الثوار يسمحون للعدو ان يتمركز في مكان حصين ليفتح ضدهم جبهة واسعة .

وفي المقابل كان تكتيك القوات العدوة يتميز بطابع الحرب النظامية .

وكان هدفها قمع الثوار بأقصر وقت ممكن بغية استمرار الاحتلال بالقوة السياسية . والتكتيك الذي استخدمه العدو يتلخص بما يلي :

١ ـ اقامة مراكز عسكرية منتشرة في طول البلاد وعرضها ، غرضها توطيد السيطرة ومكافحةالنشاط الثوري من جهة ، واستخدامها كنقاط اتصال وتموين للحملات الزاحفة من جهة اخرى .

٢ ـ القضاء على الثورات في جميع المناطق بالتتابع .

٣ ـ تجمع القوات المتحركة على شكل حملات في ارتال متكاملة اداريا وتعبويا تحميها مقدمة ومؤخرة وجوانب آلية .وتتقدمها قوات سائرة قوامها الفرسان والمصفحات على مسافة أمن كبرى: أي لتكشف الطرق الى مسافات بعيدة . وتغطي مسير الحملات استطلاعات طيران متعاقبة .

٤ ـ تجنب المسير ليلا خوفا من الكمائن والمفاجآت .

٥ ـ مهاجمة تجمعات الثوار والتمهيد للهجوم عليها بالقصف الجوي والمدفعية .



٤ ـ العوامل السياسية والمعنوية في ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧

ان كلمات المندوب السامي ساراي الى الوفد الذي حمل اليه مطالب البلاد : « يظهر لي انكم تمثلون الفكر النير والعقيدة الحرة .. الخ »(١) تدل دلالة واضحة على أن الثورات السورية لم تنفصل ابدا عن العوامل السياسية التي دفعتها الى الظهور . وقد برزت القضية السياسية التي املت ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ الى اذهان الشعب وخلقت فيه وعيا وطنيا وقوميا جيدا ، كان المحرك الاساسي لكل الحركات والاعمال البطولية التي قام بها الثوار .

ولعل انذار غورو في تموز ١٩٢٠ ، خلق لدى الشعب السوري الذي ذهل بالمفاجأة وعيا سياسيا ، وجعله يفكر كثيرا بالظروف والاعتبارات العجيبة التي تملي على الاشخاص اتخاذ موقف من المواقف . وقد عرف زعماء الثورة ، ان الحرب الثورية هي امتداد للاعمال السياسية وان الثورة يجب ان تصحح اخطاء سياسية ايضا .

ومن بلاغات وبيانات القيادة العامة للثورة ، يمكن للانسان ان يتبين بوضوح دور الوعي السياسي لدى زعمائها الوطنيين :

« الى السلاح ايها الوطنيون تحقيقا لاماني البلاد المقدسة .. الى السلاح تأييدا لاماني الشعب .. ان مطالبنا .. الخ » (٢)

---

(١) السفرجلاني : تاريخ الثورة السورية ص ١٢٠

(٢) المرجع السابق ص ١٥٣

يقول منشور آخر صدر عن قيادة الثورة :

« لقد اوقدنا نار هذه الثورة الاستقلالية بعد ان رزحت البلاد تحت كابوس الاستعمار اعواما خمسا ثقالا ولسنا بتاركين من ايدينا السلاح ولا باغين من الفرنسيين سلما ولا صلحا حتى نبلغ بحد الحسام تمام المراد ... »

وفي فقرة أخرى يقول المنشور :

« فيا ايها العرب تعاقدوا بقلوبكم وتقلدوا سلاحكم وانشروا الويتكم واركبوا خيولكم وصابحوا العدو وخذوا عليه الطرق وارصدوا حركاته في المكامن .. »

وينهي المنشور نداءه قائلا :

« واعلنا الحكومة العربية الموقتة لتقوم بتدبير البلاد ريثما يتم طرد العدو عن الديار فيجتمع اذ ذاك مجلس تاسيسي منتخب ليعين شكل الحكومة الذي تختاره آلامة ورفعنا العلم العربي على السويداء وكافة المواقع التي أصبحت بأيدينا .. »

وتحت « الاستقلال يؤخذ ولا يعطى . الحرية والمساواة والاخاء » صدر عن القيادة الثورية البلاغ التالي :

« يا بني وطني .. لا تنافس في الاهواء . لاخصومات ولا أحقاد طائفية بعد اليوم . انما نحن شعب عربي سوري واحد . أمة عظيمة التاريخ نبيلة المقاصد ، نهضت تريد الحياة والحياة حق طبيعي وشرعي لكل الامم ، لقد قسم الاستعمار بلادنا ولكن وحدتها مبادىء حقوق الانسان واعلان الحرية والمساواة .. ان الاحتلال ليس قانونا شرعيا حتى وان اعترفت به الدول المستعمرة، انما القانون الشرعي هو صيانة استقل الشعوب وتقرير مصيرها بنفسها .. »

وكانت القيادة الثورية تجيب على كل منشور تلقي به الطائرات الفرنسية فوق القرى الآمنة او المناطق التي يسيطر عليها الثوار . وكانت تقارع الحجج وتفند الاكاذيب وتفضح الادعاءات : « لقد علمتنا التجارب الماضية ان عهودكم قصاصات من الورق ليس لها أي ثمن » وكانت ترفع من معنويات الشعب ، وتلفت انظاره الى الخدع والاحابيل التي كان الفرنسيون يستعملونها لتفتيت اوصال الثورة « اننا ما دمنا نشك بالفرنسيين فلا يمكن ان نثق بهم » .

وهذه رسالة من الشهيد حسن الخراط الى المندوب السامي تفسر نفسها بنفسها :

« .. أما سياسيا فانني كللت شرف العرب بما هو أهله واستحسن فعلي العالم كله لحسن ادارة رجالي ومحافظتهم على اخواننا المسيحيين والاجانب خصوصا . وعلى الضعفاء عموما . واما انت ايها المندوب السامي فقد نحرت شرف فرنسا وصوبت قنابلك الى قلبها بدلا من قلبنا .. انت ممثل فرنسا وانا حارس دمشق .. أنا أسرت جندك أسرا شريفا وانت ضربت الشيوخ والنساء والاطفال ضربا دنيئا .. انا حافظت على الآثار القديمة وانت هدمتها وحرقتها يا جننار (١) يا ممثل فرنسا . كان بودك ان تجعلها حربا دينية اسلامية وتفرق بيننا وبين اخواننا ولكن الله أبى ونحن ارادتنا من ارادة الله فأبينا .. لقد ضيعت رشدك وخربت الاحياء الاسلامية على رؤوس اهليها آملا أن أقابلك بالمثل ، وقد فاتك اننا عرب ونحافظ على الجار .. انت جننار وقائد الفرق والجيوش ، وانا حارس بسيط ، انا جمعت عقلي وانت ضيعت رشدك .. الخ » (٢)

---

(١) تعبير شعبي للفظة جنرال .

(٢) السفرجلاني : الثورة السورية ص ٩٢٩

وقد قامت القيادة الثورية بدور الدعاية من اجل الثورة ، على بساطة اسلوبها وضعف امكانياتها ـ على خير ما يتطلب الواجب . فقد استطاعت ان تتصل بالشعب مباشرة ، وأن تعرفه على مطالبيه وحاجاته ، وان تنقل هذه المطاليب والحاجات الى السلطات الحاكمة ، وان تقنع افراد الشعب بأن المستعمرين لا يمكن ان يحققوا رغبة الشعب بالحرية والاستقلال ، فعلى ابناء الشعب اذا كانوا مصممين على ذلك ان يأخذوا مطالبيهم بحد السيف ونار البندقية : « الاستقلال يؤخذ ولا يعطى .. قم واحصل على حريتك بيدك .. الخ » .

وقد نجحت الثورات السورية بأحداثها اجهزة لحفظ أمن الثورة ، فكانت تصون سرية أعمالها ، وتكافح الخونـة والجواسيس ، وتضرب بشدة على ايدي العابثين والمستغلين وكانت تحصل على كافة المعلومـات المتعلقة بتحركات العدو قبل ان تحدث ، فتقابل خططه بخطط معاكسة ، بحيث تربكه وتجعله لا يدري من اين يتلقى اللطمات . وبالاجمال ، فقد توفرت لثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ جميع الاسس التحضيرية اللازمة لانجاح الثورة . واذا كانت لم تحقق غايتها بصورة عاجلة ، فذلك لأن المعارك كانت غير متكافئة ، ولأن قواعد الثورة كانت ـ على صغر رقعة البلاد ـ قريبة دائما من ضربات العدو ، خاصة بعد اتفاق الفرنسيين والانكليز على منع الثوار من الالتجاء الى الاراضي العربية المجاورة . وهناك اعتبـارات هامة لعبت دورا بارزا في هذه القضية ، وهذه الاعتبارات تتلخص بعاملين رئيسين :

١ ـ العامل الخارجي :

كانت الحرب المعنوية التي استخدمها الفرنسيون ـ بالاضافة الى بطش حكامهم وقضاء محاكمهم وقوة اسلحتهم ووفرة عددهم وعتادهم وتحليق وقصف طيرانهم وغير ذلك ـ كانت هذه الحرب ذات تأثير كبير عـلى

مجرى أمور الثورة وعاملا هاما في سبيل الحد من تأثيرها وسلامة تطورها .
فقد عمدت السلطات الفرنسية ـ طول ايام الثورة وساعاتها ـ الى طبع المناشير الداعية الى التخاذل والكف عن القتال ، حاملة التهديد والوعيد ، ونشر الاكاذيب وبذر بذور الفتن وحض السكان على الانفضاض عن الثوار ، ممنية اياهم بالسعادة والحرية والسلام . وكانت هذه الدعايات تصل الى السكان بطريقة اسرع مما يصل مقابلها من القيادة الثورية لاختلاف الطريقة التي تنتقل بها ، فتحدث بلبلة في النفوس قبل ان يطلع الناس على الحقائق والبينات الصادرة عن قيادة الثورة .

أما الاعمال والفظائع الوحشية التي ارتكبها الفرنسيون ابان الثورة ، فستبقى أمد الاجيال لطخة سوداء قذرة في جبين الاستعمار في العالم . كان الفرنسيون يسوقون حملات انتقامية على السكان الآمنين ، وقد مر في بلاغات قائد الثورة ورسالة الخراط ذكر لذلك . ثم انهم لم يكلفوا انفسهم في مرة من المرات دفن الموتى او الشهداء ، بل انهم كانوا يحملونهم معهم الى المدن حيث يعرضونهم في الشوارع والساحات العامة ، بعد ان يشوهوا من معالمهم ، ويمسخوا من صورهم ثم يجبرون السكان على الخروج من منازلهم ليشاهدوا نماذج عن حضارة فرنسا « العظيمة » التي جاءت لتلقنهم اصول الحياة في القرن العشرين . أما اعمال التدمير والتحريق والقصف البري والجوي فلم تكن غايتها قتل الناس بالقدر الذي كانت ادخال الرعب والفزع الى نفوسهم .

ويقول « الكتاب الذهبي لجيوش الشرق » مفاخرا بأعمال الطيران :

« لما تفجرت ثورة ٢٥ كان فيلق الطيران التاسع والثلاثون مشتملا على ثمانية اسراب فحاربت هذه الاسراب دون ان تلم براحة وانصرفت الى العمل بنخوة واقدام توصلت معهما الى انجح المفاعيل ، فأنجدت المراكز المحاصرة ، وواكبت حملات الجيوش وساندتها

وكثيرا ما واقعت العصاة بقنابلها المجردة » • «وعندما حوصرت السويداء في ٢٢ تموز نقلت الطائرات الامداد الى حاميتها طوال مدة الحصار وقامت بمائتي وثمانين مهمة ، وما كانت هذه المهمات المحفوفة بالمخاطر لتنقضي بدون خسارة • »

ومما جاء في هذا المجال ايضا :

« القت على مائة فارس من العصاة ٤٧٠٠ كيلو غراما من القنابل ، وخلال ثلاث ساعات قامت بسبع وعشرين غارة • وفي حملة غاملان رافقته ٣٩ طائرة • وفي دمشق انجدتنا الطائرات خير نجدات فقد •• الخ »

ولعل أبرز ما يميز العامل الخارجي في قصور الثورة السورية هو : نطاق السيطرة الاستعمارية العامة على العالم آنذاك وعلى العالم العربي المجاور خاصة • ومن مظاهر ذلك اتفاق الفرنسيين والانكليز على عدم السماح للثوار باللجوء الى الاردن أو العراق • ففي كل الحالات نجد أن المستعمرين يتفقون دوما على حساب الشعوب ، ويدعمون بعضهم بعضا • واذا اختلفوا ، فانما يختلفون على اقتسام الغنائم ومناطق النفوذ دون ان يوافقوا على تحرير أي شعب من الشعوب • فلو قدر للثورة السورية ان تطرد الاحتلال الفرنسي بصورة فورية وعاجلة لكان ذلك خطرا محيقا بالاحتلال الانكليزي في العراق والاردن وفلسطين • وهذا ما يفسر المساومات الامبريالية الانكلو فرنسية والاميركية من وراء ظهر الثورة السورية •

٢ ـ العامل الداخلي :

لم يكن في مقدور ثورات ٢٥ ـ ٢٧ ان تتجاوز حدودا معينة ، وذلك نتيجة اعتبارات داخلية كان من الصعب التغلب عليها • ولعل التطورات

والتجارب الثورية التي حصلت بعدها في العالم العربي كثورة الجزائر مثلا وفي العالم الخارجي كثورة كوبا تؤكد ذلك تأكيدا واضحا .

فبعثرة العمل الثوري في ثورات ٢٥ ـ ٢٧ وتجزؤه ، الناتجان عن طابع المجتمع العربي في ذلك الحين جعلا هذه الثورات تقف عند حد غير حاسم . فقد كان المجتمع المدني حرفيا وتجاريا متخلفا ، وكان المجتمع الريفي نصف اقطاعي وعشائري متخلف أيضا . من اجل هذا كان المجتمع العربي في سورية قاصرا عن جعل العمل الثوري القائم يتحول الى ثورة وطنية واضحة الاهداف والخطوط وقابلة للتطور مع الاحداث . وكان من نتيجته :

ا) اضطرار القيادة الثورية الى تقسيم عناصر الثورة الى عصابات متعددة يصعب قيادتها او السيطرة عليها . فمثلا كانت العناصر الثورية في دمشق وحدها مقسمة الى سبع عصابات : (مسجد الاقصاب ، قبر عاتكة وباب السريجة ، قبر الست ، مأذنة الشحم ، سوق القطن ، الميدان ، وعصابة حسن الخراط) . وكان على كل عصابة ان تقوم بالاعمال الحربية بمنطقتها وحدها . وان يحمل رجال كل عصابة شارة خاصة بهم تميزهم عن سواهم دون ان يسمح لاي مجاهد بأن يترك عصابته المسجل بها ويلتحق بغيرها . وان توزع مناطق العمليات على كل عصابة توزيعا غير تكنيكي يكفل تضافر الجهود والقوى لثبات الثورة وتلاحم اعضائها .

ب) عدم بلوغ القيادة الثورية مستوى النظرية الثورية العامة . علما بأن أية ثورة بحاجة الى نظرية شاملة عسكرية وسياسية واقتصادية لكي تبلغ اهدافها .

ح) عدم وجود تنظيم سياسي شعبي واسع يدعم الثورة ويعبىء لها القوى الشعبية باستمرار وحسب الحاجة .

د) عدم ادراك قيادة الثورة وبالتـــالي جماهيرها لاهمية دعم العـــالم الخارجي والقوى التي يمكن ان تدعمها في ذلك الحين بالرغم من أنه حصلت بوادر تأييد في انحاء مختلفة من العالم للثورة السورية •

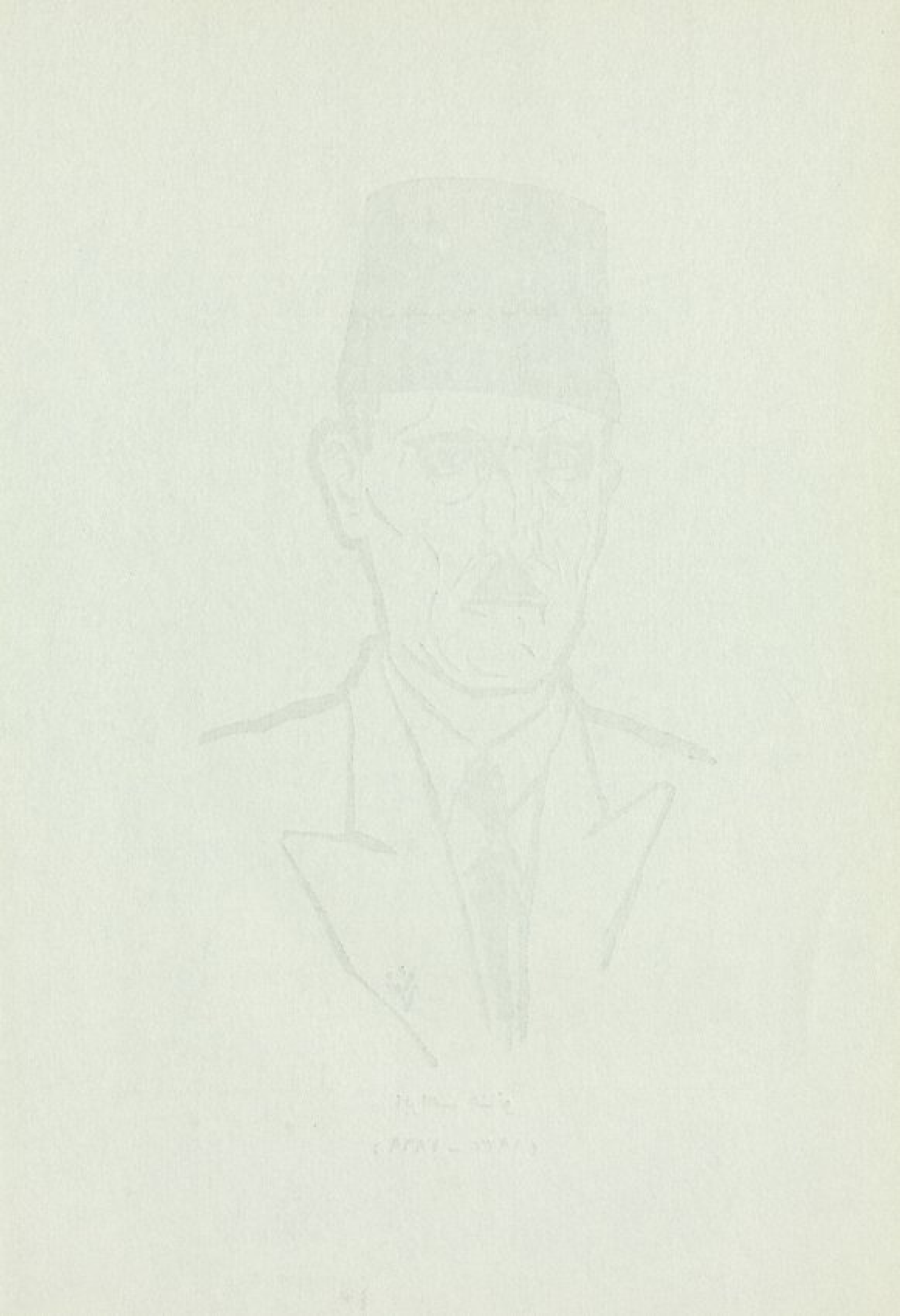
هـ) وجود تباين واسع بين مستوى الوعي وأساليب العمل لدى مختلف الفئات المشتركة بالثورة وافتقارها الى أداة فعالة لتوحيد الجهود بين هذه الفئات المتباينة •





ابراهيم هنانو

(١٨٦٩ – ١٩٣٥)



٥ ـ خلود الثورات السورية ونتائجها البعيدة :

من الضروري ان ننطلق من هذه الكلمة التي قالها موريس برنو احد جهابذة الاستعماريين الفرنسيين ، لندرك مقدار الخطر الذي كان يتهدد سورية العربية من وراء الانتداب الفرنسي ، ولنعرف قيمة النتائج التي حققتها الثورات السورية الخالدة .

« أنا من الذين يرون ان الاستغناء عن باريس اسهل من الاستغناء عن سورية ، لان الاستغناء عن سورية معناه الجلاء عن افريقيا الشمالية والشرق الاقصى وترك الكرامة والنفوذ الفرنسي تحت رحمة المقادير .. » (١)

اذن لقد دخل الفرنسيون الى سورية ليبقوا فيها الى الابد . فالفرنسيون لايمكنهم الاستغناء عن عاصمتهم ، وسورية ـ في نظرهم اثمن من باريس ـ فكيف خرج الفرنسيون اذن من « فردوسهم المفقود » دون قيد او شرط او معاهدة ـ حتى معاهدة « صداقة » ـ ودون ان يكون لديهم أي أمل بالعودة او « تكحيل العيون » ...؟ تجيبنا على هذا السؤال الاحداث المتتالية التي اعقبت الثورات السورية من ١٩١٩ حتى ١٩٤٥ . وقبل ان نسرد تلك الاحداث ، علينا ان نذكر الاستعمار الفرنسي والانكليزي والبرتغالي مايزال منيخا بكلكله على اجزاء متعددة من قارتي آسيا الغربية وافريقيا منذ مئات السنين ، وبالامس فقط تحررت غووا الهندية بعملية عسكرية بعد احتلالها ،

---

(١) المراحل ج ١ ص ٤٠

وسط الهند الهائلة بمساحتها وتعداد سكانها ، اربعمائة وخمسين عاما . ومسألة ايريان الغربية التي هي جزء من أندونيسيا والمحتلة من الهولنديين ، ما تزال حتى الآن قيد البحث والمفاوضات . ترى هل يمكننا ان نتصور أن سورية كانت ستبقى مستعمرة فرنسية مائة او جزءا من مائة عام ..؟ وتجيبنا ايضا على السؤال الجديد الاحداث المتالية التي استمدت وقائعها من الثورات السورية المجيدة .

خلال هذه الاحداث ، ونتيجة الكفاح الشعبي غير المنقطع ، المستمد من تاريخ الثورات السورية ، تنبه الرأي العام العالمي عندما وصلت مشاهد الشعب الى عينيه واصواته الى أذنيه ، وبذلك تحققت الاهداف القريبة للثورات السورية .

فقد ذكر الكاتب العالمي هو كينغ في كتابه « روح السياسة العالمية » عام ١٩٣٠ فيما يتعلق بسورية ما يلي :

« ان انتداب فرنسا على سورية هو مشروع برهنت الظروف على صعوبة تطبيقه .. لان كلمة انتداب تتضمن معنى وجوب ارضاء غايتين في آن واحد: الدولة المنتدبة والدولة المنتدب عليها فهل يا ترى حقق الانتداب هاتين الغايتين ..؟ » (١)

ومما قاله جورج فوشيه في هذا الصدد :

« .. واذا تصفحنا اعمال فرنسا في سورية من الوجهة الاقتصادية ، نجد ان القسم الاكبر من البلاد يمر في حالة من البؤس والشقاء . واذا نظرنا الى الوجهة السياسية وجدنا التناحر بين ممثلي الدولة المنتدبة والبلاد المشمولة بالانتداب يزداد عما كان عليه في صدر الاحتلال . » (٢)

---

(١) المراحل ج١ ص ٣٠
(٢) المرجع السابق : ج١ ص ٣٠

وبعد ان يستعرض الكاتب فظائع الفرنسيين في الحرب الوطنية يستطرد :

« **وكان من نتائج احتلال فرنسا لسورية ولبنان مدة ست سنوات ان بذلت هدرا اموال كثيرة ودماء غالية وجهود عظيمة وكان اخفاقا ادبيا وماديا وخيم العاقبة** » .

وقال بول بونكور ١٩٣٥ :

« **.. ويبدو ان الكثيرين غير مطلعين على حقيقة الانتداب ونتائجه المؤسفة . فما الذي استفادته فرنسا من انتدابها على سورية ؟. بل ما الذي تستفيده الان من هذا الانتداب ؟. لقد انفقت فرنسا مليارات من الفرنكات لتامين نفقات الاحتلال ، وهي لا تزال تحمل الخزينة بضعة ملايين كل عام ، رغم عجزها عن تامين نفقات الجيش في تلك البلاد . ثم يجب ان نسرد المتاعب التي تلقاها وما تزال تجدها في سورية وما تؤدي اليه هذه المتاعب من التأثيرات الخارجية ..** » (١)

وكتب رينه دابرياس في جريدة « الاستعماريين والجيش الاستعماري »

في ايلول ١٩٢٦ :

« **ان دوائر الاستخبارات في الشرق ـ وهي معروفة عند الكثيرين بانها لا تتقيد بالمبادىء التي ترتكز عليها اي جمعية من جمعيات العالم المتمدن ـ يجب ان تنبذ نبذا اذا بقيت على الشكل المؤاخذ بموجبه . فالشرق يختلف عن المغرب الاقصى وقد كان يجب ان تلغى في هذا الاخير دوائر الاستخبارات التي يسمونها الدوائر العربية . ويؤكد العارفون انه اذا جرى تحقيق دقيق في خزائن اوراق الاستخبارات اكتشفت فيها عجائب وغرائب يندي لها الجبين . فهذه الدوائر عاجزة عن الوقوف على الحقائق**

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٣٢

ومعرفة الاشخاص والحوادث معرفة تامة ، وهي تستند الى تقارير وافادات تنتهي اليها بدون ان تستطيع تأييد صحتها ، وتنظم بها تقارير ترفعها الى المراجع الايجابية وقد فاتها أن كل ما بني على الفاسد فاسد •• »[1]

وقال هنري دو شانبون سنة ١٩٣٣ :

« لقد مثل فرنسا في سورية منذ عام ١٩١٨ حتى اليوم سبع من ابرز الشخصيات وهم : جورج بيكو ، غورو ، فيغان ، ساراي ، ده جوفنيل ، بونسو ، واخيرا الكونت ده مارتيل • وقد حاول هؤلاء جميعا حل القضية السورية ولكنهم اخفقوا اخفاقا ذريعا •• فده مارتيل بعد ان خلق جوا من الارهاب ، اراد ان يحمل المجلس النيابي والرأي العام السوري على القبول بتوقيع معاهدة لخمس وعشرين سنة[2] •

ويقول الكونت سفورزا في جريدة ال « ديبش » في شباط ١٩٣٥ عن الانتداب :

« •• فالانتداب الفرنسي ـ اذا نظرنا اليه وهو في مكانه ـ نجده يشبه كثيرا النظام الذي كانت تسير عليه الامبراطورية الرومانية •• نفس جيش الاحتلال والمذاهب الدينية على شاطىء البحر ، والبدو في الداخل ، والتناوب بين الحملات العسكرية والاستقلالات المحلية • فاستقلال الدروز والعلويين والحلبيين •• الخ متى كان حقيقيا وواقعيا ••؟ »[2]

ويقول لونغيه في كانون الاول ١٩٣٤ :

« كل اولئك الذين يرقبون بحرارة السياسة الشاذة المتبعة في سورية كانوا يهابون التحدث عن الاخطاء •• والآن هل يجب احاطة الرأي العام ببعض

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٣٦

(٣) المرجع نفسه ص ٣٦

هـذه الحوادث اخشى ان ينعتوني ببغضي لفرنسا اذا حاولت ذلك ٠٠ »(١)

ان اقوال هؤلاء المراقبين السياسيين واكثرهم من الفرنسيين تدل جيدا على أن مفعول الثورات السورية وخلق الوعي الشعبي لدى الجماهير قد أحدث أثره المطلوب في الرأي العام العالمي ، وبذلك حقق الكفاح الشعبي في سورية غايته الاولى ٠

وقد افهمت الثورات السورية ومن بعدها الوعي الوطني لدى الشعب ان سورية لا يمكنها ان تقبل انتدابا ولا احتلالا ولا وصاية اجنبية ٠ وبرغم الصعوبات والمآسي التي تعرضت لها ، فانها استطاعت ان تحمل فرنسا على الاعتراف بمطالبها الاولية ، ولكن سياسة التعاون والتفاهم التي اتبعها السياسيون السوريون في الفترات التي اعقبت الثورة السورية جعلت الفرنسيين يلجأون الى عملية الاخذ والرد والمماطلة والتسويف ٠ وقد مرت هذه الفترات بالادوار التالية :

١ ـ فترة ١٩٢٨ ـ ١٩٣٢

في بداية هذا الدور وعد المفوض السامي بونسو بان يتم سن قانون سورية الاساسي بملء الحرية وضمن الاتفاقات الدولية ، وتسلم الشيخ تاج الدين الحسني في شباط ١٩٢٨ وزارة موقتة ، مهمتها الاشراف على انتخاب المجلس التأسيسي ٠ وأتم المجلس المنتخب وضع مشروع للدستور مؤلف من مائة وخمس عشرة مادة صدقه الاعضاء ـ رغم رضاء السلطات الفرنسية عن اكثريتهم ـ بالاجماع ٠ ولكن المندوب السامي اعترض على المواد الست المتعلقة : بالوحدة السورية ، وحقوق رئيس الجمهورية ، والعفو الخاص عن المحكومين ، وحل المجلس النيابي ، والتمثيل الخارجي ، وتنظيم الجيش السوري ٠ فاخذت الجمعية بسياسة التساهل ، وقررت ايقاف تنفيذ هذه

---

(١) المراحل ج١ ص ٤٤ (٢) المراحل ج ١ ص ٤٥

المواد الست ، حتى أن احد اعضائها علق على ذلك قائلا : « لقد تساهلنا حتى نكاد نقع في الخيانة •• » • ومع هذا فقد وجد الفرنسيون سببا لتعطيل اعمال الجمعية وتعليق جلساتها الى اجل غير مسمى • وعلى الاثر قامت المظاهرات الشعبية احتجاجا على هذا التصرف في حين اخذت السلطات الفرنسية تركن الى سياسة الالهاء ، فاعلنت عن اتفاقها مع حكومة الحسني على تنفيذ بعض المشاريع العمرانية ، واستسلمت حكومة الشيخ للمنتدبين الى ابعد الحدود ، فاضطهدت الصحف الوطنية وحرمت الاجتماعات وحظرت على الموظفين الاشتغال او التكلم في السياسة • واستغل الفرنسيون هذه الفرصة ، فاعلنوا دساتيرهم الخمسة : دستور لكل دولة من دويلات سورية المجزأة • وادرك الشعب ان لا فائدة ترجى ، فقامت المظاهرات من جديد ، واصطدم المتظاهرون بقوات الامن وسقط بينهم عدد كبير من القتلى والجرحى • وانتهت هذه الفترة باخفاق سياسة التعاون والتفاهم مع الفرنسيين ، بعد ان دفع الثمن ضحايا جديدة من دماء الشعب الذي لقنته الثورات السورية درسا في الكفاح الشعبي •

٢ ـ فترة ١٩٣٢ ـ ١٩٣٩

كانت هذه الفترة مليئة بحوادث الكفاح الوطني والشعبي ، فقد ثارت فيها المئات من الاضطرابات والمظاهرات ، استشهدت فيها اعداد كبيرة من ابناء الشعب ، وزج بآخرين في السجون ، واضربت المدن السورية اياما طويلة • وكانت الهيئات السياسية في هذه الفترة ، تسعى لعقد معاهدة مع فرنسا على غرار المعاهدة التي عقدت بين بريطانيا والعراق • وقد برهنت الاحداث على ان « الايجابية » التي حاول السياسيون اتباعها مع السلطات الفرنسية قد باءت بالفشل • وفي هذه الفترة ايضا تآمرت فرنسا مع الاستعمار العالمي واقتطعت من جبين البلاد لواء الاسكندرون فاصابت الوطن بجرح عميق لن يندمل الا باسترداده • وقد القى الشعب السوري مسئولية ضياع

اللواء على سياسة التفاهم مع الاستعمار وعلى موقف الحكومة الاستسلامي ، وتهاونها في الحفاظ على مقدسات البلاد واراضيها الاصلية • ودفع الشعب السوري من دمائه الثمن لاسقاط حكومات هذه الفترة ، ولجعل قضية الاسكندرون قضية عالمية لا يمكن التغاضي عنها مهما تقلبت الظروف والاحوال •

٣ ـ فترة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥

خضعت سورية خلال السنتين الاولين من هذه الفترة للحكم العسكري الفرنسي المباشر نظرا لظروف الحرب العالمية الثانية التي اندلعت بين المحور والحلفاء • وكان نتيجة لذلك ان توقف النشاط السياسي الوطني ، وراح الشعب العربي في سورية يحبس انفاسه منتظرا نهاية الحرب فيما انشغل السياسيون السوريون في خصوماتهم ومشاكلهم الشخصية ، وراحوا يصفون بعضهم بالاغتيالات ودعايات الفضح والتشهير ، وأخذ كل فريق يثبت بالادلة والبراهين صلة خصمه بجهة من جهات الاستعمار والتعاون معه • اما قادة الثورة ـ الذين كانوا على قيد الحياة ـ فكانوا من منافيهم خارج البلاد يرقبون الاوضاع ويوجهون الجهود لصالح القضية الكبرى ••

وحدث ان سقطت باريس بيد الالمان النازيين واصبحت سورية تابعة لادارة الحكومة « الفيشية » فالتحق بعض الفرنسيين الموجودين في سورية بقوات ديغول في فلسطين ، التي قدمت بمساعدة الانكليز من شمال افريقيا • وفي ٨ حزيران ١٩٤١ هاجم ديغول مع الجيوش البريطانية سورية لاستخلاصها من الفيشيين ، فخسر البريطانيون والفرنسيون في هذا الهجوم ما يربو على ٤٥٠٠ قتيلا وجريحا • ونتيجة لذلك اذاع الجنرال كاترو باسم ديغول بيانا على الشعب السوري جاء فيه :

« ايها السوريون الكرام •• اننا قادمون اليكم لانهاء عهد الانتداب واعلان حريتكم واستقلالكم • وستصبحون من الآن فصاعدا شعبا حرا ذا سيادة ،

وسيكفل استقلالكم وسيادتكم بموجب معاهدة توضح العلاقة المتبادلة بيننا وبينكم • »[1]

كما أن السفير البريطاني في القاهرة ، نشر باسم حكومته تأكيدا رسمي لهذا البيان ، وقد جاء فيه :

« لقد فوضتني حكومة صاحب الجلالة البريطانية ان أصرح بانها تؤكد ضمان الاستقلال الذي وعد به الشعب السوري من قبل الجنرال كاترو وانها تشترك فيه •• »

وعند انتهاء الحرب بانتصار الحلفاء وانهزام المحور ، قام الشعب السوري مطالبا باعلان استقلاله ، تحقيقا للوعود التي قطعها الفرنسيون والانكليز على انفسهم • فتبين ان هذه الوعود لم تكن غير تصريحات للاستهلاك المحلي ، وكانت الغاية منها هي السماح للجيوش الانكليزية والفرنسية بدخول البلاد دون مقاومة •

واغتنم الفرنسيون فرصة المهرجانات التي اقيمت في سورية باعلان النصر ، وقد اشترك فيها الشعب السوري على اوسع نطاق ، فراحوا يستفزون الاهلين بشعارات ونداءات لا تخدم الديمقراطية او السلام ، وتنكر على الشعب السوري الدور العظيم الذي لعبه في خدمة الحلفاء في سبيل القضاء على عدو البشرية والحرية والسلام • ومما زاد في خيبة امل الشعب السوري هو انزال الجيوش الفرنسية في السواحل وضمن البلاد ، بدلا من اجلائها او تخفيف اعدادها •

وعندما طالب رئيس الوزراء بصورة رسمية تنفيذ الاتفاق الذي جرى بينه وبين الجنرال بينيه المندوب السامي ، بخصوص تسلم نصف الجيش السوري فور دخول الحلفاء الى دمشق ، والنصف الآخر عند عقد الهدنة

---

(١) مذكرات ليدي سبيرز

مع المانيا ، اجابت السلطات الفرنسية بأنها لا تستطيع تنفيذ هذا الاتفاق الا بعد توقيع معاهدة تضمن للفرنسيين مصالح في الاراضي السورية ، وكانت هذه المصالح تتضمن انشاء قواعد برية وبحرية وجوية في الاراضي السورية، وميزات تجارية واقتصادية وثقافية . وعندما علم الشعب السوري بهذه الشروط الجديدة ، اعلن « الرفض » من جديد . وكانت أحداث أيار ١٩٤٥ وكانت ثورة الشعب والجيش التي أدت الى طرد الاستعمار الفرنسي والانكليزي معا ، وتحقيق الجلاء دون قيد او شرط . وبهذا انتهت صفحات الكفاح الشعبي المظفر عندما هرع الجيش السوري الى احضان مواطنيه وانضم معهم هاتفا :

« عاش الشعب السوري العظيم .. عاش تكاتف الجيش والشعب »



الفصل العاشر

دور الجيش السوري في مكافحة الاجنبي وتحقيق الجلاء

بالقدر الذي يكون فيه المواطن متحصنا بمستوى معين من الثقافة والنفوذ والشخصية ، يكون الشعور الوطني لديه ـ اذا كان يحمل هذا الشعور ـ قويا ومكتملا • والعسكريون عادة يختلفون عن المدنيين بأنهم اتقنوا صناعة الحرب • وصناعة الحرب عبارة عن ثقافة وتدريب خاص ، تؤهل صاحبها لان يقوم بدور الجندي بكل ما تحمله هذه الكلمة من المعاني والاهداف •

وتتمثل في عسكريي أي شعب من الشعوب الصفات والمقومات التي يملكها هذا الشعب • وعند الطوارىء والملمات تتجه الانظار اليهم ليحققوا ما ينادي به الشعب من مطالب ورغبات باعتبارهم يحملون السلاح ويعرفون كيف يستخدمونه ، وبذلك يستطيعون ان يلعبوا دورا فعالا • هذا من الناحية المجردة • ولكن هذه الاعتبارات تنحرف احيانا عن الواقع ، وذلك عندما تكون الدولة المسيطرة على جيشها استعمارية او يكون الجيش اداة بيد فئة تعمل بوحي الاجنبي او المستعمر •

واذا رجعنا الى تاريخ العسكريين السوريين من تاريخ كفاح شعبهم ، نجد انهم ـ الوطنيون منهم ـ لم يشاركوا فقط في هذا الكفاح ، بل كانوا

من السباقين في صفوفه • وهـذه الحقيقة لم تؤخذ من الوجهة النظريـة المجردة ، بل من تاريخ الاحداث التي توالت على الوطن العربي خـلال حقب التاريخ •

ويمكننا تقسيم الادوار الوطنية التي شارك فيها العسكريون السوريون ـ خاصة ـ والعرب عامة ـ باعتبار أن القضية السورية هي جزء من القضية العربية ـ الى المراحل التالية :

١ ـ مرحلة الاحتلال التركي :

من المعروف ان السلطنة العثمانية كانت خاضعة لنظام الحكم المطلق ، فقد استبعد الشعب ـ الرعية ـ عن المشاركة في شئون الحكم ، وحيل بين الشعب العربي وبين التفكير بماهيته وقوميته بحد السيف والمشنقة • ولكن العسكريين ـ الذين كانوا يتلقون تعليمهم ودراساتهم في استنبول ـ كانوا اسرع الى ادراك الوضع الحقيقي من المدنيين الذين لم يغادروا بلادهم • وذلك لاختـلاطهم هناك بعنـاصر متفتحة الاذهان من الطـلاب العرب ، ولاحتكاكهم بعناصر أجنبية تحمل طابعا مميزا يختلف عن الطابع العثماني الرتيب •

وعلى هـذا كانت اولى الجمعيـات الثورية العربيـة التي تشكلت في استنبول تضم في صفوفها اعضاء من العسكريين ، وهناك جمعيات اخـرى تشكلت من العسكريين انفسهم • وكانت أهم هذه الجمعيات : « الجمعية العربية » السرية التي كان أول اهدافها ، عدم استخدام الوحدات العسكرية العربية الا ضمن حدود بلادها • ومن الواضح ما يكمن وراء هذا الهدف من غاية بعيدة المدى • كما اشترك في « جمعية الاتحاد والترقي » الشهيرة عدد كبير من الضباط العرب السوريين ، وقد انتسب اليها فيما بعد يوسف

العظمة • وقد أمل العسكريون السوريون من هذه الجمعية ان توفر للعرب حريتهم المسلوبة ، وتحفظ لهم كيانهم القومي ، وتفسح لهم مجالا في المشاركة في تحمل اعباء الحكم والمساهمة فيه ، الى ان افتضح امر هذه الجمعية فانفصل عنها العرب وأسسوا لانفسهم « حزب اللامركزية » الذي اتبع في انظمته ـ بوحي من العسكريين ـ نظاما عسكريا من الناحية الانضباطية والكتمان الشديد •

وفي عام ١٩١٣ اسس العسكريون العرب « جمعية العهد » وصاغت برنامجها بصيغة ولهجة عسكريتين ، كما اقتصرت على اعضاء عسكريين فقط ، زيادة في الحرص على النظام والكتمان وتنفيذ البرامج المقررة • ولعل « الجمعية العربية الفتاة » التي تأسست عام ١٩١١ من سبعة شبان سوريين وواحد عراقي ، استطاعت ان تحقق بعض أهدافها العربية والثورية ، وان تجعل مسألة الثورة العربية ضرورة قومية لا محيص عنها • ورغم ان ديوان جمال باشا الحربي العرفي اطاح بعدد من أعضائها ، ونقل بعض الضباط العرب الى جهات بعيدة ، وابعد الافواج العربية الى جبهات القتال لاحباط مشاريعها الثورية ، فقد استطاعت ان تبرز الثورة العربية الى الوجود عام ١٩١٦ بقيادة الشريف حسين بن علي امير مكة •

ومما قاله جمال باشا عن هذه الجمعية وخطورتها :

« اذا استطاعت هذه الجمعية باعضائها العسكريين ان تحدث تمردا في صفوف الجيش لما كانت لدي وسيلة لمنع الثورة وتسكينها •• »(١)

ومما قاله ايضا بهذا الموضوع :

« يجب علينا ان لا نتهاون بهذه البوادر التعصبية

---

(١) حرب فرزت : الحياة الحزبية في سورية ص ٨

للفكرة العربية ، علينا الا ندع الضباط العرب يستريحون من العناء ويتحتم دائما ابقاؤهم خارج البلاد » •

ويجب الا تغرب عن البال مسألة الباخرة التي اغرقها السلطان عبد الحميد في مضيق الدردنيل في اوائل القرن العشرين ، وكانت تضم بين ركابها عددا من الضباط وطلاب الضباط العرب الذين يتحدثون في احدى حجراتها عن حلول الاون للتخلص من النير العثماني البغيض •

٢ ـ مرحلة الحرب العالمية الاولى :

في الحرب العالمية الاولى كانت تركيا ـ باعتبارها دولة مستعمرة ولها اليد الطولى بهذا المضمار ـ طرفا من الاطراف المشتركة بالحرب • فقد تحالفت مع المانيا والنمسا من اجل الابقاء على مستعمراتها والحصول على مستعمرات جديدة ، وكانت الحرب بمجملها هي حرب من اجل المستعمرات •

وقد استطاعت الجيوش التركية والالمانية في شباط **١٩١٥** من الوصول الى ميناء العقبة والاتصال بقناة السويس ، وكان العسكريون العرب ـ ضباط ورتباء وجنود ومجندون ـ يشكلون جزءا كبيرا من هذه القوات تحت القيادة التركية الالمانية ، ومن الطبيعي ان يكون شعور هؤلاء العسكريين تجاه الحرب القائمة هو شعور من ليس له بها ناقة او جمل •

وعندما اعلنت الثورة العربية في ١٠ حزيران **١٩١٦** وكانت ترمي الى استقلال البلاد العربية باجمعها ، وتصبو الى تكوين دولة عربية جديدة ، تنهض بالامة نهضة حقيقية وتعيد اليها مجدها السابق التليد ، عرف العسكريون العرب التابعون لجيوش السلطان أن هدفهم اصبح واضحا ، وراحوا يدخرون عتادهم وذخائرهم لاطلاقها في سبيل الثورة العربية •

وهكذا بدأ جيش الثورة ببعض الهجانة والبدو والمتطوعين الآتين من

مختلف الاقطار العربية ، ثم أخذ يكبر ويتضخم بانضمام العسكريين العرب اليه • فما ان يقترب الجيش العربي من احد المواقع التركية حتى يجد في صفوف هذه المواقع رجالا يمهدون له الطريق وينقلبون على الفور ضد قادتهم • وظلت هذه العملية تجري باضطراد في كل العمليات التي جرت في فلسطين والاردن حتى وصل الجيش العربي الى سورية •

أما اذا حدث ولم يلتحق بعض الضباط العرب في صفوف الثورة ، فلانهم ـ وبدافع وطني ايضا ـ كانوا يدركون بأن الجيش البريطاني الزاحف في مؤخرة الجيش العربي كان يستثمر النصر تلو النصر ليقطف في النهاية الثمرة الشهية دون بذل الجهد والتضحيات • وكانوا يدركون ايضا بأن تركيا قد انتهت عند « طلقة سيرايفو » ، فلا داعي لان يساعدوا الانكليز والفرنسيين على احتلال بلادهم • وبالاجمال ، فقد لعب العسكريون العرب عامة ـ والسوريون خاصة ـ دورا كبيرا في تحرير بلادهم من الجيوش العثمانية ، على أمل ان تتحقق وعود وعهود السير ماكماهون نائب صاحب الجلالة ملك انكلترا في الهند ومصر ••

٣ ـ دور العسكريين السوريين في ثورات ١٩١٩ ـ ١٩٢٢

لعب العسكريون السوريون دورا كبيرا في سبيل دعم ومساعدة الثورات السورية الاولى • فرغم أن الجيش السوري العربي كان معتبرا جزءا من جيوش الحلفاء ـ كما مر في الفصول السابقة ـ وأن قيادته غير المباشرة كانت تابعة للجنرال اللنبي ، الا أن العسكريين السوريين كانوا يخالفون الاوضاع ، ويشتركون اشتراكا فعليا في تموين وقيادة والاشراف على العمليات الحربية في جبل العلويين والشمال •

فقد وجد يوسف العظمة نفسه اكثر من مرة بصحبة صالح العلي في جبال العلويين • واشرف بنفسه على تخطيط وقيادة كثير من العمليات الحربية

وتموينها بالضباط والعتاد • وكان له الفضل الكبير في اتصال قوات هنانو وصالح العلي في معارك جسر الشغور • ومما جاء في بعض مراسلات الجنرال غورو الى الملك فيصل تلميحا الى هذا الموضوع :

« •• وان بعض رجالكم من العسكريين يضعون مبادىء تنظيم العصابات ضدنا ، ويستخدمونها لضرب جنودنا وثكناتنا • ويجب ان اشير الى ما أعلنه قائد الفرقة الثالثة في حلب يوم ١٣ نيسان ، فقد قال بالحرف الواحد :

لما كنا لا نستطيع ان نعلن الحرب رسميا على الفرنسيين فيجب ان نملأ البلاد بالعصابات التي تجهز عليهم تدريجيا ، وسيقود ضباطنا هذه العصابات ، فاذا استشهد أحد فسنعيل نحن عائلته ••• »(١)

ويشير غورو في مكان آخر من الخطاب الى هذه الناحية ، ويعدد حوادث اشتراك العسكريين السوريين في ثورات ١٩١٩ - ١٩٢٢ فيقول :

« •• وفي ٥ كانون الاول ١٩٢٠ تحقق لدينا وجود الجنود السوريين بين الذين هاجموا جنودنا في موقعة الحمام • وفي ٢٥ منه هاجم النقيب فؤاد سليم ومعه فئة من الجنود النظاميين موقعنا في جسر الليطاني • وبعد حارم وانطاكية المهاجمتين من قبل العصابات السورية هوجمت (بابنا) من ١٦ الى ٢٢ نيسان بلا انقطاع بقيادة الضابط السوري حسن بك • وفي حزيران ثبت وجود أمير لواء ونقيب وستة ملازمين و ٣١٦ رجلا من الجنود بين العصابات التي كانت تعمل في ساحة مرجعيون ، وثبت استعمال معدات مأخوذة من الجيش نفسه ، وهي اربعة رشاشات ثقيلة وثلاثة خفيفة وخمسون صندوقا من الذخيرة •• »

---

(١) الحصري يوم ميسلون ص ٢٨٦

وبعد انذار ميسلون ارسل غورو برقية الى الملك فيصل تتضمن أن يوسف العظمة لم يستجب لشروط الانذار الذي وافقت عليه الحكومة ، وقد جاء في البرقية المرسلة بتاريخ ٢٤ تموز :

« ٠٠ ان كتيبة مؤلفة من ٤٥٠ جنديا نظاميا مجهزة بمدفعين وعدد من الرشاشات هاجمت الجيوش الفرنسية بعد ظهر يوم ٢٢ شرقي تلكلخ ٠ (١)

٤ ـ دور الجيش السوري في معركة ميسلون :

يمكن اعتبار معركة ميسلون ثورة اكثرمنها معركة حربية ٠ فالمفروض ان يكون الجيش قد سرح بناء على تنفيذ شروط الانذار ، وان يكون العسكريون السوريون قد اصبحوا دون قيد يربطهم بقيادة او واجب ، ولم يبق أي داع يدعوهم للخروج من بيوتهم غير نداء الواجب الوطني ٠ ومع هذا فقد استجابوا لهذا النداء ـ ولو متأخرين ـ وسلموا قيادتهم ليوسف العظمة الذي خاض بهم معركة يمكن تصنيفها في سجل الخلود ٠ وبالرجوع الى تفاصيل المعركة ، التي وضع لها الفرنسيون كل امكانياتهم ، يستطيع المرء ان يتبين الدور الكبير الذي قام بها العسكريون السوريون بعددهم الضئيل وامكانياتهم التي لا تذكر ٠ ويفضح تقرير الجنرال غوابيه خاصة مقدار العناء الذي لاقته جيوشه الجرارة لتستطيع ايجاد منفذ بين خط الدفاع الذي ارتجله العظمة ارتجالا لوقف جحافل العدو المعززة بجميع الصنوف ٠ وبهذا فتح الجيش السوري امام الشعب طريقا معبدة لممارسة النضال ضد المستعمر ، ولقنه اصول الكفاح في اسوأ الظروف والاحوال ٠

٥ ـ دور الجيش السوري في ثورات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٧

من المعروف ما حل بالجيش السوري عقب الاحتلال الفرنسي ودخول

---

(١) المرجع السابق ص ٢٨٨

جيوش غوابيه الى دمشق • فقد سرحت بقايا الجيش ، وقبض على من خاضوا ميسلون وصودرت جميع الاسلحة والذخائر والمعدات التي وجدت في القلعة والمواقع والمناطق السورية الاخرى •

أما من استطاع الهرب من العسكريين فقد توارى عن الانظار مدة من الزمن ريثما اندلعت ثورات ١٩٢٥ – ١٩٢٧ فكان من الداعين اليها والمنضمين لصفوفها والمدربين لافرادها والقائدين لمعاركها والمشرفين على جميع شئونها الادارية والتنظيمية والحربية •

وقد دلت الاحداث على أن كثيرا من العسكريين الذين تطوعوا في جيش الاحتلال كانوا يخدمون الثورة بما لديهم من معلومات او تهريب اسلحة او تواطؤ مع الثوار في المعارك • او احتلال الثورة في بعض المراكز والمخافر التي كانوا يوجدون فيها • وفي هذا المجال يقول الجنرال فيغان المندوب السامي عام ١٩٢٣ في محاضرة القاها امام اللجنة الفرنسية الامريكية :

« •• ولم يكن في مقدورنا ان نعتمد كل الاعتماد في حفظ الامن على الفصائل المتطوعة ، فقد ثبت لدينا ان بين الثوار وبين هذه الفصائل اتصالات مشبوهة وتواطؤ شديد الغموض لدرجة اننا لم نستطع اكتشافه • »(١)

ويبين الدور الذي لعبه العسكريون السوريون في ثورات ١٩٢٥ – ١٩٢٧ تنظيمها التكتيكي والتكنيكي الذي يدعو الى الاعجاب ، ومبلغ السرية التي كانت تتميز بها معارك الهجوم والدفاع ، وضربات الكر والفر • كما استطاع العسكريون السوريون من خدمة الثورات بمجالات اخرى • فقد هرب كثير من المعتقلين السياسيين والثوريين من معتقلاتهم في سجن القلعة والمنافي بطرق غامضة كان رجال الحرس السوريين ابطالها الحقيقيين •

---

(١) المراحل ج ١ ص ١٢

٦ ـ دور الجيش السوري عام ١٩٤١ :

بعد سقوط فرنسا واحتلال الالمان باريس ، ظلت الادارة الفرنسية في سورية ولبنان تتبع حكومة فيشي حتى ظهور الجنرال ديغول وترأسه حكومة فرنسا الحرة التي أخذت تتعاون مع الحلفاء ، والتي قدم لها الانكليز كل ما تحتاجه من المال والسلاح لتقوم بالدعاية ضد حكومة فيشي ، ولتدعو جميع الفرنسيين ـ سواء من كان منهم في الوطن الام او من كان منهم في المستعمرات والبلدان المنتدبة ـ الى مناصرتها والانضمام اليها .

وبالفعل ، قاد كوليه أكثرية القوات الموجودة في سورية وانضم الى ديغول في فلسطين . ولكن الاميرال سوزلير والجنرال كلارك البريطانيين ، نصحا ديغول بعدم الاسراع باحتلال سورية قبل ان يتأكد من أن الفرنسيين الموجودين فيها قد التحقوا به ، وذلك كيلا يقاتل الفرنسيون بعضهم بعضا ، فأجاب ديغول بأن اكثرية الجيش الفرنسي اصبحت تحت قيادته ، وأن سورية خالية تقريبا من الجيوش الاجنبية .

وقدر الفرنسيون والانكليز ان تصل جيوشهما الى دمشق بظرف يومين دون ان تعترضهما أي مقاومة ، وما كان لوجود القوات البريطانية بمصاحبة ديغول الا سبب واحد ، هو محاولة الحصول على امتيازات حرمت منها منذ اتفاقية سايكس ـ بيكو الشهيرة . ولكن هذه الجيوش لم تستطع احتلال دمشق الا بعد ثمانية ايام ، وبعد مقاومة عنيفة كلفت ما يربو على الاربعة آلاف ما بين قتيل وجريح ، مما جعل الجنرال وايفل قائد الجيش الثامن في مصر وممون الحملة ان يصاب بخيبة مريرة ويهتف صائحا : « لقد علمتني التجارب بان لا اتقبل خبرا يتعلق بسورية يصدر عن جماعة فرنسا الحرة » . أما السير ونستون تشرشل فقد تألم اشد الالم ، واصدر تصريحه الشهير : « انني احمل كثيرا من الاوسمة ، ولكن اثقلها وأتعبها الى صدري هو وسام صليب اللورين .. » . وكان هذا الوسام شعار الديغوليين .

أما المقاومة العنيفة التي اعترضت الجيوش القادمة لاحتلال سورية من جديد ، فقد صدرت عن بعض المخافر السورية التي كان يرأس حامياتها ضباط سوريون برتبة ملازم وملازم أول . وقد تخلص هؤلاء الضباط من قوادهم الفيشيين بقتلهم او اعتقالهم ، وانبروا هم وجنودهم للدفاع مهتبلين فرصة خلو البلاد من الجيوش الاجنبية ، ومحاولين عدم السماح لهذه الجيوش بالرجوع اليها . وكانت أهم النقاط التي قامت بالدفاع : القنيطرة ، المزة ، درعا ، الكسوة ، تدمر .

وعلى الاثر خشي الفرنسيون والانكليز ان تستأنف الثورات السورية ، فأصدروا تصريحاتهم الشهيرة بأن استقلال سورية ولبنان قد تحقق ولم يبق الا التوقيع . ومن هنا بدأت انطلاقة الجيش والشعب في ثورة ايار ١٩٤٥ .

٧ ــ دور الجيش السوري في ثورة ١٩٤٥ :

عانت سورية خلال اربعة أعوام احتلالا جديدا من نوعه وهو الاحتلال الفرنسي الانكليزي ، صحيح ان الانكليز ادعو انهم لن يتدخلوا بشئون البلاد بصورة مباشرة ، الا ان مقدرات البلاد الاقتصادية كانت بين ايديهم بحجة الحرب ، وكانت الاراضي السورية كلها تقريبا مركزا استراتيجيا لتجمعات الجيوش الانكلو ــ فرنسية وحظيرة لتهتكها وفسادها .

ومهما حاول الفرنسيون والانكليز ــ سياسيوهم ومؤرخوهم وكتابهم ــ ان يبحثوا الخلافات السياسية التي اضطرمت بين سورية وبينهم في السنوات التي تقطعت بعد الحرب العالمية الاولى ، ومنتصف الحرب العالمية الثانية ، فانها لا تعدو أمرا واحدا ، هو ان السوريين ظلوا ينادون بالوصول الى استقلالهم وحريتهم ، وان الاستعمار كان يعارض ذلك بمختلف الطرق وشتى الاساليب .

أما ما عدا هذا من الاسباب فليس يعدو في الحقيقة الا ان يكون

ضربا من ضروب المساومات الدولية الاستعمارية على حساب الشعوب التي انهكتها جيوش الاحتلال والحروب واستنفاذ مواردها الحيوية • كانت غاية الشعب السوري هي الاستقلال والحرية ، وغاية الاستعمار الفرنسي والانكليزي هي منع هذا الشعب من الوصول الى حقه والبقاء في سورية والاستمتاع بمزايا موقعها الاستراتيجي الى الابد •

وأخيرا ، وعندما اضطرت الدولتان الى الوعد بهذا الاستقلال على مسمع العالم أجمع ، تحت ضغط القوة الشعبية والعسكرية السورية ، بدأتا بالتراجع عن وعدهما بأساليب وحجج لا يمكن ان يقبلها المنطق السليم •

كان الساسة الانكليز يعارضون سرا في بقاء الفرنسيين في سورية ، رغم رضائهم في الماضي بالانتداب الفرنسي عليها ، لانهم يجدون ان البلاد العربية التي تتململ تحت سيطرتهم لا يمكن تثبيتها في الطوق ما لم تكن سورية في منتصف الحلقة • وبعد دخولهم الى سورية في السنة الثانية من الحرب كمنقذين للبلاد من انياب الفاشية غير الموجودة ، ادركوا جيدا ان الشعب السوري قد سئم لعبة الاخذ والرد ، وراح يهيىء نفسه لثورة جديدة •

ووضع الانكليز في اعتبارهم مسألة تخلص سورية من الفرنسيين ، ولكنهم لم يستطيعوا ابدا ان يتصوروا بأن سورية ستصبح مستقلة دون ان يكون لهم فيها على الاقل ما يشبه « مسمار جحا » • وفي هذا الموضوع تتحدث اللادي سبيرز :

« لقد احتل الجيش التاسع سورية للدفاع عن مصر ، واما الفرنسيون فعم كانوا يدافعون •••؟ »

وبدأ الصراع الفرنسي ـ الانكليزي على سورية ، وراح الفريقان يجربان حظهما بالصيد في الماء العكر •

أخذ الفرنسيون يثيرون الفتن ويخلقون الحوادث في البلاد ليبرروا بقاءهم فيها ، فيما كان الانكليز ينفخون النار ليتسللوا الى أهدافهم بين حجب الدخان ، على مبدأ الانتهازيين « فليضربوا بعضهم بعضا ثم تتدخل نحن بلباس الملاك المنقذ » ٠

ولكن اللعبة كانت مكشوفة للعيان ، فبصيرة الشعب السوري لم تعد تخطىء ٠٠ ويقول سعد الله الجابري في حديث أدلى به في بيروت في واحد أيار ١٩٤٥ :

« ٠٠ وظلوا يسيرون على السياسة نفسها التي كانوا يتبعونها في ظل الانتداب ٠ مع انهم يدعون في كل مناسبة انهم اعطونا الاستقلال ٠ ولقد شاركنا الفرنسيين في أيام نكبتهم واحتلال الالمان لبلادهم وواسيناهم بما ملكت ايدينا وقلوبنا ، لعل الاحتلال يكون درسا لهم فيبدلون اساليبهم معنا ، فمتى ذاقوا مرارة الاجنبي في بلادهم خففوا من مرارتهم معنا ٠ ولكن ظهر انهم على العكس ، كانوا يبيتون لنا كل شر وضغينة ، ويتهيأون للشر ويعدون له اسبابه ، ولما جاء يوم النصر كان هذا اليوم عندنا يوم حزن وآلام لا يوم فرح واستبشار ، فقد جمعوا فيه جموعهم لاثارة الاحقاد وايقاظ الفتن ٠٠ وكان هذا اليوم مقدمة لما وقع بعده من تقتيل وتدمير وتخريب٠ ثم جاء دور انزال الجنود ، وقد حاروا كيف يبررون انزالهم ، فتارة يدعون انهم جلبوهم لتعزيز الامن ، مع أن سورية مسئولة عن امنها الداخلي ، وتارة يقولون انهم في طريقهم الى الشرق الاقصى ٠ والادعاء الاول باطل لان البلاد آمنة ، والثاني باطل ايضا لان سورية ليست اقرب طريق الى الشرق الاقصى ٠٠ »[١]

وبعد انزال الجنود وما أثاره وصولها من ضجة وسخط في اوساط

---

(١) مجلة الحرب العظمى « الحرب في سورية ولبنان »٠

الشعب ، تقدم الجنرال بينيه بمطاليبه : قواعد برية وبحرية وجوية وامتيازات اقتصادية وتجارية وثقافية و .. وبدأت الاحداث .

المدن السورية مقفلة عن آخرها ، جو مستطير من القلق والتجهم يكتنف البلاد بأسرها ، المظاهرات السلمية تمخر عباب الشوارع ، هتافات النساء والرجال والاطفال « لن نرضى بديلا عن الاستقلال » . الدرك والشرطة السورية تحتل سطوح الابنية وراء التحكيمات واكياس الرمل ، وبعض فصائلها تواكب المتظاهرين لتحميهم ولتحول دون حدوث اصطدامات . الدوريات الفرنسية الآلية تتربص للمتظاهرين في ناصيات الطرق .

و .. ويتقدم القنصلان الامريكي والبريطاني من اوليفا روجيه(١) ويطرحان عليه هذا السؤال : هل نأمر رعايانا بمغادرة المدينة ..؟ ويبهت الجزار لهذا السؤال ويرد : لماذا ..؟ ويتسارق القنصلان النظر بطريقة خفية ، ثم يجيب احدهما : ترامى الينا انكم ستحرقون المدينة .. ويحملق الجنرال عينيه من الدهشة .. ثم ينفجر ضاحكا : « كنت أفكر بشيء .. ولكنني لست أدري كيف أعبر عنه .. ها هو .. لقد وجدته .. »

وفي مساء التاسع والعشرين من ايار ١٩٤٥ جلس الضباط والجنود البريطانيون في أماكن مرتفعة من ثكنات المزة والقدم والقابون ، يشربون الويسكي ويتبادلون الانخاب ويتراهنون ، تحت السماء المحتقنة الحمراء ، المصبوغة باللهب المتصاعد من اطراف المدينة ، المتصدعة من ضغط الانفجارات .. ويبتسم احد الجنرالات وهو يلوك الغليون بين اسنانه ، ويغمغم بحبور شديد : ان هذا المنظر يذكرني بروما وهي تحترق ... »

واذا كانت دمشق قد حرقت للمرة الثالثة في غضون عشرين عاما ،

---

(١) اوليفا روجيه كان آنذاك المندوب السامي في دمشق

واذا كان مجلس نوابها ـ أقدس مقدساتها ـ قد انتهكت حرمته وقتل حرسه بأبشع طريقة عرفتها الوحشية ، واذا كانت سورية قد فقدت من ابنائها آلاف الضحايا بأسبوع واحد ، ومن دورها ومبانيها مئات ومئات ، اذا حدث كل هذا وغيره في ثورة أيار ، فذلك يدل على أنها دفعت ضريبة الحرية والاستقلال ثمنا غاليا مما عرفـــه تاريخ الشعوب المكافحة من أجل البقاء .

أما دور الجيش السوري في هذه الثورة ، فكان دورا ايجابيا وفعالا على أوسع نطاق . كان العسكريون السوريون خلال هذه الفترة يعانون ما يعانيه الاسرى من غصة ومتاعب . فمنذ بدء الحوادث ، فرض عليهم البقاء في الثكنات ، ووضعت عليهم الرقابة والحراسة الشديدة . وعزلوا عن بعضهم عزلا تاما ، بحيث صاروا يحنون الى رؤية أو سماع خبر يتعلق بالاحداث الجارية ، وأصبحت مشـــكلتهم الاولى التخلص من قبضـــة الفرنسيين ، ثم الالتحاق بقوات الشعب المتطوعة للكفاح حتى النهاية .

ولكنهم ـ رغم كل هذا ـ استطاعوا ان يتغلبوا على المصاعب وان يهربوا من الطوق المحكم برقابهم ، ويلتحقوا بقوات الشعب والـدرك . وكانت أولى عمليات الهرب في مدينة دمشق من ثكنات الحميدية والعباسية، اذ تمكن الملازمون الاولون السوريون ـ بطرق مختلفة ـ من الافلات ، مع ما استطاعوا نقله من الاسلحة والذخائر والجنود .

وفي الضمير ، حاول الفرنسيون ان يخمدوا حركة التمرد في صفوف قوى البادية بنار الرشاشات ، ولكن جنود هذه القوى تمكنوا من احباط الخطة ، فاستولوا على مخزن السلاح واحدثوا في الثكنة ما يشبه الانقلاب العسكري ، فقتلوا قائد المعسكر الكومندان مورو مع تسعة من الجنود الفرنسيين ، وتوجهوا الى دمشق ومعهم سيارة مصفحة ..

وفي جبل الدروز ، تعاون عسكريو الجيش السوري مع الشعب على مهاجمة الثكنات الفرنسية واحتلالها ، واسر الضباط الفرنسيين والاحتفاظ بهم كرهائن حتى الجلاء .

وفي حوران ، استولى الوطنيون على ثكنات درعا وازرع بعد ان سقط منهم العديد من الشهداء وتمكنوا من اطلاق الجنود والضباط السوريين لينضموا اليهم ويشكلوا جبهة واحدة .

وفي حمص تمكن طلاب الكلية العسكرية من اختراق الاسلاك الشائكة المحيطة بالجدران وان يسحبوا معهم زملاءهم المترددين ، ويلتحقوا بالقوات الوطنية التي كانت تحاصر القلعة .

وفي حماة والمنطقة الساحلية تعاون العسكريون السوريون على الانقضاض على القوات الفرنسية وتجريدها من السلاح . وفي المنطقة الشمالية ودير الزور شكل الضباط السوريون جبهة ثورية ، راحت تذيع البيانات وتطبع المناشير وتحث الشعب والجنود على التضحية والبذل والانخراط في صفوف الثورة .

وبالاجمال ، كانت عملية التحاق العسكريين السوريين بالقوات الوطنية ، بمثابة الفصل في قضية استقلال البلاد وجلاء الجيوش الاجنبية عنها . وقد يعزو بعض السياسيين جلاء الجيوش الفرنسية الى غيرة وعدالة الانكليز ، ويعزو آخرون جلاء الانكليز الى تعنت وحماقة الفرنسيين ، غير أن الواقع يثبت أن جلاء آخر جندي انكلو ـ فرنسي عن سورية في ١٧ نيسان ١٩٤٦ لم يكن الا بعد قناعة تامة بأن سورية اصبحت لشعبها العربي المكافح الذي أصبح له جيش يحميه ويرد عنه غائلة الاطماع وعاديات الاستعمار .. فضلا عن أن الظروف الدولية في ذلك الحين وظفر

القوى التحريرية في العالم ساعدتنا على جعل الكفاح العربي في سورية يؤتي أكله عاجلا .

وأخيرا ..

في كل نيسان .. في كل سابع عشر من نيسان ، يخرج الشعب العربي في سورية الى الشوارع ، ويتسلق الناس الاشجار واسطحة المنازل ، ليشاهدوا معالم أفراحهم ، وليرقبوا الاعلام الخفاقة ترفرف في الاعالي ، وليسيروا بقلبهم ومهجهم بخطوات موزونة على الحان الموسيقى العسكرية في مقدمة جيشهم القوي الباسل ، وتهتف الحناجر حتى لتبح ، وتصفق الايدي حتى لتدمى ، وتخفق الافئدة في الصدور .. ويبرز الشهداء - شهداء الكفاح ، محققوا الحرية ورافعوا راية العزة القومية ، يبرز الشهداء في مواكبهم الهادرة ، كتلا هائلة من الفولاذ ، تشق الطريق الى آفاق بعيدة ، الى الغد .. الى المستقبل المشرق ، الذي يزداد اشراقا يوما بعد يوم ..

الفهرس

الفصل الخامس :

الفصل السادس :

الفصل السابع

الفصل الثامن :

الفصل التاسع :

الفصل العاشر :

الرسوم والمصورات

الرسوم

المصورات

المصادر

١ ـ ساطع الحصري : يوم ميسلون
طبع بيروت ١٩٤٧

٢ ـ محي الدين السفرجلاني : تاريخ الثورة السورية
طبع دار اليقظة العربية

٣ ـ عزة دروزة : حول الحركة العربية

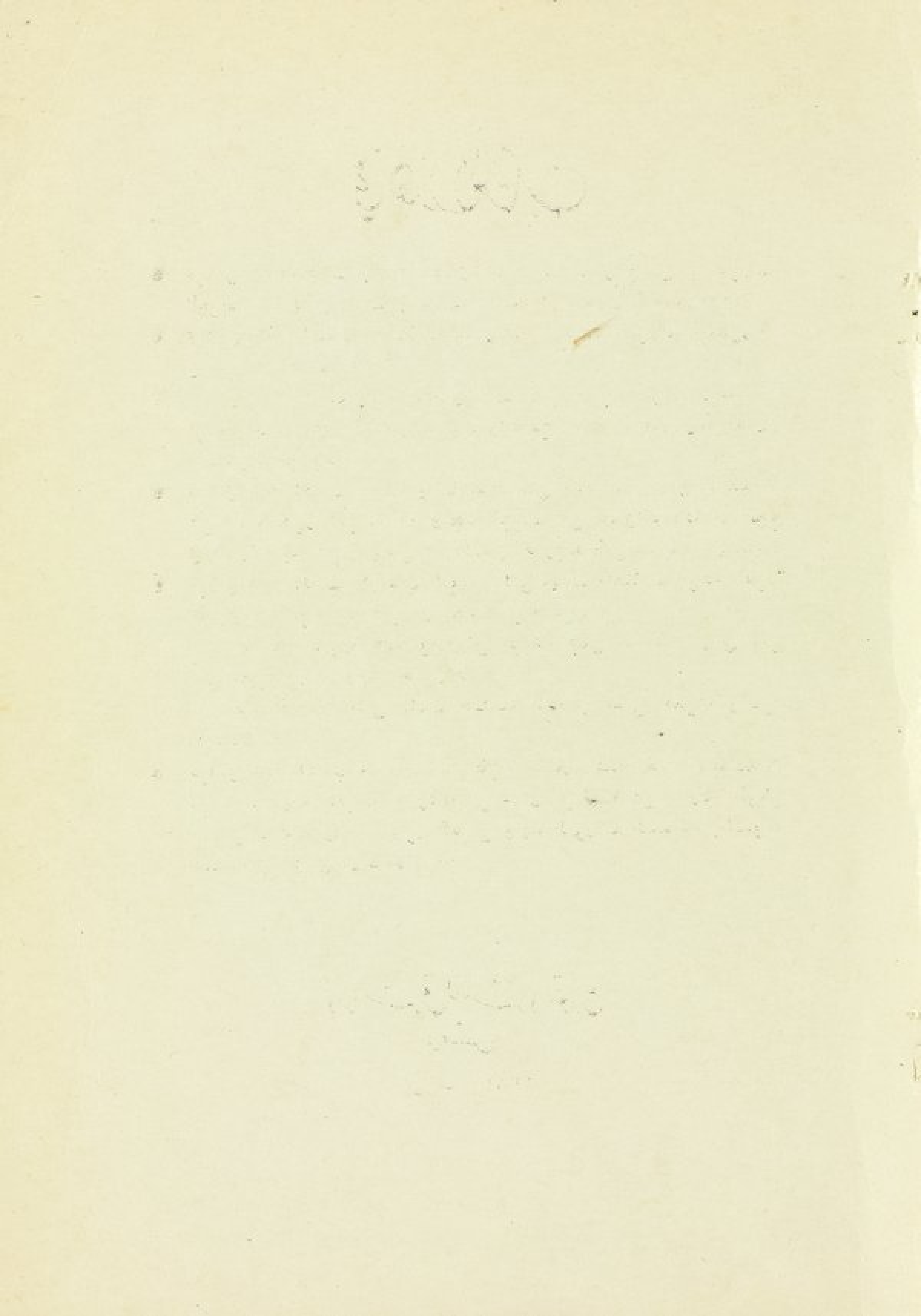
٤ ـ جورج انطونيوس
وترجمة علي حيدر الركابي : يقظة العرب
طبعة مطبعة الترقي بدمشق ١٩٤٦

٥ ـ عبد الرحمن الكيالي : المراحل .

٦ ـ مذكرات المجاهد يوسف السعدون .

٧ ـ حرب فرزت : الحياة الحزبية في سورية .
دار الرواد بدمشق ١٩٥٤

٨ ـ الكتاب الذهبي لجيوش الشرق .





- تقرأ في هذا الكتاب وصفاً لنضال أبناء الشعب والجيش في سوري العربية ، كتفا الى كتف ويدا بيد ، ضد الاستعمار البغيض ...
- تقرأ في هذا الكتاب تحليلا دقيقا واعيا لاسباب الثورات التحري في سورية العربية .
- تقرأ في هذا الكتاب وصفاً حيا في قالب أدبي رائع مدعوم بالاسانيد لمعارك البطولة في المزرعة والمسيفرة والشيخ بدر وبشراغي وكفرتخاريم وميسلون والغوطة ...
- تقرأ في هذا الكتاب تقويما واعيا لخصائص هذه الثورات ولنتائجها في حركات التحرر العربية .. وتجد الجواب عن تساؤلك لماذا لم تنجح في حينها ، وما هي العوامل الداخلية والخارجية التي سببت اجهاضها.
- تقرأ في هذا الكتاب الاسباب البعيدة التي مهدت للجلاء ـ فرحة العرب الكبرى في سورية ـ قبل أن يحدث بربع قرن .

  كما تجد صورة حية لوجه كل مجاهد حمل بندقية ، وكل طفل رمى حجرا ، وكل رجل اختزن حقدا ...

  تجد المدرسة التي علمت جيلنا الحاضر معنى الحرية وكره الاستعمار .
- تقرأ في هذا الكتاب ما ينير لك الطريق لتدرك لماذا يحقد الاستعمار على سورية العربية ، ولماذا يريد ان يزيلها من خارطة الوطن العربي ـ لانها رائد التحرر العربي ومهد الثورات الشعبية والشوكة الصلبة في أحداق الاستعمار ...

صدر عن

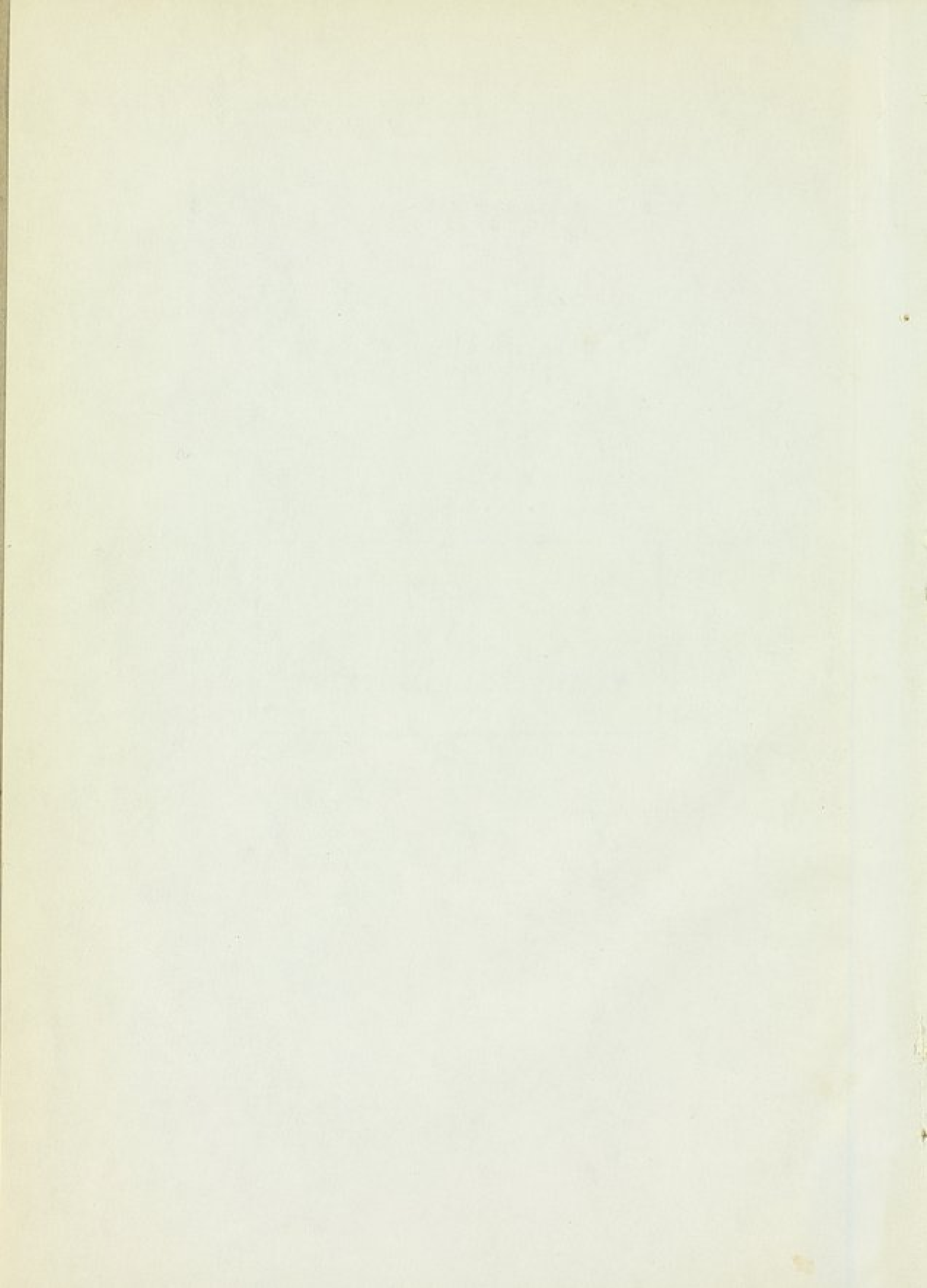
دار الشرق للنشر والتوزيع

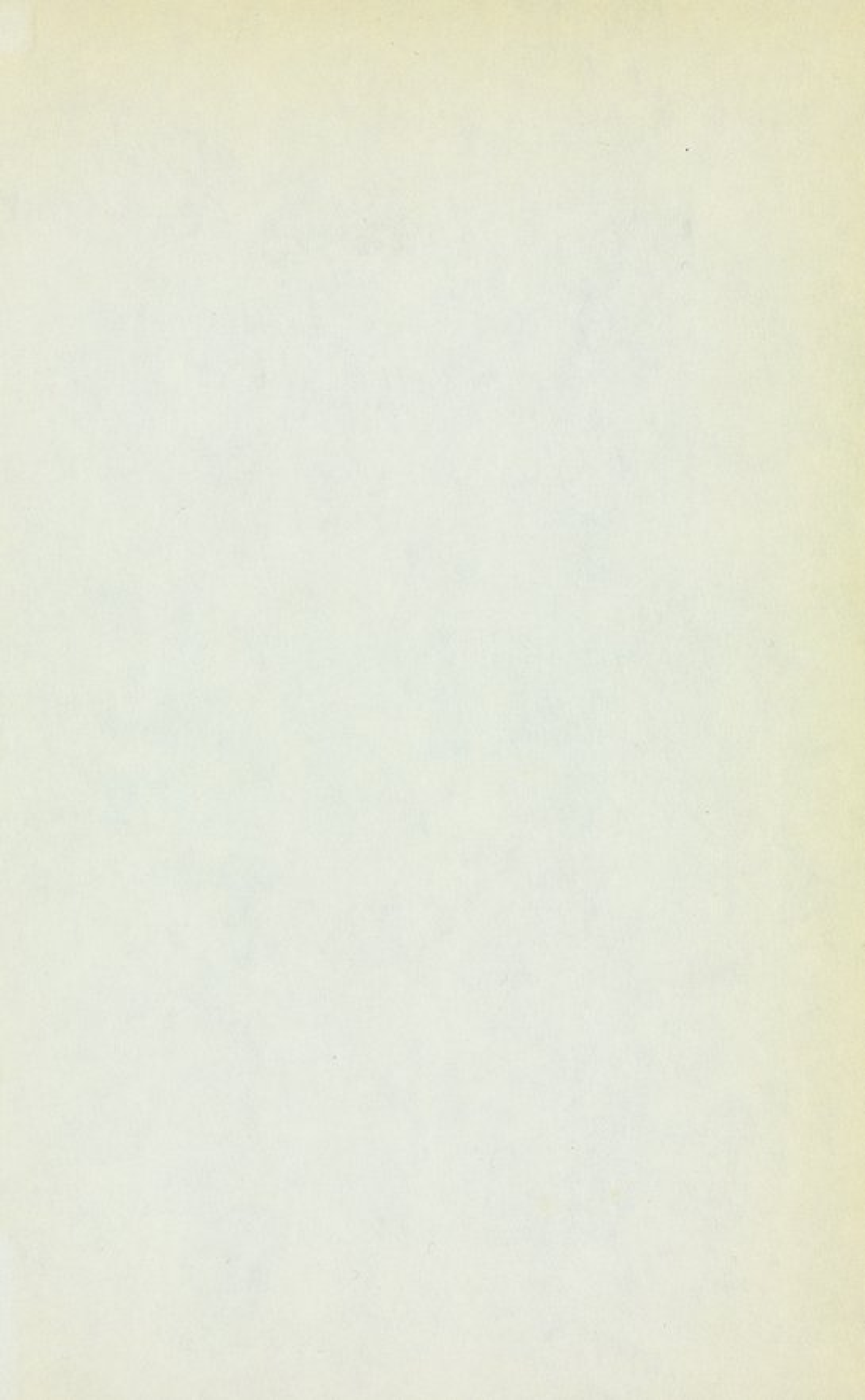
دمشق

ص.ب. ٢٣٨٢

مطبعة الجمهورية ـ دمشق

السعر ٥ ل.س






Princeton University Library
32101 071971137